الثقافة الجديدة



257



الموقف الأدبي

رئيس التحرير : د . غانم حمدون

المقالات المنشورة تعبر عن رأي أصحابها

257

العدد 7 السنة 40 أيلول - تشرين ١ 1993

فهرست

● تقارير

111 ـ أدب وفن

الغلاف الأول: بوستر المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي للفنان صلاح جياد
الغلاف الثاني: بوستر للفنان جعفر طاعون

٣٥ سنة على تدشين الاصلاح الزراعي

محاولة لتقييم مسيرة الاصلاح الزراعي

المهندس الزراعي حسين علي

عند قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ كانت الملكية الكبيرة سائدة في الأراضي الزراعية. والأرقام التالية تعطينا فكرة واضحة حول ملكية الأراضي الزراعية :

- ٤٩ عائلة كانت تملك مامجموعه حوالي ٥,٥ مليون دونم.
- ٣٥٢ شخصاً يملك كل منهم أكثر من ١٠ آلاف دونم وتتجاوز ملكية بعضهم ١٥٠ الف دونم.
- ١٢٨ شخصاً يكونون ١٤ بالمئة من مالكي الأرض ويملكون مامجموعه أكثر من ٦ ملايين دونم أي ١٩٪ من مجموع الأراضي الزراعية.
- ١٨ شخصاً في لواء (محافظة) العمارة يملكون مامجموعه ٢,٢٥ مليون دونم.

وجدير بالذكر أن مثل هذه الملكيات الضخمة للأرض لم تنشأ من «عزق جبين» وكفاءة المالكين الحاليين أو أسلافهم، بل كانت الأرض، أميرية، تملكها الدولة على مر العصور، ثم وضعت في مختلف العهود السابقة بتصرف أو حيازة شيوخ العشائر ووجهاء المدن وكبار موظفي الدولة بدوافع وذرائع وأشكال مختلفة. وهكذا سادت العلاقات شبه الاقطاعية التي في ظلها ساد الفقر والهزال والاضطهاد حياة الفلاحين، الذين كانوا يشكلون غالبية سكان العراق وقواه العاملة قبل ثورة تموز. وكان تخلف الزراعة وفقر شغيلتها عائقاً حاسم التعويق

لتصنيع البلاد وتطورها الشامل. وبذلك كانت العلاقات شبه الاقطاعية من أهم عوامل استمرار تخلف الاقتصاد، وبالتالي تبعيته. فالزراعة كانت المصدر الأكبر للناتج المحلي، إذا ما استبعدنا منه انتاج النفط الخام الخاضع لسيطرة الاحتكارات الأجنبية.

ومن دون تحرير الاقتصاد الوطني من التخلف والتبعية يبقى الاستقلال السياسي المتحقق هشاً ويفقد الكثير من مغزاه في حياة أغلبية الشعب.

وعليه كان تحرير الاقتصاد من العلاقات شبه الاقطاعية ضرورياً لتقدم البلاد ومطلباً ملحاً لغالبية الفلاحين. وهكذا أعلنت السلطة الجمهورية قانون الاصلاح الزراعي في ٣٠ ايلول ١٩٥٨. وقد إعتُبر من أهم منجزات العهد الجديد، حتى قيل ان الانقلاب الذي أنجزه الضباط الأحرار ماكان يستحق تسمية الثورة لولا تدشين الاصلاح الزراعي.

لقد تناول ذلك القانون ثلاثة أمور أساسية هي:

- تحديد سقف ملكية الأرض الزراعية والاستيلاء على مازاد عنه بغية توزيعه على الفلاحين.
- إقامة تعاونيات زراعية تساعدهم على ادامة وتطوير الانتاج.
- تنظيم العلاقة الزراعية وتحديد نسبة مايُحسب من الناتج لكل من عوامل الانتاج، أي تحديد حصتي الفلاح ومالك الأرض.

لقد حدد القانون سقفاً متوسطاً للملكية، إفتُرض أنه سيحرر حوالي ٤٠٪ من مجموع الأراضي الزراعية لتوزيعها على الفلاحين. وكانت بعض الأوساط المشاركة في السلطة ترى رفع السقف من الف دونم الى عشرة الاف دونم لضمان «حياة لائقة» للملاكين. ولو أخذ برأيهم لما تحررمن الأرض سوى حوالي ١٥٪.

أما القانون الثاني الصادر في سنة ١٩٧٠ فقد خفض سقف الملكية. ويفترض ان يحرر هذا التخفيض ٢٠٪ أخرى من الأرض ليصل المجموع الى ٦٠٪. واعتبرت السلطة ذلك نهاية المطاف وانه هو «الاصلاح الزراعي الجذري».

كان الاستيلاء على مازاد عن السقف المحدد من الأرض وتوزيعه على الفلاحين الهدف المرحلي للاصلاح الزراعي. أما هدفه الأبعد فهوتطوير القوى المنتجة بما يؤدي الى رفع مستوى الانتاج الزراعي كماً ونوعاً، ليواكب ويدعم التنمية الاقتصادية والتطور العام للبلاد، بما في ذلك نمو السكان وارتفاع مستوى المعيشة، في المدن على الأقل.

وشأن أية عملية اقتصادية - اجتماعية بهذه الضخامة والأهمية فقد ظل الاصلاح

الزراعي مدارخلاف في الآراء والمواقف. وذلك يعكس، بصورة مباشرة وغير مباشرة، التناقض بين مصالح الفلاحين وكبار الملاكين الذين تربطهم علاقات شتى بتجار المدن وكبار موظفي الدولة.

فليس من الغريب، إذن، ان يؤثر ويتأثر الاصلاح الزراعي كثيراً بالحياة السياسية التي شهدت فوراناً عارماً منذ اليوم الأول للثورة. ففي حين اعتبرته قوى اليسار الجوهر الاجتماعي للثورة الوطنية الديمقراطية وطالبت بتعميقه، تحالفت قوى اليمين، لابقائه عند الحد الأدنى، أو لتعويق تنفيذه، بل ذهب بعضها الى حد إستصدار فتوى بتحريم الصلاة على الأرض الموزعة بموجبه على فقراء الفلاحين.

وبطبيعة الحال، كان الصراع حول قضايا الاصلاح الزراعي يدور في خضم الصراع العام حول وجهة سير الثورة، وبالتالي حول السلطة. وقد أدى احتدام الصراع السياسي الى نتائج وخيمة لم تكن في حسبان الوطنيين الذين عملوا على إسقاط الحكم الملكي. فلو أنهم قد أدركوا مسبقاً حدة التناقضات التي ستتفجر مع تدشين الاصلاحات اللازمة لاخراج البلاد من التخلف والتبعية، لسعوا، أغلب الظن، الى وفاق حول قواسم مشتركة بشأن المهام التي ينبغي انجازها بعد إطاحة السلطة الملكية، ولاتفقوا كذلك على بعض الضوابط لادارة الصراع حول القضايا الخلافية.

ان مسيرة الاصلاحات التي دشنت في العهد الجمهوري لا تساعدنا فقط على المعرفة العيانية لواقع مجتمعنا في الوقت الحاضر، بل تنطوي كذلك على دروس قيمة لكل الذين يعملون ليس فقط من أجل اسقاط الدكتاتورية بل كذلك من أجل اعادة البناء ، المادي والروحي، لمجتمعنا، وهي عملية مديدة شاقة ينبغي ان نجنّبها أخطاء الماضي وعواقب الأوهام التي مازالت عالقة في بعض الأذهان.

الاصلاح الزراعي بين السياسة والارتجال

ان انجاز مهمة بضخامة الاصلاح الزراعي يتطلب خطة تحدد الأهداف، وتشخص أولويات التنفيذ، وتتابع خطوات التنفيذ حتى انجاز العملية.وكل ذلك ينبغي أن يجري في ضوء الواقع القائم مع توفير متطلبات التنفيذ. ولكن «الهيئة العليا للاصلاح الزراعي» التي استحدثها القانون المعلن في ٣٠ ايلول ١٩٥٨ لم تكن قادرة على اداء هذه المهمة إذ

غلب في تركيبتها رجال القانون. ولعبت الاعتبارات السياسية الناشئة عن احتدام الصراع بين قطبي السلطة (قاسم وعارف) ومؤيديهما دوراً واضحاً في استعجال الاعلان عن بدء الاصلاح الزراعي قبل وضع خطة مناسبة وتوفير مستلزمات تنفيذها من ضمان استمرارعملية الانتاج الزراعي. ثم ان انجاز المشاريع الزراعية يتطلب من الوقت والجهد والمال مايزيد كثيراً عما تحتاجه المشاريع في أغلب القطاعات الأخرى. لذلك يلعب الاستقرار دوراً أساسياً في نجاح الاصلاح الزراعي. غير ان أهدافه واجراءات تنفيذه ظلت عرضة للتغيير تبعاً لتقلب الاعتبارات السياسية المباشرة، خاصة في العهد الحالي، الذي بدأ بالمزايدة مع اليسار وبالغ في تدخل الدولة في الزراعة، ثم انتهى بالتنكر لعدد من اجراءات الاصلاح الزراعي وتصفية القطاع الحكومي في الزراعة، واستيلاء الأسرة الحاكمة على عدد من أهم مؤسساته بأبخس الأثمان. وفي غضون ذلك خضع القطاع الزراعي وعملية الاصلاح لاعتبارات وعواقب الحروب الداخلية والخارجية المدمرة، وكذلك لتقلبات مزاج الدكتاتور ومصالح حاشيته.

الملاكون والفلاحون والادارة

تضمن القانون الأول للاصلاح الزراعي حق الملاك باختيار موقع الأرض الباقية له عند الاستيلاء. وعند البدء بتنفيذ القانون، لوحظ ان الملاكين يختارون قطعاً في مواقع متعددة حسب جودة الأرض وسيطرتها على مجاري الري والبزل. وكان ذلك من أسباب احتدام نزاعهم مع الفلاحين، الأمر الذي ألحق ضرراً غير قليل بعملية الانتاج. ومما زاد هذا الضرر سوءاً إغراق عملية الاستيلاء بشكليات قانونية أبطأت تنفيذه وأبقت الأرض الخاضعة للإستيلاء بيد ملاكيها. فنكص هؤلاء عن الوفاء بالتزاماتهم المعتادة لتمشية عملية الانتاج.

ولم يجدِ فتيلاً الغاء حق الاختيار للملاكين لانه جاء بعد فوات الأوان، ولكثرة الاستثناءات التي نالها مؤيدو السلطة وحاشية رئيسها من أحكام القانون.

وينبغي الاشارة الى أن تغيير الملكية الزراعية لابد أن يخلق في البداية تخلخلاً في العلاقات الزراعية ذا تأثير سلبي على عملية الانتاج. وهذا ماشهدته مختلف البلدان التي طبقت الاصلاح الزراعي. ولتقليل هذا التأثير وتقليص فترة الارتباك كان ينبغي لجهاز

الاصلاح الزراعي الذي حل محل المالك السابق للأرض ان يتولى ادارة العمل الزراعي في هذه الأرض وإشراك الفلاحين، الذين تهمهم هذه العملية أكثر من غيرهم، اشراكاً فعالاً في هذه الادارة... وقد ضرب الفلاحون المتعاقدون بعقود جماعية مع الاصلاح الزراعي مثلاً طيباً في بعض المناطق على التعاون المثمر في مواصلة الانتاج وكان لجمعياتهم الفلاحية دور بارز في تعبئة جهودهم بهذا الاتجاه. ويروي زميل كان مهندساً للري في المنطقة الجنوبية واقعة ذات دلالة. ففي بداية الاصلاح الزراعي تجمع في منطقة لزراعة الشلب حوالي الف فلاح لعمل سدة وقتية (حمول) من القصب والبردي والتراب لغرض الري. فانجزوا عملهم في يوم واحد، حتى قبل ان تعلم السلطة الادارية بذلك. وكان مثل هذا العمل يستغرق في السابق أياماً طويلة وذلك على أساس السخرة التي يفرضها على الفلاحين الملاكون بمساعدة الادارة والشرطة.

غير ان مثل تلك المبادرات الايجابية سرعان ماطالها الكبت بدل الرعاية والتعميم. فقد عملت السلطة على اخضاع حركة الفلاحين لسيطرة أجهزتها مستفيدة من الخلافات الحادة بين الأحزاب ذات النفوذ في الريف. ومعلوم أن الأجهزة الادارية قد تربت على خدمة الملاكين والمساهمة في اخضاع الفلاحين لمشيئتهم. ولم يطرأ على تركيبتها تغير هام بعد تدشين الاصلاح الزراعي. فعملت على عرقلته وتحمست لقمع حركة الفلاحين وخنق مبادراتهم.

غير ان السيطرة الحكومية على الحركة الفلاحية اتخذت أبعاد أشمل بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ وذلك في اطارعملية «التبعيث» القسري الذي مارسته السلطة على أوسع نطاق. وبات على منظمات الفلاحين ان تظهر التأييد لاجراءات السلطة حتماً وان كانت في غير صالحهم.

عند النظر الى سلبيات توزيع أراضي الملاكين على الانتاج الزراعي، ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار أن فقراء الفلاحين الذين كانوا يعانون الحرمان لابد أن يشبعوا بطونهم من منتوجهم حين تصبح الأرض ملكاً لهم. وواضح أن ارتفاع مستوى معيشة الفلاحين يمثل واحداً من أهم أهداف الاصلاح الزراعي. ومن شأن ذلك أن يؤدي الى تحسن قواهم البدنية وبالتالي قدرتهم على العمل الذي يغلب عليه الطابع اليدوي. فليس جميع الهبوط في مقدار المحصول المسوق في المدن من سلبيات الاصلاح الزراعي.

وسائل الانتاج الزراعي

تنتفي الصفة الزراعية عن الأرض مالم يتوفر لها الماء الكافي سواء من المطر أم بالري. ولأن فيضان دجلة والفرات في الربيع لا يتزامن مع حاجات موسمي الزراعة الشتوية والصيفية، فلابد من خزن المياه بالسدود لدرء مخاطر الفيضان ولتغذية النهرين في الصيف. ومن الضروري تنظيم توزيع مياه الري ابتداء من الأنهر الرئيسية حتى الجداول الحقلية بواسطة النواظم. ومنذ العصور القديمة أدرك مزارعو وادي الرافدين هذه الضرورة وعملوا وفقها بطرق بدائية مازالت متبعة في بعض المناطق (الجزز في منطقة ديالى، والحمول في مناطق الأهوار). وفضلاً عن توفير طاقة كهربائية بكلفة رخيصة نسبياً، فان السدود تساعد على توسيع رقعة الأرض المروية. وتنبع الحاجة الى ذلك في العراق من حقيقة أن حوالي نصف الأراضي الديمة غير مضمونة الانتاج لقلة وتذبذب سقوط الأمطار، علماً بأن حوالي ٦٠٪ من المحاصيل الشتوية، ولاسيما القمح، يأتي من المنطقة الديمية في الشمال.

وعليه فان تحقيق الهدف البعيد من الاصلاح الزراعي يتطلب توسيع وتنظيم الري. وينبغي ان يرافق ري الأراضي الرسوبية في وسط البلاد وجنوبها تطوير البزل، لأن ارتفاع مستوى المياه الأرضية يؤدي الى تكون السبخ، الذي كان من عوامل اندثار حضارات وادي الرافدين. فالبزل ينبغي ان يتلازم مع الري في الموقع والزمان، ابتداء من الجداول الحقلية الى المبزل (المصب) العام. وقد عانت مشاريع الري والبزل من التأخير الذي أضر بالأرض الزراعية وأعاق تطور الانتاج. ولو استثمرت الأموال الهائلة، التي وفرها تصدير النفط للدولة، في ميادين الانتاج بدل إهدارها على التسلح والبذخ لأحرز قطاع الري والبزل التقدم الذي يتطلبه رفع مستوى الانتاج الزراعي واستصلاح الأراضي.

ولئن تأخرت مشاريع الري والبزل في المرحلة الأولى بسبب ضعف التخطيط وعدم الاستقرار وقلة الموارد نسبياً، فان هذه المشاريع خضعت منذ ١٩٦٨ الى الاعتبارات السياسية ومصالح العائلة الحاكمة وحواشيها، بل حتى لنزوات الدكتاتور. مصير «المصب العام» المصمم في الخمسينات لنقل مياه المبازل الى البحر نموذج للاستهتار والديماغوجية في هذا القطاع. فأجهزة الاعلام الحكومية لقبته «النهر الثالث» وكذلك بـ «نهر القائد» وكان غرضها الري لا البزل. فاذا تحقق تغيير وظيفة هذا المشروع فانه سيلحق ضرراً كارثياً بالأرض الزراعية على المدى الطويل وذلك لانه سيحرمها من تصريف مياه المبازل الفرعية.

وثمة أخطار كارثية أخرى تهدد الزراعة والاقتصاد الوطني ناجمة عن الشحة المتوقعة للمياه المتدفقة من تركيا بسبب مضيها في اقامة المشاريع المائية الضخمة في أراضيها دونما اعتبار لحاجات العراق وسورية.

وجدير بالذكر ان من عيوب قانون الاصلاح الزراعي الأول انه اعتمد التوزيع الفردي للأرض مما زاد في مشاكل الري والبزل. فاستقلال كل فلاح بأرضه يتطلب تنظيم الري والبزل لها على انفراد. وفضلاً عما يتطلبه ذلك من مال ووقت، فانه يزيد استهلاك مياه الري، ويؤدي الى تفاقم ارتفاع مستوى المياه الأرضية وبالتالي زيادة السبخ. وكانت الزراعة قبل الاصلاح تجري، في الغالب، باسلوب النيرين للتقليل من ارتفاع الملوحة. فكان الفلاحون يركزون الزراعة في جانب من الأرض، فيقتسمون مساحتها ومياه ريها ثم يتركونها في السنة التالية بوراً ويتحولون الى الجانب الآخر. ولابد قبل التخلي عن الأسلوب البدائي من استكمال شبكة الري والبزل واستصلاح الأراضي.

أما القانون الثاني لعام ١٩٧٠ فقد أقر التوزيع الجماعي الى جانب التوزيع الفردي للأرض، لكن ذلك جاء بعد فوات الأوان حتى لو طبق التوزيع الجماعي الذي ظل في الواقع حبراً على ورق.

ولا يستوي الحديث عن الري دون التطرق الى المضخات. فلعدم كفاية النواظم على الأنهر والجداول لتنظيم وتوزيع مياه الري، لاسيما في حوض دجلة الذي ترتفع ضفافه عن مستوى الماء أكثر من نهر الفرات، بقيت الزراعة في مناطق كثيرة على السقي بالواسطة كالمضخات والنواعير والكرود. وهي تمثل حوالي خمس الأراضي المروية وثمن الأراضي الزراعية. وتكون الزراعة في الأراضي التي تسقى بالواسطة أغلى منها في الري سيحاً. وكان ذلك من أسباب قلة المضخات قياساً الى الحاجة. وقد استولى الملاكون على أغلب المضخات بموجب حق «الاختيار» وكرسوها لسقي الأرض التي أبقاها الاصلاح الزراعي لهم، وذلك رغم ان دوائر الري كانت قد أجازت نصب وتشغيل المضخات لسقي كل الأرض. وقد أدى حرمان الأرض الموزعة على الفلاحين من الماء الى تركها بدون زراعة وبالتالي هبوط الانتاج وتزايد النزوح الى المدينة. وقد اتخذت المضخات أحياناً وسيلة لاخضاع الفلاح المتحرر الى سيطرة الملاك. وظل دور الدولة ضعيفاً في سقي الأرض بالمضخات وذلك لأن أكثر من ٩٠٪ من هذه المضخات عائد الي القطاع الخاص. وكان بوسع الدولة انشاء محطات لضخ الماء تساعد على تلافي النقص لحين استكمال مشاريع الري.

وعند بدء الاصلاح الزراعي كانت الساحبات تلبي أقل من ١٠٪ من حاجة الزراعة. وهي مملوكة للقطاع الخاص الذي تسرب اليه كذلك أغلب الساحبات المستوردة والمنتجة محلياً، بحيث أصبح يملك أكثر من ٩٠٪ من الساحبات. وكان عدد غير قليل من ساحباته يستخدم خارج القطاع الزراعي، حيث الربح الأعلى. أما بالنسبة للحاصدات فيملك القطاع الخاص حوالي ٧٠٪ من مجموعها. ولا يختلف الوضع كثيراً بالنسبة للمعدات الزراعية الأخرى. وقد صفيت محطات المكائن الزراعية التي أنشأتها الحكومة في البداية، وذلك حتى قبل الشروع بتصفية منشآت القطاع الحكومي في أواخر الثمانينات.

ولم يكن لدى الفلاحين المستفيدين من الاصلاح الزراعي من وسائل الانتاج غير المسحاة والمنجل. فكانوا بأمس الحاجة الى التسليف الحكومي لتوفير البذور والسماد ومواد المكافحة ..الخ. وقد تخلف عن القيام بالتسليف جهاز الاصلاح الزراعي الذي حلّ محل المالك. فحسب الاحصاءات الرسمية لم يتجاوز التسليف في السنة الأولى مليون دينار، وفي السنة الثانية مليون ونصف المليون دينار.، ولم تحصل التعاونيات التي شملت الفلاحين في أراضي الاصلاح الزراعي الا أقل من ١٥٪ من مجموع القروض الحكومية حتى الثمانينات.

مازالت الدواب وسيلة ضرورية للانتاج النباتي ولنقل المحاصيل. ويمثل الانتاج الحيواني جانباً متزايد الأهمية من الانتاج الفلاحي. وقبل الشروع بالاصلاح الزراعي كانت العناية طفيفة بالثروة الحيوانية. فتربية الماشية اعتمدت في الغالب على المراعي الطبيعية غير المضمونة لانها خاضعة للظروف المناخية شأن الزراعة الموسمية. وكان المفروض تطوير هذه الثروة بموازاة نمو السكان وارتفاع مستوى معيشتهم. وقد حفز نمو الطلب على المنتجات الحيوانية القطاع الخاص للاستثمار بنطاق محدود، خاصة في تربية الدواجن. وتوسع القطاع الحكومي في الانتاج الحيواني وتجارته. ولكن دوره ظل محدوداً بالقياس الى تنامي الحاجة.

كان على القطاع الحكومي أن يتولى مجالات الانتاج الحيواني التي يحجم القطاع الخاص عن دخولها كانتاج العلف المركز الذي يتطلب مشاريع ضخمة وتحتاج الى خبرات واسعة لدراسة واستغلال المواد الأولية المتوفرة محلياً. والعلف المركز ضروري لانتاج العلف للماشية والدواجن. وكان يفترض من القطاع الحكومي دعم الزراعة والفلاحين بانتاج السلالات المحسنة والمحصنة من المواشي والدواجن والأسماك وبيعها الى القطاع الخاص. ولا يتوقع من القطاع الخاص دخول مجال البحوث الحيوانية والنباتية، فهو من المجالات التي

يفترض بالقطاع الحكومي أن يتولاها. وكذلك الحال بالنسبة لانشاء المراعي الاصطناعية الواسعة في المناطق الديمية والمروية معاً.

لكن المشاريع الحيوانية التي أنشأتها الدولة، خاصة في السبعينات، ودونما دراسة كافية لجدواها، وأنفقت عليها أموالاً لا مبرر لضخامتها، قد عهدت بادارتها، في الغالب، الى حزبيين دون أن تتوفر فيهم النزاهة والكفاءة اللازمتين. ثم مالبثت أن باعت هذه المشاريع في الثمانينات للقطاع الخاص بثمن بخس. وكانت العائلة الحاكمة وشركاؤها ومؤيدوها أول المستفيدين من هذا التحول بعد أن احتلبوها وهي ملك للدولة.

استنتاجات ومقترحات

عند تدشين الاصلاح الزراعي لم تتوفر لدى السلطة الخبرات والموارد اللازمة لانجاحه. ويمكن القول انها لم تستثمر حتى ماكان لديها من خبرات وموارد على شحتها. وكان لاحتدام الصراع بين القوى الوطنية دور ضار في ارباك مسيرة الاصلاح، وكبح الحركة الفلاحية المستقلة عن السلطة.

أما النظام الحالي فلم يعان من شحة الموارد والخبرات اللازمة للنجاح. يكفي القول ان زج البلاد في الحرب ضد ايران وتحت تصرفه حوالي ٣٥ مليار دولار من المال الفائض عن حاجاته الآتية. فقد استنزف خلال الثمانينات حوالي ٢٢٣ مليار دولار، وخاصة على الحرب والعسكرة: فخرج العراق مديناً بحوالي ٨٠ مليار دولار، وفوق ذلك جاءت تعويضات الحرب بقرار مجلس الأمن.

ثم إن المرحلة الأولى من الاصلاح الزراعي قد راكمت المعرفة والخبرة بشأن هذه العملية. غير انه ظل يهدر الموارد الهائلة على العسكرة وأجهزة الارهاب وعلى مظاهر الابهة والبذخ المفرط. كما غلّب الولاء السياسي على النزاهة والكفاءة في تعيين أغلب المسؤولين عن القطاع الزراعي. ورغم ان القانون الذي أصدره عام ١٩٧٠ للاصلاح الزراعي كان في نواح عديدة، متقدماً على القانون الأول، فان تنفيذه قد خضع للأهواء السياسية والذاتية، ولمتطلبات وعواقب حروبه الداخلية والخارجية. وكذلك الأمر بالنسبة لكثير من المشاريع الزراعية والحيوانية والاروائية. وتكفي الاشارة هنا الى تدمير بضعة الاف من القرى الكردية وابعاد أهلها عن الانتاج الزراعي والحيواني وحجرهم في المجمعات القسرية. فهلكت

مواشيهم وبساتينهم وحل الخراب بالغابات الطبيعية. وتضرر بعض منشآت الري في الجنوب إذ سدت السواتر والاستحكامات العسكرية مجاري الماء. وحل بالنخيل دمار لا سابق له جراء الحرب مع ايران وقمع الانتفاضة الشعبية في اذار ١٩٩١. وان الحروب وتوسيع أجهزة القمع وتحويل معدات الزراعة الى خدمة النشاط الحربي قد ساعدع على تسارع الهجرة من الريف واستنزاف قواه العاملة. ومثل غيرها من قطاعات الانتاج والخدمات، تعاني الزراعة في الوقت الحاضر من عواقب الخطر الاقتصادي. وهاهو الدكتاتور يحاول انعاش الرموز العشائرية التي أوهنها الاصلاح الزراعي والتطور الثقافي، وذلك بهدف العثور على حلفاء يواجهبهم نقمة الشعب عليه.

كيف، اذن، نقيّم حصيلة الاصلاح الزراعي خلال أكثر من ثلاثة عقود منذ صدور قانونه الأول عام ١٩٥٨؟

لقد انتهت عملية الاستيلاء والتوزيع بالنسبة لأغلب الأراضي الزائدة عن سقف الملكية المقرر في القانون. وبذلك يفترض أن أكثر من نصف الأرض الزراعية قد تحرر من سيطرة الملاكين وتحول الى حيازات صغيرة للفلاحين. وبذلك تقلصت الى حد كبير رقعة الأرض الزراعية التي كانت تستثمر وفق العلاقة شبه الاقطاعية التي تنطوي على استغلال مريع للفلاحين المحاصصين وتبقيهم في حالة من العوز والسقام والجهل. وكانت تلك العلاقات المتخلفة عائقاً أساسياً أمام تصنيع البلاد وتقدمها الحضاري. وقد تغلّفت في مناطق كثيرة بتقاليد الولاء العشائري للشيخ الذي يملك الأرض وتختاره السلطة الملكية عضواً في برلمانها عن سكان منطقته وأغلبهم من ضحاياه الفلاحين.

ويفترض أن يؤدي تقليص الأرض التي بحوزة الملاك الى دفعه لاستثمارها على أساس رأسمالي يساعد على تطوير سريع لوسائل وطرق الانتاج. فتنشأ بين المالك والعامل الزراعي، الذي يستخدمه، علاقة رأسمالية تنطوي على استغلال أقل جوراً مما كان عليه استغلال الفلاحين.

أما الفلاحون الذين انتفعوا من توزيع الأراضي فقد تباينت مصائرهم، فقد تقدم الانتاج وارتفع مستوى المعيشة في الأراضي القريبة من أسواق المدن، والجيدة من حيث الخصوبة وتوفر الماء لها، فضلاً عن السلف. أما الأراضي المحرومة من الماء والبعيدة عن المدن والتي لم تتوفر السلف لاستثمارها، فقد اضطر مالكوها الجدد الى تركها أو تأجيرها والبحث عن عمل في المدن. فالأهم من سند الملكية الذي كان يحلم به، أن تتوفر له مستلزمات الانتاج التي ترفع مستوى محصوله ومعيشته.

أما الانتاج الزراعي فلم يحقق منذ الاصلاح الهدف المرجو، بالنسبة للحبوب، على الأقل. والجدول أدناه يبين ان انتاج القمح والرز والشعير والذرة لم يواكب في العقدين الماضيين نمو السكان وتدفق العمالة الأجنبية. ففي مطلع السبعينات كان المعدل السنوي لانتاج الحبوب للفرد من السكان ٢٥٩ كيلو غرام لكن هذا المعدل هبط الى ٩٥ كيلوغرام في نهاية الثمانينات. وتلافياً للعجز المتصاعد بات من الضروري زيادة الاستيراد من هذه المحاصيل الضرورية لغذاء العراقي. ففي بداية السبعينات كان من الضروري الاعتماد على الاستيراد لسد ١٦٪ من حاجة البلاد الى هذه الحبوب. ثم قفزت نسبة استيرادها الى حوالي ٧٤٪ من حاجة البلاد في أواخر الثمانينات. وبتعبير آخر تدهور الأمن الغذائي الى حد خطير خلال العقد المنصرم. فواضح ان النظام لم يقم وزناً لتأثير، هذا التدهور الخطير حين زج البلاد في الحرب ضد ايران في مستهل الثمانينات سواء لأن محرضيه على الحرب أوهموه ان الحرب لن تستغرق أكثر من بضعة أعوام. أما حين امتدت الى ثمانية أعوام فكان النظام لا يخشى من انقطاع واردات الحبوب لانه كان يدرك أن تلك الحرب كانت تخدم جهات اقليمية ودولية عديدة وهي الجهات التي سارعت الى فرض الحظر الاقتصادي على العراق عقب غزو الكويت، هذا الحظر الذي يمثل كارثة تضاف الى عذاب وخراب الحروب الخارجية والحرب الداخلية المستديمة ضد الشعب منذ ١٩٦٨. فرغم ان الغذاء والدواء غير مشمولين بالحظر إلا انه يسري على تصدير النفط الذي يدر النقد الأجنبي لتمويل جميع الاستيراد ، خاصة وان نهج النظام أدى الى تفاقم اعتماد الاقتصاد العراقي على عوائد النفط. ثم ان الحظر يشمل وسائل الانتاج، بضمنها احتياجات القطاع الزراعي.

المعدل السنوي للفترة	المساحة الف هكتار	انتاج الحبوب الف طن	حصة الفرد مئة كغم	نسبة الاكتفاء من الانتاج المحلي
٧٠ - ١٩٧٢	٢٥٥٢	٢٥٣٥	٢٥٩	٨٤٪
٨٤ - ١٩٨٦	٢٩٦٠	٢١١٠	١١٩	٣٢٪
٨٩ - ١٩٩٠	٢٢٧٥	١٧٧١	٩٥	٢٦٪

ولئن أخفق الاصلاح الزراعي في تحقيق هدفه الدائم في انهاض الانتاج الزراعي، النباتي والحيواني، فان الخطأ ليس في مبدأ الاصلاح الزراعي، بحد ذاته، بل في الظروف السياسية والثقافية التي أحاطت به. وبالمثل لا يصح، مثلاً، تخطئة تأميم حصة الاحتكارات الأجنبية، التي كانت مهيمنة على ثروتنا النفطية، لأن الزيادة الهائلة في عوائد النفط قد أهدرت على العسكرة وأجهزة الارهاب والتضليل وشن الحروب الداخلية والخارجية. فالعلة في الدكتاتورية التي لا تخضع للمساءلة عن كل تصرفاتها وإن جلبت الكوارث.

المهم، كما أسلفنا، أن تستفيد القوى الساعية الى البديل الديمقراطي من دروس المئة والثلاثين عاماً التي مضت، فتأخذها بعين الاعتبار عند رسم برنامج البناء السلمي الديمقراطي الذي يعقب الإطاحة بالدكتاتورية. ولابد من الحوار الجاد المتسامح حول المهام العامة، وكذلك حول أبرز المهام التي تخص قطاعات الاقتصاد.

وبقدر مايتعلق الأمر بالقطاع الزراعي يمكن مناقشة المهام التالية ذات الأسبقية، كما نرى:

- توسيع ودعم مؤسسات التسليف الزراعي كي تقدم مايكفي من القروض لنهوض الانتاج الزراعي.

- اعادة بناء القرى المهدمة ومساعدة أهلها على الرجوع اليها وممارسة الانتاج الزراعي وتعويضهم.

- اطلاق حرية النشاط التعاوني في الريف بعيداً عن هيمنة الدولة.

- ترميم وتشغيل منشآت الري التي تضررت بالحرب.

- توفير الأسمدة والمبيدات والمعدات الزراعية، خاصة من الانتاج الوطني وتوظيف الصناعة العسكرية لهذه الغايه.

- بذر نشاط دبلوماسي على الصعيدين الاقليمي والدولي لضمان تدفق حصة

عادلة من المياه في الفرات ودجلة.

- تشجيع صغار المزارعين على انشاء شركات تعمل على أساس وحدة مصدر الماء والبزل ونوع المحصول في المنطقة المعنية.

- تشجيع الشركات التي تأخذ بأسلوب الانتاج الواسع للمحاصيل الأساسية.لغذاء السكان (الحنطة والرز والشعير)

- استكمال شبكات الري والبزل والسدود والخزانات وتتطلب من نواظم ومحطات.

- دعم صغار المنتجين في زراعة الفواكه والخضر.

- تقوم الدولة بانشاء المشاريع الحيوانية الضخمة، مثل مشروع انتاج العلف المركز واقامة المراعي الاصطناعية.

- تمول الدولة وتقوم بالبحوث الزراعية (النباتية والحيوانية) لخدمة تطوير القطاع الزراعي.

- تطوير شبكة السايلوات والمخازن المبردة.



محنة سكان الأهوار

عملت "مجموعة حقوق الأقليات" وغيرها من المنظمات الدولية لحقوق الانسان على اثارة الاهتمام بالانتهاكات الواسعة في جميع أنحاء العراق خلال العشرين سنة الأخيره. غير أن عرب الأهوار كانوا، بادئ الأمر، أقل عرضة لهذه الانتهاكات من سكان المدن الذين يسهل الوصول اليهم. ثم طالتهم الفظائع الأولى أثناء الحرب العراقية - الايرانية. لقد وقفوا ضد ايران في الغالب طيلة الحرب، ومع ذلك تكررت غارات السمتيات لقصف الجنود الذين فروا من الجيش ولجأوا الى الأهوار، مما أدى إلى مقتل المدنيين من سكانها، وذلك حسب تقارير منظمة العفو الدولية ومنظمة مراقبة حقوق الانسان.

وخلال الغارات المتعددة لملاحقة الجنود الفارين، عمدت قوات الجيش الى معاقبة المدنيين بحرق أكواخهم ومقتنياتهم حين يمتنعون عن مساعدتهم بتقديم المعلومات عن الجنود. وفضلاً عن ذلك، هناك تقارير موثوقة عن استخدام السلاح الكيمياوي ضد المدنيين في بلدة الحمّار بذريعة ايواء الفارين.

وشأن بقية سكان الجنوب لم يسلم عرب الأهوار من عواقب اخماد انتفاضة الربيع لعام ١٩٩١ . وتعتقد منظمة العفو الدولية أن عرب الأهوار ظلوا منذ الانتفاضة هدفاً محدداً للتنكيل الحكومي. فلا عجب أن تعتمد أخبارهم على مصادر المعارضة وحدها، ذلك لأن الوصول الى الأهوار تمنعه السلطات العراقية والايرانية معاً. غير أن هناك تقارير موثوقة تشير الى حملة منظمة لارهاب عرب الأهوار ومحو هويتهم المتميزة.

وفي تموز ١٩٩١ أصرّ الأمير صدر الدين آغاخان على زيارة الأهوار لتقييم حاجة المنطقة الى الاغاثة الانسانية، وذلك حين انتدبه الأمين العام للأمم المتحدة لهذا الغرض. وبعد مفاوضات مديدة رافقه موظفو الحكومة الى الحمّار حيث نظمت السلطة تظاهرة مؤيدة لرئيس العراق فيما قامت القوات التي كانت تحاصر البلدة بالانسحاب مؤقتاً من مواقعها. ولم يتيسر لبعثة الأمم المتحدة أن تزور أية بلدة أو قرية أخرى في منطقة الأهوار.

وفي أواخر ١٩٩١ أمر رئيس الوزراء العراقي جنرالات الجيش بابادة ثلاث عشائر محددة، بضمها إلى جويبر، ولا تتوفر المعلومات عن مدى تنفيذ هذا الأمر. ولكن منذ صدوره شنت قوات الحكومة هجمات واسعة من الجو والبر على بلدات وقرى الأهوار، وهي في الظاهر موجهة ضد الجنود الفارين من الجيش وضد المساهمين في الانتفاضة. غير أن قصفها العشوائي يؤدي إلى اصابة المدنيين وتدمير مساكنهم. وتفيد الأخبار أن الهجمات تكاثفت منذ تموز ١٩٩٢ ، على غرار القصف المدفعي لقريتي السلام والعكر في أوائل ايلول. وقد تركزت الهجمات على المنطقة الواقعة جنوب غرب مدينة العمارة التي تبعد ٣٠ كيلومتراً عن الأهوار.

وفي نيسان ١٩٩٢ أقر "المجلس الوطني" في بغداد إجراءات لتشجيع الأهالي على مغادرة ديارهم والعيش في قرى كبيرة خارج الأهوار. وتتعهد الحكومة بموجب هذه الخطة بأن توفر بيتاً مزوداً بالكهرباء والماء مع منحة شهرية مقدارها ٢٥٠ ديناً لكل عائلة تقيم في القرى النموذجية الموعودة. وحين سأل صحفيون أجانب رئيس المجلس ، سعدي مهدي صالح، إن كان مشروع اعادة توطين أهل الأهوار اجبارياً أم طوعياً، كان جوابه غير مألوف إذا قال: "لا أهمية لقولنا أنه اجباري أو طوعي".ولعله كان يقصد أن رغبات سكان الأهوار لا أهمية لها عند حكومته.

لقد أعلنت الحكومة أن خطتها لا ترمي الى تيسير الخدمات العامة لأربعة آلاف من سكان الأهوار، غير ان عديداً من المراقبين يخشون أن تكون هذه بداية لخطة مشابهة نفذتها في الشمال خلال السبعينات والثمانينات لتهجير الأكراد بعد تدمير الآلاف من قراهم، تمهيداً لوضعهم في مجمعات كبيرة، وتفيد تقارير المعارضة أن الحكومة عمدت إلى ترحيل أهل القرى في الأهوار القريبة من العمارة.

وقد فرض الجيش طوقاً محكماً للسيطرة على الطرق المؤدية الى الأهوار، وتواردت أنباء عن فرض الحصار الاقتصادي عليها. فاتهمت الحكومة بمنع دخول الغذاء والدواء الى الأهوار وحرمان سكانها من تسلم حصصهم من الأغذية التي توزعها منذ فرض الحظر الدولي على العراق في آب ١٩٩٠ . وليس هناك معلومات تفصيلية عن حصار الأهوار، لكنه قد يؤثر على أهل القرى والمستوطنات (السلف) الأصغر تأثيراً أكبر مما على سكان بلدات الأهوار. ويصف المعلقون هذا الحصار بأنه عامل اضافي لهجرة أهل الأهوار والحيلولة دون وصول المؤن إلى الثوار الموجودين في الأهوار.

وتتهم المعارضة الحكومة أيضاً بتسميم مياه الأهوار (وهناك تقارير عن موت الأسماك غير أن سبب ذلك لم يتأكد علمياً) كما تتهمها بحرق البردي وابادة النباتات الأخرى

غزو الكويت. وهكذا اتخذت لجنة الأمم المتحدة لحقوق الانسان القرار رقم ١٧٤ في ٦ آذار ١٩٩١ بتعيين مقرر خاص "لأعداد دراسة كاملة لانتهاكات الحكومة العراقية لحقوق الانسان" وتقديم تقرير أولي الى الجمعية العامة للأمم المتحدة وكذلك تقرير كامل الى الاجتماع اللاحق للجنة حقوق الانسان.

وتضمن التقرير المقدم الى الاجتماع الذي عقدته اللجنة في ١٩٩٢ وصفاً لعديد من انتهاكات حقوق الانسان بما فيها التعذيب المستمر للمعتقلين، وألوف الحالات من اختفاء آثار الناس والاعتقالات الكيفية. وتناول أيضاً انتهاكات حقوق الانسان ضد أفراد الجماعات العرقية والدينية، بما فيها الاعتقالات، والسجن، والتعذيب، واعدامات الشيعة في الجنوب. وفي القرار ٧١ لسنة ١٩٩١ وجهت اللجنة ادانة شديدة للحكومة العراقية وقررت تمديد مهمة المقرر الخاص.

وفي آب ١٩٩٢ ركز المقرر الخاص (في جزء من تقريره الأولي إلى الجمعية العامة) على الوضع في الأهوار. وبيّن أن ذلك يرتدي طابعاً ملحاً نظراً للهجمات التي شنتها قوات الحكومة مؤخراً ضد المدنيين في الأهوار. فأعرب عن القلق إزاء "القصف العشوائي لمساكن المدنيين والترحيل القسري لعرب الأهوار ومحاصرتهم اقتصادياً من قبل الحكومة". ثم الحّ مجدداً على ضرورة ايفاد فريق لمراقبة حقوق الانسان في الأهوار. ثم أحيل التقرير إلى مجلس الأمن الذي استمع إلى المقرر الخاص في آب وتشرين الثاني. وفي ١٨ كانون الثاني ١٩٩٢ اتخذت الجمعية العامة القرار ١٤٥/٤٧ الذي رحب باقتراح المقرر الخاص لارسال المراقبين. وقد رفضت الحكومة العراقية ذلك زاعمة أنه خرق للسيادة الوطنية. وفي التقرير الذي قدمه المقرر الخاص إلى اجتماع لجنة الامم المتحدة في ١٩٩٣ اشار إلى أنه يتلقى باستمرار اتهامات للحكومة بانتهاك حقوق الانسان لأهل الأهوار، قائلاً: "بالأستناد إلى هذه المعلومات، فإن الحكومة العراقية متهمة بانتهاج سياسة ترمي إلى اخضاع السكان المحليين من خلال العمليات العسكرية العنيفة (وتشمل القصف العشوائي للمدنيين، والاعدامات الاعتباطية، وحملات الارهاب) مقرونة بالترحيل القسري، وتغيير البيئة المحلية وتدميرها، والحصار الاقتصادي الفعال".

ولاحظ التقرير زيادة الهجمات البرية عقب فرض الحظر الجوي على الجنوب وكذلك اشتداد القمع على أيدي قوى الأمن التي حاولت التغلغل في الأهوار. وأسند المقرر الخاص الاتهامات الموجهة للحكومة بكتاب سري للأمن يتضمن "خطة العمل في الأهوار" وفيه تعليمات مفصلة بشأن العمليات الأمنية. واختتم التقرير بالقول أن هناك "انتهاكات متواصلة لحقوق الانسان ذات طابع خطير وواسع النطاق، وان الانتهاكات الجماعية ضد

ومما يزيد المشكلة تعقيداً وجود النفط داخل وحول الأهوار في مناطق مجنون ونهر عمر والحلفاية التي يمكن باستغلالها رفع انتاج العراق من ٣٫٢ مليون الى ٥٫٦ مليون برميل يومياً. وقد أشار عدة مراقبين الى أن ذلك قد يكون هو الدافع لتجفيف الأهوار وإجلاء سكانها. وبرغم الحظر الاقتصادي، وصلت شركتا (ألف اكيتان وتوتال) الفرنسيتان للنفط الى مرحلة متقدمة من المفاوضات مع الحكومة العراقية للشروع باستثمار هذه المواقع حالما يرفع الحظر الدولي.

إن الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية ومنظمة السلام الأخضر وجهت اتهامات الى الحكومة العراقية بخرق القوانين الدولية الخاصة بحماية الطبيعة أثناء الحرب وذلك خلال حربها مع ايران وغزو الكويت. ومماله أهميته الخاصة لأهل الأهوار عدم تصديق الحكومة على البروتوكول الثاني لعام ١٩٧٧ المضاف الى معاهدة جنيف لعام ١٩٤٩ وذلك بشأن حماية ضحايا النزاعات المسلحة غير الدولية، أي الحروب الأهلية. وهذا البروتوكول يتضمن التحريم لتجويع المدنيين، وإتلاف وتخريب الأراضي الزراعية ومنشآت الري والمحاصيل والمواشي ومياه الشرب الضرورية للمدنيين.

ولم تصادق الحكومة العراقية على أغلب المعاهدات الدولية ذات العلاقة بالبيئة في ظل السلام. وفضلاً عن ذلك فان المادة الخامسة من اعلان الأمم المتحدة حول حقوق الأشخاص المنتمين الى أقليات قومية أو أثنية أو دينية أو لغوية، ذلك الاعلان الذي تبنّته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٨ كانون الثاني ١٩٩٢ ، يقضي بأن "السياسات والبرامج الحكومية يجب أن تراعي، عند التخطيط، والتنفيذ، المصالح المشروعة للأشخاص المنتمين للأقليات. ومما يناقض روح هذا الاعلان أن الحكومة العراقية لا تستشير سكان الأهوار بشأن الخطط التي تضعها للأهوار.

- ترجمة موجزة لتقرير أعدته مجموعة حقوق الأقليات Minority Rights Group ونشر في حزيران ١٩٩٣ بعنوان: "The Marsh Arabs of Iraq".

الدكتاتورية المهزومة

تنتصر على الأهوار

المعطيات التالية وردتنا من أحد مناضلي المنطقة الجنوبية عن الأهوار وساكنيها وما حل بها وبأهلها في السنوات القليلة الماضية وذلك ضمن الحملة الشرسة للدكتاتورية على معاقل المعارضين لحروبها وكامل نهجها، وفي المقدمة منهم رجال الانتفاضة الباسلة.

أهوار محافظة ذي قار:

قضاء سوق الشيوخ: ١ . العساكرة، ٢ . الجماملة، آل ابراهيم، آل رحمه، ٣ . الطار، ٤ . الكرماشيه، ٥ . بني سعيد أهل الكرمه، ٦ . الساده البطاطه (لقيط).

قضاء الجبايش: ١ . الجبايش ٢ . الفهود ٣ . الحمار ٤ . السناف ٦ . فاطمة ٧ . البغدادية.

قضاء الشطره: ١ . الغموگه ٢ . عوينه ٣ . گطينه ٤ . البو صالح، ٥ . آل العبيد.

أهم بلداتها: الجبايش، الفهود، الحمار، الاصلاح سوق الشيوخ، الكرماشيه، الطار، العكيكه، الدوآيه، الغراف.

أهم عشائرها: ١ . العساكره ٢ . الجمامله والشديد والعبيد وآل ابراهيم ٣ . بني أسد، حجام، آل جويبر ٤ . آل حسن ٥ . النواشي ٦ . السادة البطاط ٧ . بني سعيد، ٨ . البو صالح ٩ . آل ازيرج ١٠ . آل سهلان ١١ . بني زيد ١٢ . عباده ١٣ . البو حمره ١٤ . الملحان.

من ٤٧ كم وطاقته الخزنية تقدر سمياً بثلاثة مليارات متر مكعب. وبدأ العمل لشق قناة من جنوب الخزان لربطه بنهر "وفاء القائد" والغرض من كل هذا المشروع لا يختلف عن سابقيه.

وهكذا يتواصل تجفيف أهوار المحافظة لتخلف وراءها مستنقعات ضحلة تتسبب في انتشار الأوبئة. فحل الدمار الاقتصاد المنطقة المعتمد على صيد الأسماك التي ماتت والقصب والبردي الذي أحرق، والرز الذي تتعذر زراعته بدون مياه وافره. فلا عجب أن يضطر سكان الأهوار إلى الهجرة هرباً من العطش والجوع.

أهوار محافظة البصرة:

١ ـ الزجري ٢ ـ العويلي ٣ ـ الطويلة ٤ ـ أبو جاري ٥ ـ البدرية ٦ ـ الخنيزيري ٧ ـ صليين ٨ ـ الجلاع ٩ ـ المديّنة ١٠ ـ الهوير ١١ ـ الخاص ١٢ ـ كَرمة علي.

أهم بلداتها:

القرنة، المديّنة، كَرمة علي، الهوير، الشافي.

أهم عشائرها:

١ ـ بني منصور ٢ ـ عباده ٣ ـ الحرشيين ٤ ـ الغانم ٥ ـ العزّة ٦ ـ الفرطوس ٧ ـ المياح ٨ ـ بني تميم ٩ ـ آل كنعان ١٠ ـ الصاير.

حملة النظام على المحافظة:

فوق ما عانت البصره من أهوال سنوات الثمان للحرب العراقية الايرانية وحمم القصف طيلة بشهور حرب الخليج تعرضت منذ الانتفاضة الى هجمات قوات النظام كما يلي:

هجم لواء ٩٩ المدرع ولواء ٦٠ المشاة الآلي من الفاو باتجاه أبو الخصيب.

هجم لواء ١٠ ولواء ١٤ (حرس جمهوري) من المطار الدولي الى القرنه مروراً بكَرمة علي.

بعد أن أطلقت قوات الاحتلال الأميركية والفرنسية سراح قوات حمورابي (حرس جمهوري) من الأسر انطلقت بهجوم وحشي من الرميلة الشمالية ومنطقة بصيّه نحو كَرمة علي ثم القرنة واندفعت في محافظة ميسان ثم محافظة واسط لتستقر في بغداد.

هجمت فرقة حرس جمهوري مدرعة تابعة لقوات القادسية مندفعة من الرميلة الجنوبية

أهم وسائل العيش: تربية المواشي، زراعة الرز، صيد الأسماك والطيور وصناعة الحصران والبواري والزوارق.

حملة النظام على المحافظة:

منذ الانتفاضة تعرضت المحافظة الى هجمات عسكرية بارتال مدرعة ومشاة ميكانيكية من طريق السماوه ـ الناصرية، وبأرتال مدفعيه تدعمها المصفحات من طريق تل اللحم ـ سوق الشيوخ، وبأرتال دروع ومصفحات على طريق البصرة ـ الجبايش ـ الفهود ـ الناصرية، وبالمدفعية الثقيلة من ناحية الفجر على طريق بغداد ـ ذي قار تدعمها الدروع والمشاة الآلي مروراً بالقلعة والرفاعي وناحية النصر حتى استقرت في قضاء الشطرة. وتشعبت من هذا الهجوم أرتال على طريق سيد أحمد الرفاعي وصولاً الى الدوّاية ثم استقرت في مقر الفيلق الثالث في ناحية أكد.

وشاركت في تلك الهجمات المتزامنة فرقة مدرعة من قوات قتيبة وفرقة مدرعة من قوات الحمزه وفرقة آلية ولواء مدفعية مستقل من قوات الفيلق الثالث. وتلقت الفرق المهاجمة دعماً مباشراً من ألوية الحرس الجمهوري من قوات المدينة المنورة والله أكبر واليوم العظيم.

احتلت القوات المهاجمة جميع أقضية ونواحي المحافظة، وزحفت ببطء في الريف حيث واجهتها مقاومة المنتفضين والعوائق المائية التي لا يمكن للدروع والمدفعية اجتيازها.

ثم أخذت السلطة تنفذ خططها لتجفيف الأهوار وتهجير سكانها وجعل أرضها مستقراً لقوى القمع.

ـ وأول هذه الخطوات تنفيذ ما بقي" من مشروع المصب العام المار من شمالي محافظة ذي قار إلى جنوبها مخترقاً هور الكرماشية وجزءاً من الحمّار (الطار. ولگيط) وأدى ذلك إلى تجفيف الأهوار المار بها وكذلك الفهود والجبايش لاتصالها بالأهوار الأخرى عبر اسبلان أو الكواهين (طرق مائية في الأهوار).

تنفيذ مشروع مياه البصرة "عطاء القائد" بنهر كونكريت مغلق يبدأ من ناحية أكد في قضاء الشطرة محاذياً لطريق الشطرة الناصرية إلى تقاطع سيد دخيل ثم الفهود وإلى البصرة، شاقاً كثيراً من الأهوار ومانعاً تسرب المياه. وأسهم في جفاف عدد من الأهوار.

ـ تكثيف نهر الفرات من ذي قار إلى شط العرب ومنع تسرب أي مياه زائدة إلى الأهوار.

ـ شق نهر من الفرات قرب الفضيلية وسوق الشيوخ باتجاه الحماديات لينحرف إلى

خور هور الجبايش وتهجير سكان القضاء والقرى المحيطة به.

. اكمال نهر "القادسية" الذي يبدأ من نهر العطشان وبالقادسية وفرع من النجف ليلتقيا جنوب غرب الرميثة. ثم ينحدر نهر القادسية جنوب محافظة المثنى إلى جبلة الناصرية في الصحراء ومن ثم إلى منخفض الصليبيات كخزان طوله ٦٥ كم وعرضه أكثر من ٤٧ كم وطاقته الخزنية تقدررسمياً بثلاثة مليارات متر مكعب. وبدأ العمل لشق قناة من جنوب الخزان لربطه بنهر "وفاء القائد" والغرض من كل هذا المشروع لا يختلف عن سابقيه.

وهكذا يتواصل تجفيف أهوار المحافظة لتخلف وراءها مستنقعات ضحلة تتسبب في انتشار الأوبئة. فحل الدماربإقتصاد المنطقة المعتمد على صيد الأسماك التي ماتت والقصب والبردي الذي أحرق، والرز الذي تتعذر زراعته بدون مياه وافره. فلا عجب أن يضطر سكان الأهوار إلى الهجرة هرباً من العطش والجوع.

أهوار محافظة البصرة:

١ . الزجري ٢ . العويلي ٣ . الطويلة ٤ . أبو جاري ٥ . البدرية ٦ النسيري ٧ . صليتين ٨ . الجلاع ٩ . المديّنة ١٠ . الهوير ١١ . الخاص ١٢ . كَرمة علي.

أهم بلداتها:

القرنة، المديّنة، كَرْمة علي، الهوير، الشافي.

أهم عشائرها:

١ . بني منصور ٢ . عباده ٣ . الحرشيين ٤ . الغانم ٥ . العزّة ٦ . الفرطوس ٧ . المياح ٨ . بني تميم ٩ . آل كنعان ١٠ . الصاير.

حملة النظام على المحافظة:

فوق ما عانت البصره من أهوال سنوات الثمان للحرب العراقية الايرانية وحمم القصف طيلة شهور حرب الخليج تعرضت منذ الانتفاضة الى هجمات قوات النظام كما يلي:

هجم لواء ٩٩ المدرع ولواء ٦٠ المشاة الآلي من الفاو باتجاه أبو الخصيب.

هجم لواء ١٠ ولواء ١٤ (حرس جمهوري) من المطار الدولي الى القرنه مروراً بكَرمة علي.

بعد أن أطلقت قوات الاحتلال الأميركية والفرنسية سراح قوات حمورابي (حرس جمهوري) من الأسر انطلقت بهجوم وحشي من الرميلة الشمالية ومنطقة بصيّه نحو كَرمة علي ثم القرنة واندفعت في محافظة ميسان ثم محافظة واسط لتستقر في بغداد.

هجمت فرقة حرس جمهوري مدرعة تابعة لقوات القادسية مندفعة من الرميلة الجنوبية نحو البرجسية، الزبير، المديّنة ومضت لضرب الجبايش.

بعد أن استعادت قوات النظام السيطرة على المدن والبلدات حاصرت أهوار المحافظة وقامت بحماية تشات الهندسة العسكرية والتصنيع العسكري التي نصبت ١٤ مضخه ضخمة لسحب المياه الأهوار في قضاء المدينة وناحية الهوير وبين الجبايش والمدّينة. هاجر سكان الأهوار بعد جفافها وانعدام الماء الصالح للشرب، فتقدمت قوات النظام داخل المنطقة التي كانت الأهوار تغطيها.

أهوار محافظة ميسان:

١ . الصحين ٢ . العكَر ٣ . الكَبيبه ٤ . أبو شذر ٥ . الكَبور ٦ . الصيكَل ٧ . العدل ٨ . البترا ٩ . العزير ١٠ . مجنون ١١ . الكحلاء.

أهم بلداتها:

السلام، العدل، الكحلاء، المجر الكبير، العزير.

أهم عشائرها: ١ . الحرشيين ٢ . آل الكريم ٣ . السواعد ٤ . آل حيدر ٥ . آل نصر الله ٦ . البو محمد ٧ . البو خميس ٨ . آل أزيرج ٩ . آل كرم ١٠ . بني كعب ١١ . الفرطسة ١٢ . السراي ١٣ . البيضان، بني سعيد.

لا تختلف سبل العيش في أهوار المحافظة عن سابقيتها إلا بزراعة قصب السكر.

حملة النظام على المحافظة:

تعرضت ميسان الى هجمات القوات العسكرية المندفعة من البصره من كرمة علي باتجاه العزير ومن علي الشرقي شمالاً ومن طريق الناصريه العماره ابتداء من ناحية الاصلاح التابعة لمحافظة ذي قار والى ناحية السلام. وكانت القطعات العسكرية مدعومة بألوية مستقلة من الحرس الجمهوري وأفواج أمن بغداد (الخاصة) المعروفة بالوحشية، إلا أن هذه القوات مجتمعة لم تستطع اقتحام الأهوار المحيطة بالمحافظة لذلك تولت حماية أعمال الهندسة العسكرية والتصنيع العسكري ووزارة الري لاقامة ساترين متوازيين من نهاية شط

المجر الكبير مروراً بنهاية شط البنيرا وشط العدل وبين الساترين حفر نهر بعمق ٢٠ م وعرض ٩٠٠ م يمتد ١٢٢ كم ليصب في شط العرب حاملاً ما يفيض عن أنهر المجر والبيترا والعدل اضافة الى مياه الأهوار. ونصبت ١٢ مضخة ضخمة لسحب المياه.

وهكذا تتكرر الصوره المؤسية في محافظة ميسان بعد أن شاهدناها في محافظتي البصره وذي قار. فتحرز الدكتاتوريه المهزومة انتصاراتها على الأهوار وعلى البيئة فتشرد الناس بعد أن تحرمهم من ماء الشرب وتدمر سبل عيشهم، هذا طبعاً إذا سلموا من قصف المدفعية والصواريخ وهجمات المشاة وتتواصل هذه العملية تحت أنظار أميركا وحليفتيها بعد أن فرضت الحظر الجوي جنوب الخط ٣٢ .

أواخر آب ٩٣





اساطير اهل الاهوار

د. رشيد البندر

عالم الهور بديع الطبيعة، متنوع الاشياء المتبدلة بأستمرار، حسب الفصول والمواسم المناخية، ولكنه ككل ثابت في المكان ترى فيه الخلود الذي كان يفتش عنه جلجامش بين القصب والبردي، احتفظ أهل الهور بأساطير بعضها يعود الى زمن سومر السحيق، مؤكدة حضور الخيال السومري في مخيلة سكان المنطقة اليوم، معتمداً حضورها المتواصل على الرواية الشفوية بعد أن صيغت بحكايات شعبية تزين الاماسي.

لم تُسجل اساطير الاهوار بقواميس الميثولوجيا، ولم يؤلف كتاب عنها، رغم ازدحام المكان بالاساطير فكل "كاهن" وكل "اشان" تدور حوله اسطورة يتوارثها الاحفاد عن الاجداد، وبسبب التبدل العقائدي والمذهبي وتأثير ذلك على خيال الناس، تحولت بعض الاساطير عن اصولها ومواضيعها الى اعتقادات خرافية فسرت بها العديد من التحريمات والمواقف المذهبية.

اذا استثنينا العدد القليل من اساطير الاهوار فأن الغالب منها ذو علاقة بالماء. وهذا ليس بالأمر، لان الماء هو العنصر المرئي الوحيد من عناصر الطبيعة هناك التي كان يُعتقد انها اصل الكون، فالماء هو المحيط الأبدي بالأنسان ولذلك حتمت الطبيعة على الطفل ان يبدأ المشي والسباحة معاً والا فالموت ينتظره في كل لحظة، فاسطورة "عبد الشط" تتعلق بالموت غرقاً، إضافة الى الاساطير الاخرى التي تتعلق بالماء كأسطورة القارب الذهبي، واسطورة ظهور الجاموس، وخرزة تزاوج الحيّات، واسطورة الراضوع، وبسبب هذا المحيط

المائي العظيم اعتبر السومريون، سكان الاهوار الاوائل، ان هذا الماء هو اصل الكون. قبل تفصيل هذه الاساطير نجد من المناسب أن نعرّف الأسطورة لتمييزها عن الخرافة والتي هي الاخرى يزدحم بها عالم الأهوار، وكلاهما شكل من اشكال الوعي الاجتماعي وابداعهما لم يكن فردياً بقدر ما هو اجتماعي، اما الفرق بينهما فهو ان الاساطير ما يعتقد بها وقد وردت لتفسير ظاهرة اجتماعية او طبيعية، بينما الخرافة هي خيال ليس له جذور في الحقيقة ينبع اساساً من المخاوف أو الأماني التي تسيطر على الانسان في حالة ذعره أو حاجته.

وبسبب التداول الشفوي وبُعد المصدر اختلط الكثير من اساطير الاهوار بالخرافات السائدة مما ادى الى تشويهها واعتبارها ضرباً من الخرافة.

عالم الاهوار واغواره التي تشير دائماً الى المجهول بين الأحراش والممرات الموحشة يكون اكثر خصوبة للاحتفاظ بالاساطير والاضافة اليها فالفصل بين الاسطورة والخرافة المضافة اليها امر عسير جداً في مثل هذا المكان الذي يبدو لناظره انه خرافي واسطوري.

والاساطير في الاهوار كما اسلفنا كثيرة، سنذكر منها الاساطير ذات العلاقة بالمخيلة السومرية واساطير الماء.

اسطورة التكوين

وهي من بقايا الاسطورة السومرية في التكوين، تتناقلها الشفاه في بعض مناطق الأهوار وملخصها أن السماء والارض كانتا ملتصقتين او متقاربتين، وقد ابتعدت السماء عن الارض للتطهر والبعد عن النجاسات ويشخص الناس هذه النجاسات بأيدي وارجل الكلاب، فهي عندما تلعب أو تتعارك ترفع أقدامها الى الاعلى ولهذا تظل السماء بعيدة لكي لاتتدنس.

كما تعتبر السماء المكان الذي تستقر فيه الملائكة وترفع اليها الارواح بعد الموت وهي مكان الآلهة، وبشكل عام هي محل الفضيلة المطلقة بينما الارض محل الفساد.

واصل هذه الاسطورة هو نظرة فلسفية في الخلق والتكوين تمثلت في المياه الاولى (نمو) ومنها كان الاله (آن) والالهة (وكي) الهة الارض، وكانا ملتصقين، ومنهما ولد الاله (انليل) وهو اله الهواء، الذي فصل بينهما، وبتحرك الاله (انليل) ولد القمر ومن القمر كانت الشمس، ومن خلال اتحاد هذه العناصر بالارض ظهرت الحياة، اما الانسان فكان آخر التكوين.

وقد اعتبر المرحوم طه باقر، الذي يعود له الفضل في الكشف عن الكثير من اسرار

حضارة وادي الرافدين، هذه الاسطورة اساس "نظرية العناصر الأولية في اصل الاشياء، ولا سيما العناصر الاربعة التي تعزى الى فلاسفة الاغريق الاول" [١]، كذلك وردت المياه في الكتب المقدسة كمادة اولى في الوجود ظهرت منها السماء والارض ملتصقتين.

هذه الاسطورة في تداولها الضيق حالياً لا تعبر صراحة عن انها تفسير لولادة الكون، بل صارت تخدم اغراضاً اخرى لتأكيد تحريم ديني او ممنوع مذهبي، كذلك تحولت هذه الاسطورة الى المفهوم السائد الآن في جنوب العراق وهو ان السماء رفعت عن الارض بواسطة اصحاب العباءة[٢] من خمس جهات وهم الاطهار (محمد علي وفاطمة والحسن والحسين)، وان تداول الاسطورة السومرية بالمفهوم الاخير اكثر منها بالمفهوم الاول.

اسطورة (إحفيظ)

اتذكر جداً تلك النار التي نرى سنانها في وقت الغروب، ويشير لنا الكبار بأنها نار (إحفيظ) التي لم تستطع نار النفط في الشعيبة والتي يمكن رؤيتها في الجبايش بوضوح، إن تخفي هالة نار احفيظ في وسط الأهوار. واحفيظ من الفعل حفظ وهو عبارة عن روح تسكن "الإشن" [٣] في وسط الاهوار مهمتها حماية الخزائن القديمة التي يعتقد انها مدفونة في تلك المناطق، ويشاع عن احفيظ انه يمنع حركة الزوارق التي يأخذ اصحابها من المنطقة التي يحرسها، ذرة من تراب أو حجر من الاحجار التي تركتها الحضارات القديمة، وحصل أن رجلاً وضع في زورقه احجاراً من احد "الاشن"، ولكنه عجز عن تحريك زورقه حتى فطن للأمر وارجع كل شيء، ولما فكر بالعودة مع اصحابه اخذ يضع علامات تدله على الطريق، فأخذ يربط اطراف البردي، وقد تعارف الناس على هذه الطريقة لرسم طرق تحركهم في الهور، وعندما عاد مع اصحابه لم يجد أثراً لتلك العلامات. هذه الاسطورة شائعة في كافة مناطق الاهوار وبنفس المدلول، واعتقد انها فكرة قديمة لجأ اليها الملاك بهدف حماية املاكهم، أو أن تلك المناطق كانت مقدسة يقصدها الناس للعبادة وللدعاء وان ما فيها مُلك للآلهة، ولهذه المحميات حكايات عديدة في الاماكن المقدسة الاسلامية منها أو المسيحية، وهي من مقامات التحريم والحمى، والباحث اللبناني خليل احمد خليل يفسر هذا النوع من الاساطير بقوله: ان "اهم نتيجة تاريخية لتطور مقامات التحريم والتقديس... كانت ظهور الحمى، الاساس الاول لتحديد مفهوم الملكية الخاصة، المقدسة" [٤]

اساطير الماء[٥]

وهي تلك الاساطير التي تتعلق بالماء، والاهوار بيئة مائية وجودها مرتبط بوجود الماء

المتحرك باستمرار.

ومن أشهر هذه الاساطير هي اسطورة الزورق الذهبي [٦] الذي يعتقد بأنه يظهر كل ليلة جمعة، وحوله هالة تضيء المكان الذي يسمى "بأبي الذهب" يمتد الى الشرق من بلدة الكحلاء في محافظة العمارة، والتسمية نسبة الى ذلك الزورق الاسطوري. ويروى شفاهة ان احد شيوخ الدين حاول الحصول على هذا الزورق، فأخذ جماعة من الرجال بالحفر في المكان المرتفع لاعتقادهم بوجود الزورق فيه، وصاحب عملية الحفر قراءة الأدعية والآيات، ولكن الحفارين ولوا هاربين بعد أن سمعوا اصواتاً مخيفة تصدر من الحفرة، اما الشيخ فقد مات بعد ان حل المرض به منذ تلك اللحظة.

وكما هو معروف، أن الزورق يعتبر وسيلة الاتصال التي لايستغني عنها ساكنو الهور، وان هناك مناطق خاصة لصناعته، وان مناطق الهور التي تقع بين الجبايش والقرنة، والكحلاء والمجر الكبير في العمارة وسوق الشيوخ في الناصرية هي اشهر الاماكن التي تصنع فيها الزوارق على مختلف انواعها. كذلك تعرف اكثر من منطقة في الأهوار بـ "ابي الذهب" كما في العمارة والجبايش دون أن يحاول الناس التساؤل عن سبب هذه التسمية، وربما لهذه الاسطورة علاقة مباشرة بذلك.

اسطورة ظهور الجاموس [٧]

الجاموس حيوان لايجد له حياة طبيعية الا في مناطق الاهوار وذلك لحاجته الى الماء الذي يغطي جسمه صيفاً، وحاجته الى الكميات الكبيرة من القصب الاخضر كغذاء رئيسي له، لذا كيف تفهم المقولة التي تدعي أن الجاموس واهله قد استوردهم الحجاج بن يوسف الثقفي من الهند، فهذا الحيوان قديم قدم البشر هناك.

تقول هذه الاسطورة، والتي تؤكد تلك العلاقة الأبدية بين عالم الهور وهذا الحيوان: ان الجاموس جاء من النهر العظيم، من الماء وعندما ظهر أول مرة خافه الناس لضخامة جسمه ولونه الأسود وقرونه الضخمة، وان المعدان كانوا يراقبون قطعان هذا الحيوان وهي تتخذ من خلف الاكواخ مراحاً لها، وفي أحد الأيام ولدت انثى الجاموس واخذ صغيرها (الشفج) يرضع من ثديها أمام أنظار الناس فانتبهوا الى أهمية وقيمة الحليب الذي كان يسيل من الأثداء مما دفعهم لتدجين هذا الحيوان.

واكثر المتحدثين بهذه الأسطورة أفراد عشيرة البيضان من اهوار العمارة، وطبيعي انها تنتشر في أماكن تربية الجاموس، أما مناطق الاهوار التي يكثر فيها البقر ولا تجني الجاموس فهي لاتحتاج الى مثل هذه الأسطورة.

اسطورة "عبد الشط" :

ترتبط هذه الاسطورة بالقربان الذي يقدم للنهر خوفا من فيضانه، كما كان يفعل المصريون القدماء اذ كانوا يقدمون القربان السنوي لنهر النيل، ويرتبط ذلك ايضاً بأسطورة "حورية البحر".

تقول هذه الاسطورة أن هناك كائناً، ليس على هيئة معينة رغم أن تسميته تشير الى انه على هيئة رجل، يسكن في النهر الرئيسي والذي يسمى في الاهوار بالشط. (الانهار الداخلية بين البردي والقصب تسمى بالكواهين) وان ظهور هذا الكائن يؤدي الى تشاؤم الناس الذي ينتهي بوفاة شخص ما. في حالة غرق أحدهم يقال أن عبد الشط ناداه واغراه. ان الموت في هذه الاسطورة هو الرابط بينها وبين اساطير الفداء والتضحية في مناطق عديدة من العالم وان كانت بأشكال اخرى، لأن القربان يقدم بالأساس الى النهر (الشط) بواسطة هذا الكائن لذا فهو يسمى شعبياً بـ عبد الشط وهذه العبودية لم تأت من العبادة وانما من العبودية مثلما تقول عبد النبي أو عبد علي .. الخ.

ويفهم من هذه الاسطورة أن وجود هذا الكائن كعنصر جديد دخل عليها بعد أن كان الناس يقّدمون القرابين للأنهر طواعية، جاء ليفسر ظاهرة الغرق كما يجري تداوله حالياً.

اسطورة خرزة تزاوج الحيات :

وهذه الاسطورة تتعلق بالخرزة التي يعتقد الناس انها تطرح خلال عملية التزاوج بين الحيّات، ولهذه الخرزة دور كبير في العلاج والسحر. وخصوصاً الخرزة التي تظهر من تزاوج الحيّات الكبيرة الحجم. واهمية هذه الخرزة لم تكن متعلقة بالخرزة نفسها بقدر ما هي متعلقة بالحية، حيث أن تسمية هذا الحيوان له علاقة بتسمية إنانا السومرية أو عشتار البابلية وهي عيش الأرض. والحية من الحياة، وليس اعتباطاً أن هذه الحية صارت رمزاً للدواء أو الطب بشكل عام.

وقصة حملها الى أبليس في دخوله الى الجنة معروفة في القصص الدينية. وهناك في الأهوار من الحيات التي تعتبر صديقة للأنسان بسبب لونها المائل للبياض وطبيعتها الغير سامة وتسمى بالحية المسلمة.

اسطورة الراضوع:

ويعتقد أنه حيوان رهيب ومرعب يتداول الناس أخباره دون أن يراه أحد، ويأتي الى

إنثى الحيوان الحلوب ويمتص كل لبنها ثم يبدأ بمص دمائها، وقد تخيله الناس نوعاً من الأفاعي القصيرة أو نوعاً من العضايا، ونتيجة لهذا الاعتقاد تمتنع النساء المرضعات من الذهاب بزوارقهن الى أماكن بعيدة عن الهور خشية مواجهة هذا الحيوان.

اسطورة (فرحة الزهرة) (٨)

لايوجد أي اسناد تاريخي لمناسبة فرحة الزهرة، ولكن بعض الدراسات الميثيولوجية، كدراسة مضمون الاسطورة في الفكر العربي للباحث خليل أحمد خليل تشير إلى أن العاشر من رجب هو يوم النجاة، عندما انقذت سفينة نوح الكائنات الحية من الطوفان، وكما هو معروف ان هذا الطوفان كان في جنوب العراق حيث الوادي الذي تتجمع فيه مياه دجلة والفرات في فصل الصيف، وجاءت تسمية "وسفينة النجاة" من الاسم التقليدي لسفينة نوح ولا زالت متداولة في منطقة الاهوار، ويظهر ان هذا الفرح له أرتباط بتلك المناسبة ولكن التداول الشفوي سمح لفكرةاخرى فرضتها النزاعات المذهبية، ان تسيطر على هذه المناسبة، وتحرفها لصالح هذا النزاع. علماً بأن الطوفان وقصته المعروفة لم يأخذها أهل الأهوار على محمل من الغرابة بسبب تعرضهم المتكرر لهذا الطوفان الذي تضيع به كافة المعالم، حتى كنّا نلجأ إلى الزوارق (والجباشات) ليلاً ونهاراً. وكان ظهور اليابسة عند انحسار المياه يقابل من قبل السكان بالفرح والبهجة.

الهوامش:

١ ـ طه باقر، بشير فرنسيس، الخليقة واصل الوجود، مجلة سومر العدد الخامس، ١٩٤٩ .

٢ ـ يتخيل الناس أن السماء عبارة عن (عباءة) تغطي الأرض، وهذا التخيل يرتبط بحديث الكساء الذي ورد في المصادر الشيعية عن الرسول (ص)، عندما تغطى بالكساء اليماني ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين، وهبوط جبرائيل عليهم.

٣ ـ ومفردها (إشان) وتعني التل، وهو عبارة عن جزيرة ترابية صغيرة وسط مياه الأهوار. والكلمة ذات مصدر سومري.

٤ ـ خليل أحمد خليل، مضمون الاسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٢٦ .

٥ ـ الماء تلك المادة البديعة التي اعتبرت اساس الكون وأساس الحياة ومصدراً، للتطهر في الأديان، فما ان يضاف له شيئاً من الزيت المقدس حتى يكون ماءاً مقدساً يتم التعميد به في الكنائس ولا تتم طقوس الصابئة في الزواج إلا بالغطس في الماء الجاري، وهناك أساطير عالمية عديدة عبّرت عن عبادة الماء كالجهلكية التي يذكرها الشهرستاني في الملل والنحل حيث يزعمون أن الماء ملك معه ملائكة، وأنه أصل كل شيء، وكذلك يذكر ابن النديم مقالة الأوردجين في تعظيمهم للبحر، حيث يقولون: "إنه القديم قبل كل شيء ومنه كان الانسان".

٦ ـ جبار الجوابيراوي، صناعة الزوارق في ميسان، مجلة التراث الشعبي، العراقية، العددان الثامن والتاسع،

. ١٩٧٥

٧ ـ د. سكريد فيستفال هلبوش، مدينة المعدان في الحاضر والماضي، مجلة سومر العراقية، العدد ١٣ ، ١٩٥٧ ، والكاتبة باحثة المانية عاشت في الاهوار سنة كاملة وقد اشارت إلى هذه الاسطورة اشارة عابرة.

٨ ـ هناك مناسبة نحتفل بها في الأهوار ببهجة وفرح مذلك عند توديع شهر صفر، حيث نأخذ اعواد من القصب ونضرب بها البيوت قائلين: "طلع صفر يا محمد يا علي"، وربما لهذا الأمر علاقة بهذه الأسطورة.



افكار اولية حول الدولة.. والدولة الاسلامية

محمد عبد الجبار

أولاً في ضرورة الدولة:

(الدولة ظاهرة إجتماعية أصيلة في حياة الانسان)،[1] كما يقول الامام الشهيد السيد محمد باقر الصدر.

وقد نشأت الدولة إستجابة لحاجة موضوعية في حياة المجتمع البشري. وقد شرح الامام الشهيد هذه الحاجة في أحد نصوصه حيث يقول:

(ان الناس كانوا أمة واحدة في مرحلة تسودها الفطرة وتوحد بينها تصورات بدائيه للحياة، وهموم محددة وحاجات بسيطة، ثم نمت من خلال الممارسة الاجتماعية للحياة ـ المواهب والقابليات، وبرزت الامكانات المتفاوتة، واتسعت آفاق النظر وتنوعت التطلعات وتعقدت الحاجات، فنشأ الاختلاف وبدأ التناقض بين القوي والضعيف وأصبحت الحياة الاجتماعية بحاجة الى موازين تحدد الحق وتجسد العدل وتضمن إستمرار وحدة الناس في إطار سليم، وتصب كل تلك القابليات والامكانات التي نمتها التجربة في محور إيجابي يعود على الجميع بالخير والرخاء والاستقرار، بدلاً عن أن يكون مصدراً للتناقض وأساسا للصراع والاستقلال. وفي هذه المرحلة ظهرت فكرة الدولة). [2] وظهور الدولة يعبر من ناحية ثانية عن وصول المجتمع البشري الى درجة من التطور والرقي والتعقيد، أصبح معها الرجوع الى مرحلة ما قبل الدولة غير ممكن. فما أن يصل المجتمع الى هذه الدرجة، لا يعد من الممكن تصوّر مجتمع بلا دولة. فعجلة التاريخ لا تعود الى الوراء في هذا الأمر. وفي هذه الدرجة تصبح الدولة، كما قال الأمام الشهيد، (المظهر الأعلى للوحدة السياسية التي

توجد بين جماعة من الناس)[3]

ولهذا، صرحت أصول الفكر الاسلامي بضرورة الدولة. يقول الامام علي: (لا بد للناس من أمير). ويقول حفيده الامام الصادق: (ولا يصلح الناس إلا بإمام). ومصطلحا (الأمير) و(الامام) يناظران مصطلح (الدولة) في اللغة السياسية المعاصرة.

وعليه، فالدولة ضرورة إجتماعية، وعلى هذا الأساس نحكم بخطأ الرأي القائل بأن الدولة ستزول في أحد مراحل التاريخ المستقبلية المفترضة. وهوالرأي الذي عبر عنه انجلز، حيث يقول: (ومع زوال الطبقات ستزول الدولة بالضرورة، والمجتمع الذي ينظم الانتاج تنظيماً جديداً على أساس إتحاد المنتجين بحرية وعلى قدم المساواة سيرسل آلة الدولة بأكملها حيث ينبغي أن تكون آنذاك: إلى متحف العاديات بجانب المغزل البدائي والفأس البرونزية).[4]

صحيح أن (الدولة لو توجدمنذالازل)[5] كما لاحظ انجلز، لكن ذلك كان في مرحلة تاريخية انقضت، وهي مرحلة بدائية تجاوزها التطور الانساني.

ثانياً: الدولة والمجتمع

الأصل ان الدولة هي نتاج المجتمع، انها بعبارة المفكر الاسلامي الراحل سيد قطب إفراز طبيعي المجماعة.[6]

والمجتمع سابق على الدولة وليس العكس، فالمجتمع ينتج دولته. هذا هو الوضع الطبيعي. وهو الاساس الذي يقوم عليه تصور الوضع السليم للعلاقة بين المجتمع والدولة.

اننا نتحدث عن المجتمع باعتباره وجودا ذا شخصية وكينونة خاصة. وهذا هو جوهر النظرة القرآنية للمجتمع.فالقرآن كما يلاحظ بحق المفسر الراحل السيد محمد حسين الطبأطبائي للمجتمع (وجوداً وأجلاً وكتاباً وشعوراًوفهماً وعملاً وطاعة ومعصية)[7]، وحين تكون الدولة افرازاً طبيعياً للمجتمع فلا بد أن تكون تعبيرا عن إرادته وشخصيته وهويته العامة وقواه وشرائحه ومكنوناته القومية والدينية والثقافية، ولا بد أن تحقق الدولة تبعاً لهذا درجة مطلوبة من الانسجام بينها وبين المجتمع وثقافته المشتركة، وتقاليده وأعرافه وطموحاته ومشاعره.

ان هذا الانسجام بين الدولة والمجتمع هو الشرط الاساسي في تحقيق الاستقرار المجتمعي، ومن ثم التطور والتقدم. وهو الشرط في نجاح الدولة في حشد قوى وطاقات المجتمع في مشاريعها التنموية وخططها الاقتصادية والسياسية، كما انه هو الشرط في رضا المجتمع عن الدولة، وفي إستعداده للامتثال لقوانينها وقراراتها باعتبارها صاحبة السلطة العليا في المجتمع. وهذا هو، بتصورنا، مغزى وصية الامام علي الى مالك الاشتر حين ولاه

على مصر، حيث قال: (وليكن أحب الأمور اليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية، فان سخط العامة يجحف برضى الخاصة، وان سخط الخاصة يُغتفر مع رضى العامة).

وهذا هو الاساس في توازن معادلة الحقوق المتبادلة بين الدولة والمجتمع. ذلك التوازن الذي تحدث عنه الامام علي، وعن نتائجه قائلاً: (فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عزّ الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل،وجرت على أزلالها االسنن، فصلُح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع لاعداء.واذا غلبت الرعية واليها، أو اجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة، ظهرت معالم الجور، وكثر الادغال في الدين وتُركت محاج السنن).

وبمقدورنا أن نزعم ان هذا النص يؤسس لجوهر النظرة الاسلامية لعلاقة الدولة بالمجتمع، الى الدرجة التي لا يكون فيها المجتمع (ملحقاً) بالدولة، كما هو الحال في الانظمة الدكتاتورية، أو ان يكون المجتمع أقوى من الدولة الى الدرجة التي تفقد فيها الدولة قدرتها على الادارة والحكم والسيطرة.

وحين لا تكون الدولة إفرازاً طبيعيا للمجتمع، وحين تعجز عن تحقيق الانسجام بينها وبين المجتمع، وتكون هذه الدولة غريبة عن مجتمعها، أو بتعبير بعض الباحثين دولة (خارجية).. دولة جاءت من خارج مجتمعها، ولم تنبثق من داخله. وهذه مثل الدولة العراقية التي تم تصنيعها واستيرادها من الخارج.

ستكون مثل هذه الدولة كالعضو الغريب المزروع في جسم الانسان، لا يمكن أن تأتلف هذه الدولة مع المجتمع الذي تريد أن تحكمه، ولن يستطيع المجتمع هضمها وتمثيلها والتكامل معها، وسيكون أمام هذه الدولة طريقان:

أما أن تلجأ الى القمع والعنف والارهاب من أجل فرض سيطرتها وسلطتها وهيبتها وارادتها على المجتمع. وسيكون (الجيش) في هذه الحالة ذراعها الضارب. وستكون هي في الجوهر، دولة عسكرية.

أو أن تتصاعد مقاومة المجتمع لها، وتحصل المواجهات الدامية بين الدولة والمجتمع، حتى تضعف الدولة وتنحل ثم.تنهار، ليبني المجتمع دولته الخاصة المعبرة عن إرادته أو هويته.. أو يدخل هو الآخر، في اتون حرب أهلية مدمرة .

وبكلمة أخرى، ان الغربة والتنافر بين الدولة والمجتمع، هما سبب التوترات التي يشهدها المجتمع.

ثالثا: في الدولة الإسلامية

ينطلق الحديث عن الدولة الاسلامية من ثلاث زوايا هي: الزاوية الشرعية، والزاوية الاجتماعية، والزاوية الحضارية.

فمن الزاوية الشرعية ترتبط مسألة إقامة الدولة الاسلامية بقضية تطبيق الشريعة الاسلامية، فقد أنزل الله شريعته من أجل أن تطبق، وتحكم بين الناس: (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله). النساء[105]

ثم (جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها). الجاثية[18]

وتطبيق الكثير من أحكام الشريعة الاسلامية متوقف على إقامة دولة، وجهاز حاكم، يأخذ على عاتقه تنفيذ وأجواء هذه الاحكام. وعلى هذا الأساس يأتي تعريف الدولة الاسلامية، حسب الامام الشهيد السيد الصدر، بأنها: (الدولة التي تقوم على أساس الاسلام، وتستمد منه تشريعاتها، بمعنى أنها تعتمد الاسلام مصدرها التشريعي، وتعتمد المفاهيم الاسلامية منظارها الذي تنظر به الى الكون والحياة، والمجتمع). [8]

وبهذا المعنى، قال السيد الصدر، ان الدولة الاسلامية (ضرورة شرعية)[9] وهو جوهر قول الامام علي: (لا يصلح الحكم ولا الحدود ولا الجمعة الا بإمام عادل). ولكن الدولة الاسلامية ضرورة حضارية أيضاً، حسب قول الامام الشهيد، لانها الاطار الوحيد الذي يمكنه تفجير طاقات الانسان في المجتمع الاسلامي والارتفاع به الى مركزه الطبيعي على صعيد الحضارة الانسانية وانقاذه مما يعانيه من ألوان التشتت والتبعية والضياع وذلك استنادا الى: 1ـ التركيب العقائدي الذي يميز الدولة الاسلامية.

2ـ التركيب العقائدي والنفسي للفرد المسلم في واقعناالمعاصر.[10]

اما الضرورة الاجتماعية للدولة الاسلامية فنابعة من حقيقة أن الدولة نتاج المجتمع، وفي حال وجود مجتمع إسلامي، فمن الطبيعي أن ينتج هذا المجتمع دولته الاسلامية، والنسبة هنا الى المجتمع، أي الى البشر، فتكون الدولة الاسلامية، باعتبارها إفرازا طبيعيا للمجتمع الاسلامي، ظاهرة بشرية سياسية، يجري عليها ما يجري على كل البشر، من الخطأ والصواب والتجربة والمحاولة، وليست ظاهرة الهية دينية، فوق البشر، ومعصومة من الخطأ.

ثلاثة عناصر:

ان سعي المسلمين الى إقامة دولتهم الاسلامية يرتكز على ثلاثة عناصر هي: الكتاب، والرؤية، وممارسة الحكم، وهي العناصر المذكورة في قوله تعالى: (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق، لتحكم بين الناس بما أراك الله). النساء [205]

وطبيعي أن (الكتاب) أو الشريعة الاسلامية يشكل مرجعية عليا في مجتمع إسلامي تحكمه دولة إسلامية وهذا هو جوهر قوله تعالى (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق، مصدقا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنا عليه، فاحكم بما أنزل الله) المائدة[48]

والهيمنة سلطة على الشيء في حفظه ومراقبته وأنواع التصرف فيه.[11]

غير أن القرآن نص لا ينطق (انما هو خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان)، كما يقول الامام علي (انما ينطق عنه الرجال).

فلابد من عملية فهم وتغيير للقرأن، وتنزيل لمعانيه ومراميه ومقاصده، على الواقع. وهذه هي (الرؤية) التي إعتبرناها العنصر الثاني من عناصر اقامة الدولة الاسلامية.

الرؤية:

والمراد بالرؤية، إيجاد الرأي وتعريف الحكم، وهي غير تعليم الاحكام والشرائع.[12]

وقد كان الرسول (ص) يحكم المجتمع الاسلامي على اساس القرآن ورؤيته الخاصة.

وكان المسلمون آنذاك، يميزون بين ما هو وحي رباني، أو رأي للرسول. وكان الرسول يقبل منهم هذا التمييز بين مقام النبوة ومقام الحكم. ويروي ابن هشام، ضمن روايته لاحداث معركة بدر، أن الرسول (ص) أمر المسلمين في النزول في موضع ما، فقال له رجل من المسلمين (قيل انه الحباب بن المنذرين الجموح): يا رسول الله، ارأيت هذا المنزل، منزلا أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة [13].. وتكشف هذه الواقعة أن تصرفات النبي ليس حكما من نوع التشريع، بل هو في كثير من الأحيان يتصرف من حيث انه بشر من الناس يفكر ويدبر كما يفكر غيره. ولا ريب اننا لسنا ملزمين باتباعه في مثل هذه التصرفات، التي تدخل تحت السياسة الشرعية والتي يتصرف فيها النبي من حيث انه إمام ورئيس دولة، لا من حيث انه رسول يُبلغ عن الله تعالى. [14]

والرؤية عملية بشرية عقلية، وهي تستهدف تحقيق فهم وتكوين رأي، في ثلاثة مجالات هي:

1ـ مجال فهم القرآن، لما قلناه قبل قليل، من أن القرأن نص بحاجة الى فهم وتفسير واستنطاق. وهذا أمر يقوم به الرجال. والرجال يتفاوتون في الفهم والادراك، وقد يفهم أحد من القرآن ما لا يفهمه غيره.

وهذا ما حصل منذ عصر الرسول والصحابة، وما زال يحدث، وهو من أسباب الاختلاف.. لقد إعترف الخليفة عمر ابن الخطاب مثلاً انه فهم من قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا) ان رسول الله سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها[15] وهذا هوالذي حمله على أن يقول

يوم وفاة الرسول: (ان رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله توفي، وان رسـ ، الله مات، والله ما مات!!).[16]

2ـ مجال فهم الواقع، حيث لايمكن تطبيق الشريعة وإقامة الدولة دون فهم الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. والناس يتفاوتون أيضاً في فهم الواقع. وكل يتحرك وفق ما لديه من أدلة وظواهر وبراهين.

وهذا ينطبق حتى على الرسول إذ يُنقل عنه قوله: إنما أنا بشر، وانكم تختصمون الي، ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض، فاقضي بنحو ما اسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فانما أقطع له قطعة من النار). [17]

3ـ مجال فهم طريقة التطبيق السليمة لما فهم من الشريعة علي ما فهم من الواقع. وهذا الذي يسميه ابن حزم (تنزيل) الأحكام على الواقع .. وهذا ايضاً مجال للاختلاف وتباين الآراء.

وهذا التحليل يدعونا الى قبول التعددية في رؤية المسلمين لطريقة إقامة دولتهم الاسلامية، فليست هناك صيغة واحدة، أو نموذج واحد، للدولة الاسلامية باعتبارها دولة المسلمين. وقد تتعدد النماذج وتختلف العصور والاماكن والمجتمعات، بل تتعدد في المجتمع المسلم الواحد.

الحكم:

وفي هذا الاطار تعالج مسألة العنصر الثالث من عناصر اقامة الدولة الاسلامية، وهو الحكم بين الناس. وهو القضاء بينهم في مخاصماتهم ومنازعاتهم مما يرجع الى الامور القضائية ورفع الاختلاف في الحكم. [18]

والحكم عملية بشرية بحتة، وليست الهية، وقد أخطأ الخوارج حين قالوا: (إن الحكم الا لله)، الأمر الذي رد عليه الامام علي (كلمة حق يراد بها باطل، نعم انه لاحكم الا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا امرة الاّ لله. وان لابد للناس من امير).

وحتى عبارة (الحاكمية لله) التي شاعت في الكتابات الاسلامية المعاصرة، لاينبغي أن يُفهم منها اضفاء صفة آلهية، غير بشرية على مسألة الحكم في الدولة الاسلامية.

يقول العلامة جعفر السبحاني في هذا الخصوص: (ان اختصاص حق الحاكمية بالله سبحانه ليس بمعنى قيامه بادارة البلاد، وإقرار النظام وممارسة الأمرة، وفصل الخصومة الى غير ذلك مما يدور عليه أمر الحكومة، فان ذلك غير معقول ولا محتمل، بل المراد ان من يمثل مقام الأمرة في المجتمع البشري يجب أن يكون مأذوناً من جانبه سبحانه لادارة الأمور والتصرف في النفوس والاموال). [19]

والاذن الالهي معطى، إما لنبي أو معصوم، أو لمجموع الأمة باعتبارها خليفة الله في

الارض، فتقوم هي بانتخاب من يحكمها، على اساس حق الشورى المعطى لها من قبل الله: (وأمرهم شورى بينهم).

يقول الامام الشهيد (ان الشورى في عصر الغيبة شكل جائز من الحكم، فيصبح للأمة إقامة حكومة تمارس صلاحياتها في تطبيق الاحكام الشرعية ووضع وتنفيذ التعاليم المستبدة منها، وتختار لتلك الحكومة الشكل والحدود التي تكون أكثر إتفاقاً مع مصلحة الاسلام ومصلحة الأمة، وعلى هذا الاساس فان أي شكل شوري من الحكم يُعتبر صحيحاً ما دام ضمن الحدود الشرعية).[20]

وعلى هذا يتم معالجة ظاهرة (التعددية في الرؤية) بصدد الحكم والدولة داخل المجتمع الاسلامي على أساس الشورى، والاخذ (برأي الأكثرية عند الاختلاف)[21]

البيعة

ولما كانت الدولة افرازا طبيعياً للمجتمع لابد أن نفترض أن نشوءها يتم من خلال توافق أو تعاقد مجتمعي عام. وكان هذا هو أسلوب نشوء الدولة الاسلامية في المدينة بقيادة الرسول (ص). فقد قام السلطان السياسي للاسلام عبر تعاقد واضح، منصوص عليه، بين المسلمين وسكان يثرب، وقد تجلى هذا التعاقد عبر عدة حلقات من (البيعة) للرسول، والتي كانت تجدد مع كل أمر جديد ذي أهمية كبرى. ومن هنا نشأت فكرة (البيعة) تعبير عن ممارسة أفراد المجتمع حقهم الطبيعي في إقامة الدولة، ومن ثم تعيين الحاكم، بإرادة حرة، ولايمكن القبول بأي طريق آخر كالاستيلاء على السلطة بالقوة.

رابعاً: دولة الإنسان

ليست إقامة الدولة، اية دولة، بما فيها الدولة الاسلامية، خياراً ذاتياً تقرره الحركة السياسية، أو الزعيم السياسي الذي يؤمن بهذا الخيار.

انها وحسب الافكار الواردة في هذا المقال، ثمرة تطور موضوعي، سياسي واجتماعي، داخلي وخارجي.

ولسنا نحسب أن الظروف الموضوعية والذاتية المحيطة بالعراق وأوضاعه العامة، بما في ذلك المواقف الأقليمية والدولية تسمح بإقامة دولة إسلامية في المدى الزمني المنظور.

فما العمل؟ هل ينكفئ الاسلاميون عن الساحة السياسية لأن (الظروف) ما عادت تسمح لهم بتحقيق هدفهم، أو حلمهم الاستراتيجي القديم؟ أم هل يتحولون الى حركة متطرفة تسعى الى فرض متبنياتها وتحقيق أهدافها بالقوة والعنف واستخدام السلاح؟

ان الخيارين الذين يفترضهما السؤال لايحققان المصلحة العامة، فالخيار الأول يعزل شريحة هامة من مجتمع المسلمين عن المشاركة الفعالة والايجابية في حياة مجتمعهم.

والخيار الثاني يُحول المجتمع الى ساحة حرب بين أهله، فضلاً عن انه يخالف ما نفهمه من الاسلام.

ان السياسة تعني رعاية شؤون الأمة والناس، واذا تعذر تحقيق هذه الرعاية بمقتضى (النظر الشرعي) عبر إقامة الدولة الاسلامية، فلا مناص من رعايتها على مقتضى (النظر العقلي) من أجل تحقيق (المصالح الدنيوية ورفع المضار) عن المجتمع والبلاد.[22]

ان رعاية شؤون الناس، تفرض في حال تعذر إقامة الدولة الاسلامية، العمل على إقامة (دولة الانسان) بديلاً عن دولة القمع والدكتاتورية والارهاب.

ودولة الانسان، في تصورنا، دولة مؤمنة بالله والأديان والقيم السماوية والانسانية، وتسودها سيادة القانون والعدالة والمساواة، وعدم التمييز على اساس قومي أو ديني أو طائفي، وتقوم فيها حياة سياسية سليمة تعتمد الآليات الديمقراطية المعروفة، وتحافظ وترعى حقوق الانسان السياسية والمدنية.

ودولة الانسان ـ بهذا المعنى ـ يمكن أن تكون مشروعاً سياسياً وهدفاً مشتركاً لجميع القوى السياسية والشرائح الاجتماعية المؤمنة بحقوق الانسان والديمقراطية.

الهوامش

1- الامام الصدر ـ الاسلام يقود الحياة ص12
2- الامام الصدر ـ المصدر السابق ص14
3- الامام الصدر ـ ثقافة الدعوة الاسلامية ج1 ص124
4- انجلز ـ أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ص270
5- انجلز ـ المصدر السابق ص 229
6 ـ سيد قطب ـ في ظلال القرآن
7 ـ محمد حسين الطباطبائي ـ الميزان ج4 ص96
8 ـ الامام الصدر ـ ثقافة الدعوة الاسلامية ج1 ص 125 ـ 126
9- الامام الصدر ـ الاسلام يقود الحياة ص159
10 ـ الامام الصدر ـ نفس المصدر السابق والصفحة
11 ـ الطبأطبائي ـ الميزان ج 5 ص 248
12 ـ الطبأطبائي ـ الميزان ج5 ص 71
13- ابن هشام السيرة ح 2 ص 192
14 ـ د. محمد سعيد رمضان ـ فقه السيرة ص 221
15 ـ الطبري ج 1 ص 450
16 ـ المصدر السابق ص 442
17 ـ ميزان الحكمة ج 8 ص3 ـ 2 والمنارج 5 ص 395 ، عن كنز العمال.
18- الطبأطبائي ـ الميزان ح5 ، ص71

19- السبحاني، معالم التوحيد، ص 580 - 581
20 - الامام الصدر - ثقافة الدعوة الاسلامية ج1 ص 144
21 - الامام الصدر - الاسلام يقود الحياة ص 153
22 - راجع ابن خلدون - المقدمة ج1 ص 338
•كاتب اسلامي

المجتمع الدولي وحقوق الانسان في العراق

منظمة رقابة حقوق الانسان / ترجمة ثائر صالح

خلفية تاريخية:

وافق العراق وايران على انهاء حرب الأعوام الثمانية المدمرة في تموز ١٩٨٨ وفقاً لشروط قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ٥٩٨. وقبل صدور هذا القرار، أظهرت الأمم المتحدة في بياناتها الرسمية ونشاطها انحيازها للعراق مما يعكس الدعم المكشوف له من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا.

ولم تنطلق من الأمم المتحدة أية صرخة للاستنكار عند استعمال الحكومة العراقية الأسلحة الكيماوية ضد المدنيين والمقاتلين الأكراد في ١٩٨٧ و ١٩٨٨، ولم تتدخل أجهزتها حتى عندما أدى التنكيل الذي قام به صدام حسين ضد الأكراد الى ابعاد مئات الآلاف عن قراهم في الشمال عام ١٩٨٨ و«اختفاء» عشرات الآلاف منهم -ضمن عمليات الأنفال السيئة الصيت- فقد بقيت الأمم المتحدة غير منشغلة بعدوانية الحكومة العراقية، ولم يمرر أي قرار ادانة ولم توجه أية استفسارات الى بغداد، ولم يتأثر عمل هيئات التنمية التابعة للأمم المتحدة العاملة في هذا البلد. وبين عامي ١٩٨٨ - ١٩٩٠ فشلت المفوضية العليا للاجئين UNHCR في معارضة التمييز الذي قامت به الحكومة التركية ضد مايقرب من ٦٥ ألف كردي هربوا خلال الانفال الى تركيا، فقد رفضت تركيا إعطاء الأكراد صفة للاجئين وتم إرجاع بعضهم بالقوة الى العراق في بعض الحالات. كما لم تبد مفوضية اللاجئين أدنى اهتمام بموجات التهجير من العراق الى ايران لما يقرب من ٢٠٠ ألف كردي فيلي (شيعة) وأفراد من أصل ايراني خلال السبعينات والثمانينيات.

ومع ذلك انقلبت الأمم وأجهزتها ١٨٠ درجة في تعاملها مع انتهاكات حقوق الانسان في العراق خلال السنوات الثلاث الماضية -من اللامبالاة الى الادانة المباشرة وبأشد التعابير الممكنة. وتغيرت لهجة المنظمة الدولية تجاه حقوق الانسان في العراق بعد نهاية

حرب ١٩٩١ في الخليج، على ضوء تغير المواقف السياسية للقوى الكبرى. وقد انعكس ذلك في الأزمة نفسها- والتي أديرت وفقاً لتخويل نادر من مجلس الأمن للتحالف الذي تقوده الولايات المتحدة باستعمال القوة- وذلك بعد انتهاء الحرب الباردة وتراجع خطر «تصدير» الثورة الايرانية».

وفي عام ١٩٩٢ وصف محقق خاص عينته الأمم المتحدة سجل العراق في مجال حقوق الانسان بأنه الأسوأ لما يقرب من نصف قرن. وفي العام الحالي عقد مجلس الأمن اجتماعاً تشاورياً لمناقشة مقترحاً أميركياً لتشكيل لجنة خاصة للتحقيق في جرائم الحرب الانتهاكات الخطيرة لحقوق الانسان، وبشكل خاص الابادة التي اقترفها العراق.

هذا التحول يدل على المدى الذي ترتبط فيه اعتبارات حقوق الانسان وبشكل ثانوي الدرجة، بالاعتبارات السياسية والتمويلية والتنموية ضمن جهاز الأمم المتحدة ككل. أي أنه بالرغم من وجود أدلة قاطعة على الانتهاكات الخطيرة والواسعة لحقوق الانسان في العراق خلال الأعوام الأخيرة، والتي هي جزء من القمع السابق والذي كان من المفترض ادانته هوالآخر لكنه لم يدن، وفي حين تبنت الأمم المتحدة العديد من المقترحات الخاصة بحقوق الانسان منذ عام ١٩٩١، فان هذه القرارات لا تمر الا اذا كانت في توافق مع مصالح الدول الأعضاء الأكثر قوة.

فعلى سبيل المثال أملت الأهداف السياسية للولايات المتحدة على وجه الخصوص الايقاع الذي تتحرك، أو لا تتحرك به، فقد وقفت قيادة الأمم المتحدة جانباً ولم تتفوه بكلمة عندما قمعت القوات العراقية الموالية للسلطة وبمنتهى الوحشية الانتفاضة الشعبية في الشمال والجنوب في آذار ١٩٩١، وذلك حين قرر الرئيس السابق جورج بوش ومستشاريه وقف حرب الخليج. فارتفاع أو هبوط المقترحات الخاصة بالتحقيق في جرائم الحرب العراقية ومعاقبة مرتكبيها يعتمدان على مبادرات واشنطن. كما يعتمد تطبيق العقوبات القاسية التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق -منذ آب ١٩٩٠- على حسابات الحكومات الغربية السياسية، حيث ان الاهتمام بحقوق الانسان كان في مرتبة ثانوية.

ويتجلى الثمن الباهض لفشل الأمم المتحدة في مراقبة وحماية حقوق الانسان في العراق طوال هذه الفترة في الموجات الثلاث للنازحين الذين هربوا خارج العراق طلباً للأمن، وفي الاستجابة المتأخرة لتلبية حاجاتهم الانسانية. وتشكلت الموجة الأولى عام ١٩٨٨ مما يقرب من ١٠٠ ألف كردي، والثانية خلال الأشهر التي تلت غزو الكويت في آب ١٩٩٠

وتمثلت في مايزيد عن ٧٠٠ الف مواطن من الدول النامية ممن كانوا يقيمون في العراق والكويت، والثالثة وهي الأكبر -ضمت أكثر من مليون و٨٠٠ ألف من الأكراد والشيعة- خلال وبعد قمع انتفاضة آذار ١٩٩١. وقد لجأ أغلب اللاجئين العراقيين الى تركيا وايران، في حين هربت الغالبية العظمى من العمال الأجانب الى الأردن. فلثلاث مرات خلال ثلاث سنين كانت الأمم المتحدة مستعدة بدرجة سيئة أو غير مستعدة على الاطلاق لمجابهة الحكومات المجاورة للعراق التي فشلت في احترام معايير حقوق الانسان، على الخصوص في ايران وتركيا خلال موجات هجرة العراقيين في الأعوام ١٩٨٨ -١٩٩١، فقد كانت المساعدات الانسانية توزع بشكل سيء، وكانت الاساءات التي توجهها السلطات المحلية الى اللاجئين تهمل، ولم تنتقد الأمم المتحدة بيانات العفو العراقية الكاذبة. ولولا تغطية الصحافة الغربية لمشاهد الجموع الكردية اليائسة المحصورة في الأصقاع الجبلية المتجمدة فمن المحتمل أن المأساة البشرية كانت ستكون بأضعاف ماحصل فعلاً -بعد أن رفضت تركيا السماح بدخولهم أراضيها-.

وكان عدم الرضا عن أداء المنظمة الدولية أثناء وبعد حرب الخليج واسعاً لدرجة ان الأمم المتحدة استحدثت قسماً للشؤون الانسانية (DHA)وفقاً للقرار ١٨٢/٤٦ الصادر عن الجمعية العمومية في كانون الأول ١٩٩١، وذلك بهدف تنسيق تقديم المساعدات الانسانية. لكن التنسيق الأفضل بحد ذاته لم يكن كافياً لتقويم العمل السيء لأجهزة الاغاثة الطارئة. ان الاطلاع الجيد على أحوال حقوق الانسان هومسألة جوهرية، ومع ذلك تخطط الوكالات الانسانية الباقية في بغداد لسحب أغلب موظفيها بحجة الصعوبات المالية. وعلى ضوء استمرار القمع، وفشل الأمم المتحدة في فرض قرارها حول حقوق الانسان في العراق، فان احتمال انفجار أزمة تهجير داخلية لأعداد كبيرة من السكان في أية لحظة يظل كبيراً. عندها ستجد الأمم المتحدة نفسها -مرة أخرى- في حالة من انعدام المعلومات وضعف التهيئة لمعالجة حالات الطوارئ. وعلى الرغم من ان الحكومة العراقية تقع عليها المسؤولية تجاه من قد يبعدون، فان الأمم المتحدة لم تفعل كل مافي وسعها لمعالجة المشكلة. خلال عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣ وعندما تم سحب حرس الأمم المتحدة وعامليها في المفوضية العلياللاجئين من جنوب العراق لاعتبارات أمنية وبسبب من ضغط الحكومة العراقية، لم تنجح الأجهزة العاملة في بغداد -بالأساس إليونسيف UNICEFوبرنامج الغذاء الدولي WFP- حتى في الحصول على موافقة الحكومة العراقية لزيارة الأهوار، وهي المنطقة الأكثر

تضرراً في البلاد من ناحية حقوق الانسان والمشاكل الانسانية. كما تجاوزت لجنة الأمم المتحدة لتقدير الحاجات الانسانية التي زارت العراق في آذار ١٩٩٣ هذا الموضوع بسرعة لشدة سخونته.

أن التناقض في التعامل مع قرارين لمجلس الأمن يعالجان العدوان الحكومي العراقي وعلى مدى عامين -الأول ضد الدول الأخرى والثاني ضد المواطنين العراقيين- يوضح الموقع الثانوي لاعتبارات حقوق الانسان في عمل الأمم المتحدة. وكان القرار ٦٨٧ في ٥ آذار ١٩٩١ الذي دعا الى تخطيط الحدود مع الكويت ونزع أسلحة الدمار الشامل العراقية، قد نال تأييد مجلس الأمن وأعضائه الدائمين الغربيين الذين أعلنوا مراراً عن تصميمهم على تطبيقه بتجديد استعمال القوة العسكرية ان اقتضى الأمر. لكنها لم تبد سوى قليل من الحزم تجاه الخرق الفاضح والمستمر لقرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ الذي دعا الحكومة العراقية الى الكف عن قمع شعبها، وبالذات الأكراد.

انتهاكات حقوق الانسان وخرق قوانين الحروب

يحكم العراق منذ عام ١٩٦٨ وفق أسلوب يعرفه العراقيون بالترهيب والترغيب(١). ويجري الحكم بالربط بين برامج التنمية الحكومية وبين سيطرة الدولة البوليسية المنظمة تنظيماً جيداً عبر تنظيم حزب السلطة المسؤول عن فرض الولاء السياسي على المواطنين، وعبر مراسيم عبادة الشخصية المحيطة بالرئيس صدام حسين والتي يشترك فيها الموالون للحكومة، وعبر شبكات المخبرين وأجهزة الشرطة السرية. ويمكن للشرطة السرية اعتقال المواطنين دون محاكمة، وتعذيب أو قتل المعتقلين بدون مساءلة.

خلال الثمانينات أصبح العراق مفضلاً لدى الغرب، إذ رأوا فيه سداً بوجه التعصب الاسلامي الايراني وبلداً غنياً بالنفط وسوقاً للبضائع، وبالتالي أهمل الغرب سجل حقوق الانسان في العراق بشكل كبير. بيد أن الثمانينيات هي الفترة التي ازداد فيها القمع بشكل خاص ضد الشيعة ومنذ النصف الثاني للثمانينيات ضد الأكراد أيضاً. وبينما يشكل الشيعة العراقيون ٥٥- ٦٠٪ من السكان، فانهم واقعون تحت سيطرة الطغم المتعاقبة في بغداد ويتعرضون لتمييز. ففي بداية السبعينيات وبداية الثمانينيات أبعد مايزيد عن ٢٠٠ ألف شيعي عربي وكردي الى ايران بشكل فوري.

أمـا الأكـراد(٢) فـقـد ناضلوا لعـقـود ضـد الحكومـات في بغداد مـن أجل الأرض والتـمـتع بالثروة النفطية والحقوق السياسة والثقافيـة. وقد عانى الأكراد من قمع وحشي خاصـة بين عامي ١٩٨٧ -١٩٨٩ بذريعة التمرد الكردي. وشكلت برامج التـهجير القسري لمجاميع كبيـرة من السكان تهديداً للهوية القوميـة والثقافيـة الكردية وبقائهما خاصة من حملة الأنفـال(٣)، وكذلك سياسـة الأرض المحروقـة التي تركت وراءها آلافـاً من القرى الكردية المهجورة. كانت القرى تقصف أولاً، فيعمد القرويون الى الهرب حيث يقعون في شراك القوات التي تطوق القرية. وقد يقتل الرجال والفتيان أو «يخنقون»، وينقل الشيوخ والنسـاء والأطفال الى مجمعات بعد أن يقعون في قبضة الجيش والمنظمات الأمنيـة. وفي بعض مراغحل الانفـال وضعت النسـاء والأطفال مع الرجال في مقابر الاعدام الجماعيـة التي أزهقت أرواح أكثر من ٥٠ ألف كردي.»

لقد بدأت الحكومة العراقيـة حملة الأنفال رغبة منها في «تسوية» القضيـة الكردية بعد أن توقـعت وقف اطلاق النار في حربها مع ايران، وكانت الانفال استـراتيجيـة «الحل النهائي» الذي يهدف ليس الى منه وقوع المزيد من التمردات في المستقبل وحسب، بل الى انهاء طريقة حياة الأكراد التقليديّة في الجبال أيضاً. وتكرر ماحدث في الحرب مع ايران، فقد استعملت الطغمة الحاكمة الأسلحة الكيماوية وأجبرت عشرات الآلاف على الهرب الى تركيا وايران، وفتح الجنود النار على الهاربين عبر الحدود التركيـة لمنعهم من الهرب وبقي ضحايا هجمات الغاز الأخيرون بعيدين عن الحدود ومحصورين داخل العراق.

وبدأت الاسـاءات ضد المواطنين الكويتين بعد أسابيع من احتلال وضم الكويت وفي ٢ آب ١٩٩٠ واعلان الجارة الصغيـرة «المحافظة التاسعة عشرة» للعراق. وكان المشتبه في معارضتهم لضم الكويت وأولئك الذين بقوا موالين للعائلة المالكة المخلوعة يعتقلون بشكل عشوائي ويعذبون وغالباً ماكانوا يعدمون وترمى جثثهم أمام بيوتهم وتترك لأيام كتحذير للآخرين. وقـمعت الاحتجـاجات السلمية القصيرة ضد الاحتلال بوحشيـة، وأخذ العاملون الأجانب في الكويت رهائناً لتجنب الحرب نقل الاف الكويتيين الى العراق مما شكل خرقاً لاتفاقية جنيف الرابعة حول الأراضي المحتلة، ولايزال مئات(٤) منهم محتجزين في العراق الذي يتحمل مسؤولية مصيرهم. ولم تكن مصادفة أن يكون علي حسن المجيد(٥) المسؤول الأول عن أسوأ الانتهاكات التي مرت بها الكويت، أو «علي كيماوي» كما يسميه الأكراد، هو المسؤول عن تنفيذ الانفال.

في عـام ١٩٩٠ هرب مـن العـراق مـايقـدر بـ ٧٥٠ ألف شخص أغلبـهم من الدول النامية ممن كانوا يقيمون في العراق والكويت قبل الغزو. وفي العام التالى هرب مايقرب من ١,٨ مليون شيعي وكردي أي ١٠٪ من مجموع سكان العراق وأكثر من ثلث السكان الأكراد- كنتيجة مباشرة للقمع الوحشي الذي جوبهت به انتفاضة آذار التي أعقبت حرب الحلفاء ضد العراق. ولعب الخوف من تجدد استعمال الأسلحة الكيماوية ضد المدن العزلاء دوراً كبيراً في افراغ مناطق سكنية كاملة. وعند استعادة القوات العراقية للمدن المنتفضة من الجنوب الى الشمال ، ارتكبت هذه القوات انتهاكات واسعة لحقوق الانسان مثل قصف الأحياء السكنية ومهاجمة السكان المدنيين العزل بالهلكوبتر عند فرارهم والاعدامات الفورية والاعتقالات الجماعية.

لقد تحركت الحكومة العراقية بسرعة لخنق المنطقة الكردية وفرض حصار اقتصادي. غير ان منطقة الحظر الجوي شمال خط عرض ٣٦ التي فرضت من قبل القوى الغربية. عرقلت أية محاولات عراقية واسعة أخرى لمهاجمة السكان الذين انهمكوا بنشاط في اعادة اعمار منازلهم وقراهم وخلق مؤسسات سياسية للادارة الذاتية.

ومنذ عام ١٩٩١ أصبح الجنوب مسرحاً لأكثف حملة تقوم بها الطغمة الحاكمة ضد التمرد. وخلال عام ١٩٩٢ تكاثرت التقارير حول عمليات تأديبية عسكرية في الأهوار الجنوبية، موطن السكان الأصليين الذين استضافوا القوات العراقية الثائرة والجنود الفارين. وشملت الحملة قصفاً مدفعياً عشوائياً للقرى واستعمال الهلكوبتر والطائرات الثابتة الأجنحة. وثم اعتقال سكان القرى -وبضمنهم رؤساء العشائر- واعدامهم، واتلاف الممتلكات والمواد الغذائية وتدمير القرى وتسويتها بالأرض.

وتنذر بالخطر الأعمال الهندسية الضخمة التي بدئ بتنفيذها في الأهوار منذ سحق الانتفاضة، كوسيلة لتدمير مجتمع قديم يعود الى ماقبل الفتح العربي لوادي الرافدين. ويترافق التهجير الاجباري للسكان مع بناء منظومة مشاريع مائية ضخمة على طول الأجزاء الجنوبية لدجلة والفرات قبل التقائهما ليكونا شط العرب وعلى امتداد فروعهما. والهدف الظاهر لهذا هو تجفيف أكثر من ١٠ آلاف كيلومتر مربع من البحيرات والأهوار التي سكنها المعدان أو عرب الأهوار لأكثر من خمسة آلاف سنة(٦). وتشير منظمة الاغاثة المدنية العراقية (وهي منظمة انسانية مقرها في لندن زارت الأهوار في تشرين الثاني ١٩٩٢) في تقاريرها الى ان المنطقة محاصرة بالكامل من قبل القوات العراقية بحيث تمنع وصول الأغذية

والأدوية الى المدنيين وتمنع هروبهم عبر الحدود الايرانية عبر تعزيز الدوريات هناك. .كدت تقارير منظمة مراقبة الشرق الأوسط (Middle East Watch) بعد زيارة لا ناطق الايرانية المحاذية في شباط ١٩٩٣، أن عملية تجفيف الأهوار وتهجير سكانها و بلت مرحلة متقدمة. ولكسر الحصار الحكومي على منطقة الأهوارتقوم منظمات عراقية غير حكومية مثل الاغاثة المدنية العراقية ومنظمة ضحايا حرب الخليج (ومقرها طهران) بنقل المعونات غير المرخصة عبر الحدود للأفراد والجماعات الذين هم بحاجة إليها.

أهمال الأمم المتحدة

لم تمر انتهاكات الطغمة العراقية خلال العقد الماضي دون أن يلحظها أحد، فخلال أوائل الثمانينيات عبرت مؤسسات الأمم المتحدة المختصة عن قلقها مراراً لدى بغداد، بالرغم من الطبيعة المسالمة لهذا التعبير الذي ماكان ليولّد الا عدم الاكتراث من قبل بغداد. ولم تبذل جهود جادة في الجلسات السنوية للجنة حقوق الانسان أو الجمعية العمومية لقبول قرار ينتقد سجل الحكومة العراقية في مجال حقوق الانسان. وكان الانتقال الى الخطوة التالية لوضع العراق تحت المراقبة عبر تعيين مقرر خاص أو ممثل للتحقيق في أداء العراق في مجال حقوق الانسان غير ممكن إلا في شباط ١٩٩١ -بعد حرب الخليج الثانية.

أحد التفسيرات لهذا التعامل الرقيق مع العراق يتمثل في تركيبة لجنة حقوق الانسان في الأمم المتحدة، فمعظم الدول الأعضاء من العالم الثالث غير المتحمسة أصلاً لفكرة تعيين مقرر خاص، قد تشجعت برغبة الولايات المتحدة والمجموعة الأوربية في حماية صدام حسين مما عزز لدى اللجنة الميل الطبيعي للتصويت ضد هذا القرار. وكان العراق قادراً على تجنب النقد بتقديمه معلومات ناقصة أو مشوهة الى لجنة حقوق الانسان المكلفة بفحص الالتزام باتفاقيات الأمم المتحدة حول حقوق الانسان والتي صادق عليها العراق. مثلاً قال مندوب العراق في معرض مداخلته في اجتماع اللجنة في نيسان ١٩٨٦ -خلافاً لرأي أي مراقب نزيه- بأن العراق يبذل كل جهده لحماية حقوق الانسان، ومع ذلك لم تتقدم الأمم المتحدة لمناقشة هذا الكلام. وقد ميز عدم الاكتراث ورفض السماح بتحقيق مستقل للوقائع على الأرض نشاطات مجموعات حقوق الانسان العالمية.

لقد صادق العراق على أغلبية المواثيق العالمية، بضمنها «اتفاقية الحقوق المدنية والسياسية» و «اتفاقية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية» و «اتفاقية القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة» و «اتفاقية تحريم الابادة وعقوباتها» واتفاقيات جنيف الأربعة بصدد القانون الانساني العالمي. الا ان العراق لم يوقع على «الاتفاقية المتعلقة بوضع اللاجئين» أو «الاتفاقية ضد التعذيب والأعمال القاسية الأخرى والتعامل أو العذاب غير الانساني أو المهين». ومع ذلك تعتقد منظمة مراقبة حقوق الانسان ان هذه الاتفاقيات هي جزء من القانون الدولي المعتاد، لذا فهي ملزمة للعراق أيضاً.

كانت الحكومة العراقية تمعن في احتقار جهود المجتمع الدولي لمراقبة تصرفها ازاء حقوق الانسان. ومن الأدلة البارزة على ذلك انها عينت من عام ١٩٨٨ الى أوائل ١٩٩٣ برزان التكريتي في منصب الممثل الدائم في مكتب الأمم المتحدة في جنيف. وبرزان هو أخ لصدام من أمه، وهو من المعروفين بممارسة التعذيب وكان رئيساً لجهاز المخابرات. غير أن الحكومة سعت من جانب آخر اعلامياً لوأد ادانة الأمم المتحدة لها مسخرة كل امكانياتها الاقتصادية للتأثير على الدول الأعضاء في الأمم المتحدة.

وفي عام ١٩٨٨ وبتأثير حملة منظمة العفو الدولية والأحزاب الكردية وأخرين، بدأت لجنة حقوق الانسان في الأمم المتحدة باعارة اهتمام أكبر للممارسات العراقية، فقد ضغطت «مجموعة العمل حول المختفين» لزيارة العراق في ذلك العام ، الا ان طلبها رفض مثل مطاليب المنظمات غير الحكومية. وقد تميز تعامل الأمم المتحدة مع العراق بالتناقض وأحادية الجانب. ولم توافق اللجنة على ماقدمته اللجنة الفرعية حول التمييز وحماية الأقليات بصدد الخروقات المروعة.

ولتبيان عجز الأمم المتحدة عن الوقوف بوجه الخروقات العراقية -اذ كان عام ١٩٨٨ نموذجياً في هذا المجال- نشير الى ان لجنة حقوق الانسان عقدت جلسة لها في شباط وسط موجة من التقارير التي تسربت حول استعمال الأسلحة الكيماوية ضد الأكراد، لكنها لم تتخذ أي قرار بادانة العراق. وبوقوف ادارة ريغن جانباً، لم تكن لدى أعضاء اللجنة الآخرين رغبة سياسية لادانة العراق. وفي ايلول من العام نفسه طلب السكرتير العام للأمم المتحدة ديكويار من العراق وتركيا السماح بارسال فريق من الأمم المتحدة للتحقيق في الاتهامات باستعمال الأسلحة الكيماوية، غير ان المسألة طويت بعد رفض كلتا الدولتين ذلك المطلب.

مراقبة الانتهاكات

بحلول شباط ١٩٩٢ تغير المناخ بشكل درامي عندما وصف المقرر الخاص (درستول) سجل العراق بأنه الأسوأ من نوعه في العالم، وحصل تقريره على دعم عاصف من قبل اللجنة. لكن هذا الاعتراف المتأخر بواقع سجل العراق من قبل الأمم المتحدة يعكس الحقيقة المرة بعجز أجهزتها المسؤولة عن مراقبة حقوق الانسان على صعيد العالم ولعلنا لا نجد أوسع من الفرق بين خطاب وقرارات الأمم المتحدة، والواقع الفعلي مما هو في حالة العراق. فخلال العامين الماضيين حاول المقرر الخاص التعامل مع فداحة جرائم الحكومة العراقية (الى جانب مهامه الأساسية الأخرى) لكنه لم يحصل الا على مساعد واحد من الأمم المتحدة، وكان ينقصه حتى المكتب الدائم أو حتى جهاز كمبيوتر صغير. ولم يجد حتى من أعلى المستويات في الأمم المتحدة سوى دعم باهت لمقترحاته ومبادراته في محاولاته لمواجهة صعوبات القضية العراقية. وكمثال على ذلك فان طلب (درستول) ارسال فريق من الأمم المتحدة لمراقبة حقوق الانسان في ١٩٩٣ ولتوفير وسيلة لحماية الجماعات العزلاء هناك، قد قوبل برد سكرتير الأمم المتحدة بطرس غالي بعدم توفر الأموال اللازمة لذلك.

وتوضح القضية العراقية قدرة مجلس الأمن على تصعيد الاهتمام بحقوق الانسان حين تملي السياسة ذلك. ففي أواخرتشرين الثاني ١٩٩٠ عندما بدا أن الحرب بين التحالف والعراق ستقع لا محالة، اجتمع المجلس في جلسة طارئة لتقوم مؤسسة Hill and Knowlton للعلاقات العامة الاميركية بعرض بيانات وتقارير عن الانتهاكات العراقية في الكويت. وقد ذكر أحد الدبلوماسيين الغربيين الذين حضروا الجلسة بأنها كانت «مهرجاناً» نظم لصالح الحكومة الكويتية وادارة بوش لتهيئة الأرضية الدبلوماسية للحرب. وبعد انتهاء الحرب فوراً صادق مجلس الأمن على قرار ٦٨٨ والذي ارتقت فيه قضية انتهاكات حقوق الانسان لأول مرة الى مستوى التهديد الأمني الاقليمي.

ثم ان القضية العراقية هي مثال على السرعة التي ترفع فيها قضية حقوق الانسان من جدول أعمال مجلس الأمن. فعندما حاول درستول- وهو ممثل سكرتير عام الأمم المتحدة عملياً أن يطلع مجلس الأمن الى الأزمة في الأهوار في تموز ١٩٩٢ ومرة أخرى في تشرين الثاني، وعلى الرغم من دعم الدول الغربية له، لم يسمح له بالتحدث الا بصفته الشخصية فحسب. وقد استمع المجلس له بأدب، دون أن يتخذ قراراً أو يقوم بعمل ما. وقد قادت

الصين والهند الدول الأعضاء مؤكدتين آن مجلس الأمن ليس المكان الملائم للعمل وفق اعتبارات حقوق الانسان الأمر الذي لا يتماشى مع صلاحيات المجلس في «الأمن والسلام».

وهكذا يفضح تاريخ الأمم المتحدة الطويل عدم رغبتها أو قدرتها على مراقبة حقوق الانسان في العراق. فقبل احتلال العراق للكويت ولعدم وجود تأييد من قوة دولية كبرى، لم تكن أجهزة حقوق الانسان في الأمم المتحدة قادرة على اتخاذ موقف حازم بوجه طغمة دكتاتورية مثل تلك التي يقودها صدام حسين. وقد أبقت العديد من المنظمات التابعة للأمم المتحدة على مكاتبها في بغداد واستمرت في ادارة برامج التنمية في العراق، حتى ان مقر لجنتها الاقتصادية والاجتماعية في غرب آسيا كان في بغداد. ومع ذلك لا توجد اشارات الى أن اي معلومات عما يدور في العراق قد نقلت على الاطلاق الى الاختصاصيين المتفرغين في مركز حقوق الانسان التابع للأمم المتحدة في جنيف، أو الى المقررين الخاصين المعنيين بالاختفاء وبالاعدامات الفورية. وقد يعود سبب ذلك الى تجزئة الأمم المتحدة الى أقسام ذاتية الادارة، لكن السبب الأساسي يعود الى فشل موظفي الأمم المتحدة في العراق بالعمل لصالح زملائهم المتخصصين في حقوق الانسان مما يعكس التوتر القائم بين الاعتبارات الاقتصادية واعتبارات حقوق الانسان. ففي الوقت الذي كا ن العراق مفضلاً لدى الغرب الذي يمول الوكالات الدولية مثل برنامج التنمية، واليونسيف، ومنظمة الصحة العالمية، كان العاملون فيها يفتقدون الشجاعة لمعالجة قضايا حقوق الانسان بالرغم من التأثير المدمر لانتهاكات حقوق الانسان على البرامج التي يقومون بها.

لم يسمح العراق بدخول أي مسؤول دولي الى العراق لتقدير الحاجات الانسانية بشكل مستقل منذ بدء التحشيدات العكسرية ولغاية بداية الحرب في ١٦ كانون الثاني. لذلك فان التحقيق الأول للأمم المتحدة حول الأوضاع في العراق. إقتصر على بغداد في أواسط شباط ١٩٩١ خلال دروة القصف الجوي الغربي. فقد سمح لبعثة مشتركة من اليونسيف ومنظمة الصحة العالمية بجلب ٥٤ طناً من المعونات الطبية و«التحقق من الحاجات الصحية الأساسية». ولم تستطع اللجنة عمل الكثير فقد أمضت أربعة أيام من الأيام الخمسة في بغداد، ولم تحاول الذهاب الى الكويت حيث قيل ان الحاجة للغذاء كانت ماسة. بالرغم من ذلك فان تقرير البعثة قد أيد العديد من مخاوف المجتمع الدولي حول عواقب حملة القصف الجوي للحلفاء.

فقد أشارالتقرير الى ان «الحياة قد توقفت تقريباً في بغداد» وبدأ المواطنون البحث

عن الغذاء وماء الشرب ووقود الطبخ والتدفئة، وقدم التأكيدات المستقلة الأولى عن ان كل محطات توليد الطاقة الكبرى قد دمرت مثلها مثل مصانع تكرير النفط ومنشآت تخزين الوقود(٧). وقد عبرت اللجنة علناً عن مخاوف بعض الحكومات الغربية ومنظمات حقوق الانسان، والتي تمحورت حول «الحاجة للتأكد من أن المساعدات التي تقدمها توزع بعدالة وحسب الاحتياجات لكل المدنيين الواقعين تحت ادارة الحكومة العراقية -بمن فيهم الكويتيين»(٨). وقد بقي أعضاء الوفد من إليونسيف للتأكد من التزام العراق بهذا المطلب الأساسي. لكن الأمم المتحدة فشلت في الاعتراض علناً عندما لم يتفق العراق على هذا الفهم، وأضعفت بذلك سلطة المجتمع الدولي حيال بغداد.

وكانت جلسة لجنة حقوق الانسان في شباط وآذار ١٩٩١ نقطة التحول في موقف الأمم المتحدة ازاء العراق، وفي هذه الجلسة التي امتدت من بداية الحرب البرية التي سمحت بها الأمم المتحدة في قرارمجلس الأمن ٦٧٨ في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٩٠، حتى الانتفاضة الشعبية ضد حكم صدام حسين، ثم تعيين مقررين خاصين للتحقيق في الانتهاكات العراقية لحقوق الانسان. الأول هو السويسري (كالين) وكان مسؤولاً عن التحقيق في قضايا احتلال الكويت حيث أمضت القوات سبعة أشهر مليئة بالعنف، والثاني هو الهولندي درستول الذي أشغل نفسه بقضية أعتقد بكثير هي السجل الداخلي في العراق. كان بمقدور العراق في السابق الحصول على تعاطف وأصوات غالبية الأعضاء في اللجنة، لم يحصل هذه المرة أي اعتراض غير ان اتجاه الرياح السياسية قد تغير فمرت القرارات بدون اي اعتراض.

ان اختيارمقررخاص تحدده مع ذلك الاعتبارات السياسية للكتل الاقليمية التي تختار أحد ممثليها بغض النظر عن الكفاءة. في هذه ا لحالة وقع الاختيار على الأوربيين الذين اختاروا وزير خارجية هولندي أسبق ورئيس لجنة هلسنكي الهولندية هو درستول. فأثبت انه مثال ساطع على مايستطيع نظام الأمم المتحدة عمله بين الحين والآخر. فقد كان جريئاً وحازماً في مطاردة طغمة اعتادت على تخويف معارضيها.

كما برزت عزيمة درستول على تحدي نظام الأمم المتحدة ضيق الأفق، باحثاً عن طرق جديدة لتجميع المعلومات وايصال الاستنتاجات الى السكرتير العام واللجنة خلال عمله كمقرر خاص طيلة سنتين.

في تقريره الأول الى لجنة حقوق الانسان في شباط ١٩٩٢، صعق درستول الوفود والصحفيين بقوة لغته والوضوح الذي حمل فيه الحكومة العراقية المسؤولية. فقد استنتج بأن

«انتهاكات حقوق الانسان التي حصلت كبيرة وذات طبيعة واسعة لدرجة انه منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لا يمكن العثور الا على القليل فقط من الحالات المماثلة. ومن غير المحتمل انتهاء هذه الانتهاكات مادامت قوات الأمن تتمتعبصلاحية اطلاق سرح أو سجن، أو حتى قتل أي مواطن عراقي(٩)».

وقد ذهب أبعد من أي مسؤول في الأمم المتحدة أو أية حكومة أجنبية لحد الآن في الاستنتاجات عن حملة الانفال ضد الأكراد والتي قامت بها الحكومة العراقية في ١٩٨٨، بالقول:

«من الواضح ان عمليات الانفال شملت أنشطة من نوع الابادة والتي نتج عنها في الواقع ابادة جزء من السكان، وقد استمرت في التأثيرعلى حياة الناس عموماً.. ولاريب أن أفراداً محددين يتحملون العبء الأكبر من المسؤولية»(١٠).

ودعا التقرير الدول الموقعة على اتفاقية ١٩٥١ حول منع ومعاقبة الابادة الى اتخاذ الاجراء الملائم لسوق المسؤولين الى المحاكمة. ومع ذلك لم يحدث شيء لحد الآن على الرغم من ان سحب غطاء التحالف من شمالي العراق قد يؤدي الى حدوث أعمال قتل جماعية. وقد مهد تقرير شباط ١٩٩٢ الأرضية أمام تشكيل محكمة دولية للنظر في ادانة حكومة العراق بجرائم الحرب والجرائم ضد الانسانية.

وقد نجحت جزئياً محاولات درستول خلال نهاية ١٩٩٢ لمخاطبة مجلس الأمن عن الانتهاكات في أهوار الجنوب. بيد أن مجلس الأمن كان منقسماً، ولم تشأ الأغلبية ابقاء أوضاع حقوق الانسان في العراق على جدول أعمالها. وفي نفس الوقت وجد المقرر إن قدرته على اجراء تحقيق جدي قد قيدت بسبب من صلاحياته ومن تعريف رئاسة الأمم المتحدة السهل لمفهرم السيادة الوطنية. فقد رفضت حكومة صدام حسين التعاون مع درستول متهمة اياه كونه أداة للغرب بعد نشره تقرير ١٩٩٢، ولم يمنح تأشيرة دخول الى العراق، وبسبب من تقييدات الأمم المتحدة لاقصار زيارته على الأماكن التي يوافق عليها العراق فحسب، أصبح عاجزاً عن زيارة حتى المنطقة التي يسيطر عليها الأكراد في الشمال. وخلافاً للعديد من المسؤولين الأجانب والمنظمات غير الحكومية مثل مراقبة الشرق الأوسط Middle East Watch ، فقد أصبح عاجزاً عن الاستفادة من التحرر غير المتوقع لهذه المنطقة لجمع معلومات مباشرة ذات علاقة بحقوق الانسان مما يتوفرهناك.

ثم اختمرت في ذهن درستول فكرة جريئة للحصول على معلومات يومية وموثوقة عن حقوق الانسان،حازت وللعجب على دعم واسع من قبل لجنة حقوق الانسان في الأمم المتحدة والهيئة العمومية..

فخلال أربع اجتماعات للأمم المتحدة بين اجتماع لجنة حقوق الانسان في شباط ٩٢ والجلسة العمومية ١٩٩٢ -١٩٩٣ حازت مقترحات تعيين مراقبين لحقوق الانسان في العراق على أغلبية كبيرة، فقد قدم درستول هذا المقترح الاستثنائي في شباط ٩٢. وبفضل هذه القرارات تدخل الأمم المتحدة رحاباً جديدة لان تطبيقها لا يعتمد بالضرورة على موافقة بغداد.

وفي الحالات الأخرى وصل المراقبون الدوليون الى مكان عملهم بالاتفاق مع الحكومات المعنية. الا ان الحكومة العراقية أعلنت عن رفض وجود المراقبين المفروضين على أراضيها بحجةتخرق السيادة الوطنية -ممهدة الطريق أمام طرح الموضوع لاحقاً في ١٩٩٣. ولغاية هذه اللحظة فان الموقف غير واضح بالضبط، ويبدو ان معارضة الصين وغيرها من الدول أدت الى عدم رغبة داعمي المقترح طرحه للتصويت النهائي.

ان التعجيل بالمقترح يكتسب أهمية استثنائية، لأسباب منها عدم فعالية حرس الأمم المتحدة في جمع معلومات من المصادر المباشرة. فقد اعتبرمسؤولا الأمم المتحدة ان الحرس المسلح تسليحاً خفيفاً والذي باشر بعمله في صيف ١٩٩١ وفقاً لمذكرة التفاهم الموقعة مع الحكومة العراقية لحماية عمال توزيع مواد الاغاثة الطوعيين، كان حلاً وسطاً بين استخدام قوة حفظ سلام كاملة وعدم وجود أية قوة دولية على الاطلاق. وقد وصل ٥٠٠ من الحراس الدوليين بعد شهرين من نزوح مايقرب من مليوني عراقي الى تركيا وايران بهدف منع المزيد من الانتهاكات الواسعة لحقوق الانسان. وكان في تصور مسؤولي الأمم المتحدة ان هذه القوة تسعمل بمثابة نظام تحذير وانذارمبكر متحرك، لكن ليس للتدخل لوقف أعمال قوات الأمن الحكومية، فتأثيرها نابع من مجرد وجودها وقدرتها على الاتصال المستمر مع نيويورك عبر الأقمار الصناعية، فتعاد الشكاوى الى بغداد عبر ممثل العراق الدائم في الأمم المتحدة بعد وصولها الى السكرتير العام أو مساعديه. أما في الواقع فقد حكم على العملية بالفشل منذ البداية، فعدد الحراس غير كاف لتغطية البلاد أبداً، وماكان لهم الحق في استعمال أسلحتهم الشخصية الا للدفاع عن النفس.

علاوة على ذلك، وبالرغم من ان للحراس الحق نظرياً في التجول في أي مكان في البلاد فانهم كانوا يتمركزون في بغداد والمناطق الشمالية التي يسيطر عليها الأكراد بعد

سحب العدد الضئيل من الحراس الذين رابطوا في الجنوب بعد صيف ١٩٩٢. وقد انتقدت ادارة بوش علناً مذكرة التفاهم الجديدة الممتدة لستة أشهر لغاية ١٩٩٣/٣/٣١، لانها تعطي الكثير من الصلاحيات للعراقيين، وتربط الحراس -الذين قلص عددهم الى ٣٠٠- إلى بغداد والمنطقة الشمالية التي يسيطر عليها الأكراد، وليس الى المناطق التي تنتهك فيها حقوق الانسان بشدة. وقد اعتبرت الحكومة ان وجود الحراس الدوليين هو انتهاك لسيادة العراق ووضعت العقبات أمام نشاطهم وبشكل مستمر(١٢).

ولربما يقول قائل أن الوضع الأمني في بغداد والشمال قد يكون أسوأ مما هو عليه دون وجود الحراس الدوليين، لكن بالرغم من وجودهم في كردستان فقد شهدت المنطقة قصفاً متكرراً وأعمال اطلاق نار، على الأغلب من تدبير العملاء العراقيين خلال عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣، واستهدفت أكراداً وموظفي الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية وبضمنهم الحراس الدوليين أنفسهم. وتراوحت حدة الحوادث تبعاً لحالة العلاقات بين العراق والمجتمع الدولي. وقد حصلت خلال شتاء ٩٣/٩٢ سلسلة من التفجيرات بالقنابل الموقوتة ضد شاحنات نقل موادالاغاثة بعد مرورها من نقاط التفتيش الحكومية مباشرة الى المناطق التي يسيطر عليها الأكراد، مما أدى الى جرح ومقتل عشرات الأشخاص. وكانت الهجمات على قوافل الاغاثة التي يحرسها الحراس الدوليين خرقاً فاضحاً لدرجة نشر منها بطرس غالي احتجاجاً علنياً.وعدا هذه التفجيرات لا توجد إلا اشارات قليلة الى أن الحراس الدوليين عملوا كمراقبين يقدمون المعلومات عن أوضاع حقوق الانسان الى السكرتير العام أو سكرتارية الأمم المتحدة على العموم كما كان مفترضاً في الأصل، فقد كانوا متواجدين في قواعدهم عادة ويعملون تحت توجيهات صارمة حدت من امكانية الاستفادة منهم. والآن بلغ عدد هؤلاء الحراس ١٨٦ شخصاً، وقد يسحبون تماماً بحلول نهاية حزيران مالم تصل مساعدات مالية من الدول المتبرعة.

العقوبات (١٣)

فرض مجلس الأمن في ٦ آب ١٩٩٠ عقوبات اقتصادية واسعة ضد العراق بعد أربعة أيام من احتلاله الكويت، بتأييد أعضاء مجلس الأمن الخمسة عشر كلهم. وقد امتنعت إليمن وكوبا -التي تتعرض ذاتها لحصار اميركي منذ ٣٠ عاماً- عن التصويت

على قرار مجلس الأمن المرقم ٦٦١ والآخر المرقم ٦٦٥، لكن لم يكن هناك تصويت ضد القرارين.

ان العقوبات المفروضة ضمن قرار ٦٦١ والتي عززت فيما بعد بقراري ٦٦٥ و ٦٧٠، هي سابقة من حيث المدى والقسوة، وقد عبر السكرتير العام السابق ديكويار في جلسة وزارية غايتها تمديد الحظر عقدها المجلس في ٢٥ ايلول ١٩٩٠ عن قلقه من الخطوات الخطيرة التي اتخذها المجلس بالقول: «ليس للعالم تجربة في فرض توجهات تحت البند السابع (وهو البند الذي يسمح باستعمال القوة في ميثاق الأمم المتحدة) بالشكل والسعة التي تواجههما في الأزمة الحالية. والآن وقد تم تطبيقه بالفعل، فان الأمم المتحدة تتعرض إلى اختبار لم يسبق له مثيل. يجب عليها تبيان ان طريقة تطبيقه مختلفة نوعياً عن طريقة الحرب، أي انه مثلما ينبع مثل هذا العمل من تظافر جهود جماعية، فانه يتطلب انضباطاً من الجميع لبذل كل الجهود الممكنة حسب طاقة البشر من أجل تلقي المعاناة غير المبررة.. اي انه مايطلب من العراق المعاقب هو ليس الاستسلام بل تصحيح الخطأ الذي ارتكبه، وان ذلك لا يعني غلق باب الجهود الدبلوماسية للوصول الى حل سلمي يتماشى مع مبادئ الميثاق والقرارات التي اتخذها مجلس الأمن(١٤).

هذه المبادئ هي التي ميزت النقاش العالمي حول تعامل الأمم المتحدة مع العراق المذنب، انها المبادئ الباحثة عن توازن بين تصحيح الخطأ وفرض معاناة غير عادلة على شعب بريء، مع التأكيد على الخيارات السلمية وتجنب الخيارات العسكرية مع ابقاء الأخيرة كاحتياط. وقد اتفقت الدول الأعضاء جميعها تقريباً على نقطتين: يجب تجنب الحرب مهما كلف الأمر كما يجب على العراق ان لا يمر بدون عقاب لعدوانه الفاضح على دولة جارة صغيرة ومسالمة. لكن مع تزايد التقاريرالتي تتحدث عن الانتهاكات في الكويت، ازداد التأكيد على النقطة الثانية، وأصبحت حقوق الانسان الأساسية في موقع الصدارة. ومع ذلك شعرت الجمعية العمومية عن حق، بأن طرفي الأزمة يتعاملان مع اعتبارات حقوق الانسان تعاملهم مع كره القدم السياسية.

أما ماحدث خلال السنتين والنصف بعدئذ، فهواستغلال الحظر لتحقيق أهداف سياسية استعملت فيها اعتبارات حقوق الانسان كوسيلة لذلك. فبقيت العقوبات بمثابة رأس رمح التدخل العسكري الواسع بقيادة الولايات المتحدة، وثم ابقاؤها لاحقاً لفرض تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ (قرار وقف اطلاق النار الصادر في ٥ آذار ١٩٩١، والذي

يطالب العراق بنزع أسلحة الدمار الشامل تحت رقابة الأمم المتحدة) على الرغم من أن طريقة تنفذ قوات الحلفاء للحرب هي أحد أسباب ظهور الحاجات الانسانية ذاتها. واعتبر الأعضاء الغربيون الدائمون في مجلس الأمن، بشكل غير رسمي، العقوبات سلاحاً في محاولاتهم الاطاحة بصدام حسين، فهي استمرار للحرب بوسائل اخرى.

مقدمات للحرب

مع دنو الحرب برز نقاش حول قرارات تفرض الحظر وتميل الى التقليل من الحاجات الانسانية كأساس للاستثناء. وقد عكست لجنة الحظر تركيبة مجلس الأمن، مع فارق ان القرارات كانت تتخذ بالاتفاق، أي اعطاء حق النقض لكل الدول الخمس عشرة الممثلة. وكانت هذه اللجنة تبحث كيفية ترجمة الاستثناءات الانسانية من الحظر والتي أجازها قرار مجلس الأمن رقم ٦٦٦ (في ١٣ أيلول ١٩٩٠)، لتوفير المواد الغذائية للفئات الاجتماعية التي تحتاجها كالحوامل والأطفال وكبارالسن، كما استثنى القرار الأدوية من الحظر. فطرحت كوبا -بدعم من الصين إليمن- بأن «الحصول على المواد الغذائية الأساسية والعلاج الطبي الملائم هما حق انساني أساسي يجب حمايته تحت كل الظروف»(١٥) لفرض حظر وحصار شديدين.

بتقديرنا قامت الأمم المتحدة بجهود غير كافية لتوفير المعلومات المباشرة للجنة الحظر التي أرادت تطبيق قراري مجلس الأمن رقم ٦٦١ و ٦٦٦ على ضوء احتياجات السكان في العراق بدون جدوى، اذ فاز على الدوام الاتجاه الأكثر تشدداً. فقد انشغلت سكرتارية الأمم المتحدة بخدمة لجنة الحظر، في حين افتقدت محاولاتها لارسال بعثات الى العراق المصداقية في أعين العراقيين فيما يتعلق بقضية الحياد. بالاضافة لذلك لم يعترف مجلس الأمن-وبالتالي لجنة العقوبات- بامكانية تطبيق البروتوكول الأول من اتفاقيات جنيف، الذي يمنع التجويع كأحد أساليب الحرب.

وقد تمحورالنقاش حول فاعلية العقوبات والحد الذي تسبب عنده اضراراً غير مرغوب فيها للسكان المدنيين، وعلى موضوع هل هناك امكانية مستقلة لتقدير الاحتياجات في العراق والكويت. وكان الشك قائماً حول تباكي المسؤولين العراقيين بسبب آلام شعبهم، اذ اعتبره الكثيرون تكتيكاً لسحب الدول العربيّة التي اصطفت وراء الدول الغربية وللتوصل

الى انهاء الحظر. وقد رفض العراق السماح لوفد تنفيذي من الأمم المتحدة أو أي من مسؤولي الأمم المتحدة أو حتماً من اللجنة الدولية للصليب الأحمر بزيارة العراق والكويت المحتل لتقدير الاحتياجات الانسانية لغاية عشية الحرب(١٦)، مما عزز حجج الحلفاء بان العراق كان يتجنب تنفيذ مطالب الأمم المتحدة الأساسية.

وكان لمصاعب الأمم المتحدة حول الحظر أسباباً ذاتية أيضاً: فقد لجأت إليونسيف (دون التشاور مع السكرتير العام) الى غلق مكتبها في بغداد وسحب موظفيه قبل فترة طويلة من بدء الحرب، وبذلك حرم مقر الأمم المتحدة من أفضل السبل لمراقبة الأوضاع الانسانية داخل العراق. ولو تواجدت إليونسيف أو غيرها من المنظمات الكبيرة في بغداد عند نهاية عام ١٩٩٠ لكان بالامكان مواجهة حجج الدول الغربية دائمة العضوية في مجلس الأمن بأنه لا توجد هيئات محايدة يمكنها تقدير ضرورة البلاد بتقديم المساعدات الاستثنائية من الحظر وفقاً لقرار ٦٦٦، وبأنه لا توجد وسائل للرقابة على توزيع أية مساعدات يمكن أن يسمح بها رغم الحصار. وبدلاً من ذلك ازداد النقاش في لجنة العقوبات عقماً بسبب تقديم الطرفين معلومات غير ملائمة.

النقاش بعد الحرب

تغير منطق أعضاء مجلس الأمن الدائمين لتبرير استمرار الحصار ضد العراق مرتين خلال السنتين والنصف الأخيرة. عند بدء الحرب قيل ان العقوبات هي جزء من الثمن الذي يجب على العراق دفعه جراء مروقه عن الأمم المتحدة. وبانتهاء الحرب، ابقي على العقوبات كضمانة للالتزام العراقي بشروط الهزيمة(١٨). وقد تمثلت هذه الشروط في تدمير القدرة العسكرية النووية والكيماوية والبيولوجية والقبول التام بالحدود مع الكويت وفق تخطيط الأمم المتحدة.

أما الآن فتستمر العقوبات بحجة عدم التزام بغداد الكامل بتنفيذ قرار ٦٨٧ مما يعني منع كل الصادرات العراقية وكل الواردات عدا المواد الغذائية والطبية وتلك التي توافق عليها لجنة الحظر. وقد عبر مجلس الأمن عن قلقه مراراً بسبب فشل العراق في تزويده بقائمة أسماء مصدري التكنولوجيا النووية، وكذلك تم طرح خروقات العراق لقرار ٦٨٨ وشروط ضمان حقوق الانسان على المسؤولين العراقيين. وفي نفس الوقت تخلخل

موقف الأمم المتحدة بسب التصريحات المتعددة التي أطلقها الرئيس الاميركي السابق جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني جون ميجر خلال عامي ١٩٩١ و ١٩٩٢ بأنه مهما فعل العراق للالتزام بشروط الأمم المتحدة، فالعقوبات ستستمر طالما بقي صدام حسين في السلطة.(١٩)

بانتهاء الحرب في ٢٧ شباط ١٩٩١ كانت المعطيات الموثوقة حول مدى الدمار والمعاناة في الجانب المدني شحيحة جداً. وكان هناك ضغط داخل الأمم المتحدة. بين الدول الأعضاء والمسؤولين الكبار- لرفع العقوبات فوراً والبدء بارسال المساعدات الانسانية الى العراق الذي دمرته الحرب. في ٢ آذار أشار سفير النمسا، الذي كان رئيس مجلس الأمن ولجنة الحظر لذلك الشهر، الى انه «يجب اتخاذ اجراءات سريعة لضمان حصول السكان في العراق والكويت على المواد الطبية والغذائية حسب قرار ٦٦٦. يجب أن تتخذ خطوات سريعة من قبل المجتمع الدولي لتقديم مساعدات انسانية اضافية»(٢٠).

وقد عبر الممثل الدائم لليمن عبد الله الاشطل عن شعور الكثير من أعضاء الأمم المتحدة بعد الحرب بقوله:

«عندما أقر المجلس قرار ٦٦١ وفرض حصاراً شديداً على العراق ومن ثم على الكويت المحتل، كان ذلك للاعتقاد بأن العقوبات ستؤدي الى انسحاب العراق وتطبيق قرار ٦٦٠. وقد وقعت حرب ودمرت المنشآت العراقية تدميراً شديداً، خاصة المدنية مثل مرافق انتاج الكهرباء والماء والبنية التحتية المتعلقة بحياة المدنيين. وقتل عشرات الآلاف دون ذكر الخسائر الأخرى. بعد كل هذا يتعرض العراق بمدنييه وعسكرييه الى معاناة هائلة».(٢١)

على أية حال فقد اعتمد المعسكر المتشدد بقيادة الولايات المتحدة على حلفائه من العالم الثالث مثل زائير. فعلى الرغم من كل الأدلة التي تثبت العكس، عبر ممثل زائير في ٣ آذار عن رضاه للطريقة التي ضمنت فيها لجنة الحظر حصول العراقيين على «المواد الغذائية والطبية الملائمة وبصورة منتظمة».(٢٢)

خلال النصف الأول من عام ١٩٩١ أرسلت الأمم المتحدة عددا من البعثات لتقدير الاحتياجات لمواجهة المأساة الانسانية التي يواجهها الشعب العراقي، التي نبعت جزئياً بسبب خرق قوات الحلفاء لقوانين الحرب أثناء الحملة الجوية(٢٣). من بين هذه البعثات بعثة مشتركة لليونسيف ومنظمة الصحة العالمية في ١٦-٢١ شباط، وبعثة مشتركة بقيادة اهتساري نائب السكرتير العام في ١٠-١٧ آذار، وبعثة الأمير صدر الدين اغاخان في

تموز. ومن بين البعثات الثلاث، كان تقرير بعثة اهتساري الأكثر تحذيراً، ومثل النغمة التي تميزت بها حسابات الأمم المتحدة للاحتياجات. ويبدأ التقرير بالفقرة التالية:

«يجب القول على الفور بأن ماقرأناه ورأيناه لم يهيئنا للشكل الخاص من الدمار الذي حل الآن بهذا البلد. وقد سببت الأزمة الحالية نتائج أشبه بالقيامة على البنية الاقتصادية التحتية التي كانت لغاية كانون الثاني ١٩٩١ تميز مجتمعاً عالي التمدن والمكننة نسبياً. وقد دمرت الآن أغلب وسائل ادامة الحياة العصرية. لقد أعيد العراق ولفترة قادمة الى العصر ماقبل الصناعي علماً بانه كثيف الاعتماد على الطاقة والتكنولوجيا اعتماد المجتمع الصناعي.»(٢٤)

وان استعرضنا الأحداث، يبدو واضحاً ان فريق اهتساري قد بالغ في تقدير مدى الدمار والوقت اللازم لاعادة الاعمار في العراق. ومع ذلك تذكر استنتاجات الفريق للأمم المتحدة بنتائج العمل العسكري الذي سمحت به، وتدفعها للقيام بجهود متواصلة لايجاد السبل الكفيلة بدعم السكان في العراق مع الابقاء على ضغط العقوبات.

في ٧ آب ١٩٩١ اتفق الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن على خطة صارمة يسمح بموجبها للعراق تصدير ماقيمته ١,٦ مليار دولار من النفط الخام، وتودع العائدات في حساب تحت اشراف الأمم المتحدة لتسديد أثمان الغذاء والأدوية ودفع الأضرار التي سببتها الحرب في الكويت. وقد أدان العراق الخطة بغضب ورفض تنفيذ القرار الذي نص عليها. وبدا للحكومات الغربية انها بتحكمها بودائع العراق المجمدة لديها منذ آب ١٩٩٠ ستتمكن من فرض شروط على حكومة صدام حسين تجد معها نفسها غير قادرة على ابتلاعها. ثم التقى المسؤولون العراقيون مع مسؤولي الأمم المتحدة خلال الأشهر اللاحقة للتباحث بدون نتائج حول مقترح «غذاء مقابل النفط».

خلال عام ١٩٩٢ شعرت الأمم المتحدة بضرورة تغيير موقفها من تقديم المعونات، بسبب النقص الحاد في المواد الذي عاناه الأكراد في محميتهم الشمالية. وقد قدمت حكومات الولايات المتحدة والسعودية والكويت ماقيمته ١٥ مليار دولار لبرنامج المساعدات في الشمال. وكان لزاماً تخفيف تأثير المجاعة والموت برداً في المنطقة الشمالية، ومع ذلك فان اي برنامج اغاثة لكردستان كان في الواقع معادلة لضغط الحصار الداخلي شديد الوطأة الذي فرضته بغداد على المنطقة.

وقد طلب المسؤولون الأكراد وممثلو المنظمات غير الحكومية من الأمم المتحدة مراراً

السماح برفع العقوبات جزئياً لتحرير المنطقة الشمالية مما يسميه الأكراد «الحصار المزدوج» على يد الأمم المتحدة للانفال وحرب الخليج والانتفاضة بدون استيراد الأجهزة والمعدات الزراعية التي تحظر عقوبات الأمم المتحدة استيرادها.

وقد أشارت السلطات الكردية الى انه من غير العدل معاقبة الأكراد بسبب خطايا بغداد مادامت قد سحبت أجهزتها وخدماتها من المنطقة. ويستمع موظفو قسم الشؤون الانسانية وغيرهم من المسؤولين في الأمم المتحدة بتعاطف لما يطرحه الأكراد، بيد انهم يلقون اللوم على الدول الأعضاء والتي تتذرع بان أي تمييز في التعامل مع أجزاء العراق سيملي الاعتراف بحالة انفصال المحمية الكردية.

ولا يزال تجديد العقوبات من قبل مجلس الأمن يجري كل ٦٠ يوماً بعد دراسة مدى تطبيق قرار ٦٨٧. لقد أشارت الحكومة العراقية مراراً بان نسب وفيات الأطفال وسوء التغذية والأمراض المعدية تتضاعف، غير انه هناك أدلة قوية على ان المشكلة الانسانية ناجمة أيضاً -ولدرجة كبيرة- بسبب استمرار الطغمة الدكتاتورية في الحكم. أما العوامل الأخرى فهي مماطلة الطغمة في تنفيذ قرارمجلس الأمن ٦٨٧ والتمييز في توزيع المواد الغذائية والحصارين الاقتصاديين الداخليين والفوضى الاقتصادية العامة الناجمة عن حرب ١٩٩١ ونتائجها. وفي الوقت الذي يجد فيه العراقيون الحصص التي توزعها الحكومة لا تكاد تكفي لنصف المدة التي يجب أن تغطيها، تمتلئ المتاجر البغدادية بالبضائع الفاخرة مثل الوسكي وأنواع الطعام الفاخر بأسعارخيالية. (٢٥)

تأثيرات مناطق الحظر الجوي

لم يكن حظر الطيران العراقي شمال خط عرض ٣٦ وجنوب خط عرض ٣٢ خطوة بادرت بها الأمم المتحدة بل ادارة بوش في واشنطن، وقد التحقت فيما بعد طائرات بريطانية وفرنسية لفرض الحظر وفي كلتا الحالتين، جرى استغلال اعتبارات حقوق الانسان (حماية الأكراد العائدين في الشمال ومنع الهجمات الجوية ضد سكان الأهوار) لتبرير المسؤولين الغربيين أعمالهم. (٢٦) فقد ادعى الحلفاء ان الأساس القانوني لمنطقة الحظر الشمالية هو قرار ٦٨٨ وخاصة دعوته لوقف بغداد اضطهادها للأفراد. ولا يوجد تفويض مماثل بالنسبة للجنوب كما لا يحتوي القرار ٦٨٨ بنداً يفرض شيئاً مماثلاً.

بالرغم من ان منطقة الحظر الجوي الشمالية لا تغطي كامل المنطقة التي تتطلع شخصيات المعارضة الكردية والعراقية الأخرى ان تمتد إليها، فان ٣,٥ مليون شخص يعيشون تحت الحكم الكردي يعتبرون الطلعات ا لجوية الغربية تذكيراً يومياً مبهماً بوجود الحماية الغربية. وقد ارتاح الأكراد خصوصاً لعرض القوة جواً ابان انتخابات ايار ١٩٩٢ المحلية، التي هددت بغداد بزعزعتها. أما في الجنوب فكانت استفادة المدنيين العراقيين من الحظر غير واضحة. وذكر المسؤولون الاميركيون(٢٨) ان الحظر على الطيران العراقي منع الحكومة من القيام بأية تحركات عسكرية واسعة ضد الثوار والمدنيين الذين يعيشون في وحول الأهوار. وفي نفس الوقت لا ينكر هؤلاء المسؤولون استمرار الانتهاكات الخطيرة لحقوق الانسان وقوانين الحرب: الاعتقالات الفورية والاعدامات الاعتباطية القصف العشوائي ومنع العلاج الطبي عن المدنيين والمقاتلين وفرض حصار محكم على المنطقة.

وحاولت الأمم المتحدة ابعاد نفسها عن قضية الحظر الجوي، وتعمل على الأرض كما لو انه لا يوجد تقييد دولي خاص جنوب خط عرض ٣٢ درجة. وقد أشارمسؤولون كبار في الأمم المتحدة الى أن الحلفاء تصرفوا تصرفاً غير مجاز من الأمم المتحدة، مع ذلك ظلت هذه الملاحظات تطلق بصوت خافت.

القانون الانساني الدولي و «جرائم الحرب»

لقد تبنت الأمم المتحدة واجباً واضحاً في مراقبة احترام حقوق الانسان في أوقات الأزمات المسلحة(٢٩). فعلى سبيل المثال أكد قرارمجلس الأمن الصادر في ١٤ حزيران ١٩٦٧ أثناء الحرب العربية الاسرائيلية مايلي:

يجب احترام حقوق الانسان الأساسية حتى أثناء تقلبات الحرب.. ويدعو مجلس الأمن الحكومة المعنية (اسرائيل) الى ضمان أمن وصحة سكان المناطق التي وقعت فيها العمليات العسكرية وتسهيل عودة النازحين منذ بداية الأعمال القتالية إليها. ويوصي مجلس الأمن الحكومات المعنية بالاحترام الفائق للمبادئ الانسانية التي تتحكم في التعامل مع أسرى الحرب وحماية المدنيين في وقت الحروب..(٣٠).

الممارسات العراقية في الكويت:

تشير العديد من قرارات مجلس الأمن التي اتخذت في الأسابيع التي تلت احتلال العراق للكويت الى خروقات للقانون الانساني العالمي. فقد تعامل قرار ٦٦٤ في ١٨ آب ١٩٩٠ مع ضمان أمن الدبلوماسيين الأجانب والأجانب من دولة ثالثة ممن يقيمون في العراق والكويت. ثم عاد القرار ٦٧٤ في ٢٩ تشرين الأول ١٩٩٠ الى نفس الموضوع وبلهجة أكثر شدة. وقد أقر القرار ٦٦٤ بالاجماع في حين امتنعت كوبا واليمن عن التصويت على قرار ٦٧٤ ففاز بـ ١٣ صوتاً مقابل لا شيء.

وحسب صلاحيات مجلس الأمن ضمن الفقرة ٧ من الميثاق طالب المجلس في الفقرة الأولى من القرار ٦٧٤:

«أن تتوقف السلطات العراقية والسلطات المحتلة عن أخذ مواطني دولة ثالثة كرهائن، وعن اساءة معاملة المواطنين الكويتيين ومواطني الدول الأخرى وقلعهم أو القيام بأية أعمال أخرى مثل تلك التي أبلغ عنها المجلس ووصفت اعلاه، والتي تخرق قرارات هذا المجلس وميثاق الأمم المتحدة واتفاقية جنيف الرابعة ومعاهدات فيينا الخاصة بالعلاقات الدبلوماسية والقنصلية والقانون الدولي..»

ودعا مجلس الأمن الدول الأعضاء في الأمم المتحدة الى «دراسة المعلومات التي في حوزتهم أو التي تقدم إليهم حول الخروقات الخطيرة التي يقوم بها العراق وفقاً للفقرة اعلاه وايصال هذه المعلومات الى مجلس الأمن» ولحد علم منظمة مراقبة حقوق الانسان فان هذا المطلب بجمع المعلومات حول جرائم الحرب لم ينفذ الا من قبل الولايات المتحدة.

لقد اتهم جورج بوش صدام حسين بأنه «هتلر جديد» واستغل انتهاكات حقوق الانسان في الكويت المحتلة كذريعة للضغط باتجاه الخيار العسكري، فكان التهديد بالمحاكمة على جرائم الحرب وكأنه عصا ملائمة لضرب الرئيس العراقي، فقد جمع فريق من الحقوقيين في وزارة الدفاع الاميركية المعلومات خلال وبعد حرب الخليج. بيد ان ادارة بوش، وبطلب من السعودية على مايبدو، أوقفت نشر هذه المعلومات وامتنعت عن الطلب بمقاضاة المسؤولين العراقيين. فقد توصل النقاش الداخلي الى ان مثل هذا العمل سيعرقل من تحقيق هدف السياسة الاميركي في طبخ انقلاب القصر ضد صدام حسين، حيث يستبدل بأحد مساعديه أوكبار ضباطه.

أما ادارة كلينتون فقد عكست هذه السياسة لقناعتها بأن الإطاحة بالرئيس العراقي

غير محتملة في القريب العاجل، فقد أعلنت في آذار ١٩٩٣ عن جزء من الأدلة التي بحوزتها عن سوء معاملة أسرى الحرب الاميركان وقدمت كل السجل الذي يحوي جرائم الحرب الى الأمم المتحدة مثلما طالب به القرار ٦٧٤. ومن غير المعلوم لحد الآن كيفية تطبيق بنود القرار ٦٧٤ من قبل الأمم المتحدة بعد كل هذه الفترة التي مرت على الأحداث التي يناقشها القرار. فهناك بعض الاعتبارات التكتيكية المعقدة في التوقيت، اذ يجتهد قسم الشؤون الانسانية في محاولاته اقناع العراقيين بالتعاون للقيام بخطة اغاثة واسعة النطاق.

نعتقد ان على الأمم المتحدة التعجيل في اقامة لجنة تحقيقية في جرائم الحرب العراقية إلا انه يجب عدم التقيد بهذا المنظار الضيق. إذ يجب على اي محفل للأمم المتحدة دراسة الأدلة حول خروقات قوانين الحرب من قبل أي طرف سواء أثناء الحرب العراقية الايرانية التي بدأها العراق أو أزمة ٩١/٩٠ التي كان فيها العراق المعتدي الأول أيضاً. في نفس الوقت يجب أن ينسحب تخويل المحكمة على خروقات مثل الاستخدام الداخلي للأسلحة الكيماوية ضد الأكراد. ولا يوجد أي سبب منطقي لعدم فحص المحكمة الأدلة الدامغة المتوفرة، والتي تدين قوات الأمن العراقية بـ«جرائم ضد الانسانية» بحق مختلف العراقيين، وجرائم الابادة ضد الأكراد. وترتبط الأبعاد الداخلية والخارجية للموضوع بشخص وزير الدفاع الداخلي علي حسن المجيد، فالمجيد هو الذي قاد حملة انفال ١٩٨٨ ضد الأكراد، وكان حاكم الكويت خلال عام ١٩٩٠ حين اوقع الكثير من الأذى على الكويتيين.

مسار حرب الخليج :

أدان السكرتير العام السابق للأمم المتحدة مراراً الأعمال العراقية في الكويت المحتل. غير أن أحداً في الأمم المتحدة لم يعلق علناً على التزام الأطراف المتحاربة بالمبادئ الأساسية للقانون الانساني العالمي أم لا، فقد مرت تأكيدات الحلفاء باحترامهم اتفاقيات جنيف بدون نقاش أو تحري.

وفشلت الولايات المتحدة وحلفاؤها في العديد من الحالات بالتقيد باتخاذ كل الاحتياطات لمنع وقوع ضحايا بين المدنيين (وقد خرق العراق قوانين الحرب أيضاً باستعماله صواريخ سكود ضد التجمعات السكنية الكبرى في اسرائيل والعربية السعودية). وكما أشارت مراقبة حقوق الانسان في تقريرها حول خروقات القانون الانساني العالمي ابان حرب الخليج، فقد هاجم الحلفاء أهدافاً تقع في مناطق تجارية أثناء النهار عندما كان هناك احتمال

أكبر لوقوع ضحايا مدنية، وقد هاجموا ملجأ كان يستعمل من قبل المدنيين بدون اعطاء تحذير أولي لانهم اعتبروه هدفاً عسكرياً، وقد أمعنوا في تدمير البنية التحتية الأساسية للعراق، واستعملوا القنابل غير المعقدة «الغبية» ضد أهداف في مناطق سكنية بنسب تفوق بكثير ماغرسته دعايتهم في نفوس الناس أثناء الحرب، وقد فشلوا في تقديم تبرير لعدد الضحايا العراقيين.

ولم تقتصر ممارسة تزوير الحقائق على الحلفاء وقادتهم العسكريين. ففي ذروة الحملة الجوية للحلفاء ضد العراق في شباط ١٩٩١، نشر المفوض السامي للاجئين وثيقتين تلخصان نشاط المفوضية في منطقة الخليج. وأظهرت هذه البيانات الرسمية القليل جداً من الاهتمام بحقوق الانسان داخل العراق. فعلى سبيل المثال لاحظت المفوضية في ٤ شباط، على نقيض توقعات الأمم المتحدة، بأنه لم يفر الى البلدان المجاورة سوى أقل من ٢٠ ألف شخص منذ بداية الحرب. «هناك الكثير من الآراء حول أسباب هذه الظاهرة» حسبما ذكر التقرير «فالأسباب تتراوح بين طبيعة العمليات العسكرية والدمار العام لنظام المواصلات». (٣١)

كان على المفوضية أن تعلم بوضوح سبب هروب هذا العدد الضئيل من الناس من وجه حملة القصف الهائلة. فظروف الشتاء السيئة على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية مع تركيا وايران تمثل جزءاً من التفسير. لكن الأهم بكثير هو اعمال العراق. فقد منعت الحكومة العراقية مواطنيها من مغادرة البلاد تحت طائلة العقوبات الشديدة، ووضعت العراقيل أمام المقيمين الأجانب في العراق والكويت من المغادرة عبر المنفذ الوحيد، الطريق الصحراوي بين بغداد والحدود الاردنية. وقد أعيدت مجاميع من الأجانب اخترقت ستار القصف الجوي ووصلت الحدود الأردنية، الى بغداد للحصول على تأشيرة الخروج. وقد قصف الحلفاء مراراً حافلات مدنية مثل الباصات والسيارات الخاصة على الطريق أثناء النهار، وكان بين القتلى والجرحى العديد ممن كانوا يبغون مغادرة العراق.

ولذلك بدا وجع رأس المفوضية العليا للاجئين القليل إما مثابة شهادة على فشلها في الحصول على المعلومات، واما انه محاولة لتجنب القيام بدور الأمم المتحدة في مثل هذه الأحداث المأساوية. فالأمم المتحدة مجبرة على التأكد من حماية المدنيين الى الحد الأعلى الممكن خلال الأزمة. ومع ذلك لم تنشر قيادة الأمم المتحدة في نيويورك ولا الهيئات الانسانية المتعلقة بالحرب، لم تنشر أي بيان حول الطريقة التي أدى بها قصف الحلفاء الى حرمان المدنيين من الوصول الى الأمان.

ولم تتحدث الأمم المتحدة عن القمع الرهيب الذي تعرض له المنتفضون في العراق بعد أن أكملت قواتها مهمتها هناك. لقد أعطى القرار ٦٧٨ القوات المتحالفة صلاحية تنفيذ قرار ٦٦٠ (لاخراج العراق من الكويت) و «اعادة الأمن والسلم الى المنطقة»، غير ان الأمم المتحدة وقفت متفرجة في آذار ١٩٩١ عندما قمعت الانتفاضة الشعبية في الشمال والجنوب بوحشية متناهية. (٣٢). ثم ان قوات الحلفاء التي أوقفت القتال بعد قرارالولايات المتحدة في ٢٧ شباط، ظلت تراقب عن كثب قصف الطائرات المروحية العراقية والمدفعية الثقيلة المدن الكبرى وطوابير اللاجئين، ومع كل هذا لم تنبس الأمم المتحدة ببنت شفة.

لقد جمع المقرر الخاص فان درستول أدلة هائلة الكم نشرها في تقاريره لعامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣ المقدمة الى لجنة حقوق الانسان، وهي تشير الى تخطيط الحكومة العراقية للجرائم ضد البشرية ولجرائم الابادة مسبقاً. وعلى ضوء هذه الأدلة، ينفتح أمام الأمم المتحدة طريق كـ «هيئة ذات صلاحية»، كما وصفتها اتفاقية ١٩٥٠ حول الابادة، مثلها الجمعية العامة للتقدم بطلب الى محكمة العدل الدولية تستشيرها حول كفاية الأدلة .

التدخل الانساني

لم تعالج بطريقة سلمية اعتبارات حقوق الانسان أو الحاجات العاجلة للاجئين الهاربين من البطش خلال الأزمة التي ابتدأت في ٢ آب ١٩٩٠. ان فريق العمل المشترك بين هيئات الأمم المتحدة الذي عقد جلساته بين آب ١٩٩٠ و حزيران ٩٢ في جنيف لمناقشة قضايا تخص العراق، لم يخول أية هيئة من هيئات الأمم المتحدة صلاحيات مراقبة وضع حقوق الانسان ، ولم تضم اللجنة اخصائيين من مركز الأمم المتحدة لحقوق الانسان ولم يحدث قط ان سمح بمشاركة مهتمين بحقوق الانسان في النقاش. ولذا فان غياب مثل هؤلاء الأشخاص أو المنظمات يعني اهمال أو –في أحسن الأحوال– قصور معالجة القضايا المتعلقة بالاهتمام الواسع –ضمن القانون الدولي– بحقوق اللاجئين وحقوق الأجانب الذين لم يتمكنوا من مغادرة البلد وتأثيرات الحصارات الداخلية التي تفرضها الحكومة العراقية وغيرها من القضايا . لقد تعامل فريق العمل مع القضايا الناجمة عن الحرب بشكل تكنيكي مثل تقدير عدد البطانيات أو الخيم ، بدلاً من معالجتها كقضية يمكن التخفيف من وطأتها عبر الضغط على الحكومات من أجل الايفاء بالتزاماتها المنصوص عليها في الاتفاقيات الدولية.

خلال الأشهر الأولى من الاحتلال تمكن فريق العمل التعامل مع حوالى ٨٠٠ ألف أجنبي تمكنوا من مغادرة العراق والكويت على حسابهم الى الأردن . وقد أعادت المنظمة العالمية للهجرة بالتعاون مع السلطات الأردنية قرابة ٧٠٠ ألف منهم الى بلادهم لغاية نهاية العام. غير أن عدم قدرة الأمم المتحدة على التحقيق في الأوضاع داخل العراق -بسبب عدم وجود موظفين لها في بغداد- يعني أن فريق العمل كان غير معني بالقضايا داخل العراق ، ولذلك كان غير قادر على مساعدة تجمعات العمال الأجانب مثل الفيتناميين والسريلانكيين الذين حصروا داخل العراق ولديهم قليل من الزاد وبفرص قليلة للنجاة وعلى العكس من بعثات الانقاذ الدولية في أماكن أخرى من العالم سابقاً، لم تحاول الأمم المتحدة تنظيم الجسور الجوية أو قوافل سيارات أو شاحنات من العراق والكويت.

قد لا يكون ذلك بالضرورة بسبب قلة مبادرة الأمم المتحدة ، فقد عارضت الحكومة العراقية التدخل الدولي، في نفس الوقت لم تأخذ الأمم المتحدة المبادرة للضغط على بغداد من أجل السماح لمليوني أجنبي يعيشون تحت سيطرتها من مغادرة العراق بشكل منظم.

لقد أدان سكرتيرعام الأمم المتحدة مراراً العراق لاحتجازه الرهائن واستعمالهم دروعاً بشرية بوجه التدخل العسكري الغربي، غير ان معظم المبادرات لاطلاق سراح هؤلاء جاءت من أفراد غربيين بصفتهم الشخصية.

لقد نجم عن قمع انتفاضة آذار ١٩٩١ هجرة جماعية لما يقرب من مليون و ٨٠٠ ألف عراقي الى تركيا وايران وبدرجة أقل الى السعودية . وعلى الرغم من التغطية الاعلامية الواسعة في الغرب للانتفاضات القصيرة، واليقين من التنكيل الواسع والعشوائي الذي قامت به الحكومة(٣٣) ، فقد أخذت الأمم المتحدة على حين غرة . فلم يكن لمسؤولي الأمم المتحدة تواجد داخل العراق في ذلك الوقت سواء لمراقبة الأحداث أو لاحتجاج على الحكومة (٣٤) . أما في الخارج فقد فوجئت منظمات الأمم المتحدة خاصة منظمة الاغاثة في الكوارث والتي حلت الان، بالسرعة والمدى اللذين أخذهما السيل البشري. فخطط الطوارئ التي وضعت قبل أسابيع فقط تنبأت بمواجهة مايقدر بـ ١٠٪ من العدد الفعلي للاجئين . وينبع هذا الخطأ الكبير في التقدير ، الذي أدى الى ضعف التحضيرات في البلدان المجاورة وعلى الحدود ، من سوء اطلاع الأمم المتحدة أو تقديرها لظروف حقوق الانسان في العراق القائمة منذ دهر .

وفي حين استقبلت ايران غالبية اللاجئين (حوالي ٣ , ١ مليون كردي وشيعي) حصلت تركيا على حصة الأسد من المساعدات الدولية والاهتمام. فقد وجد المتبرعون الغربيون تركيا عضوة الناتو أسهل للتعامل من ايران الأكثر عزلة ، ثم ان تركيا أسرعت في طلب المعونة، وكذلك ، ولربما كان ذلك العامل الحاسم ، فان وصول أجهزة الاعلام الى الحدود التركية كان أسهل بكثير من وصولها الى الحدود العراقية الايرانية ، وكان التلفزيون هو ماحفز الأمم المتحدة والمترعين على التحرك لقد كان عدم التوازن في توزيع المساعدة خطأ جسيماً على أية حال . ومما اضاف الاهانة الى الجرح ، هو أن انقرة حاولت وقف تدفق اللاجئين عند حدودها الجبلية في حين فتحت ايران أبوابها أمام القادمين . ولم يجر التمييز على الاطلاق بين الموقفين المتناقضين للدولتين المضيفتين سواء بالقول أم بالفعل من قبل الأمم المتحدة أو من قبل المتبرعين الغربيين.

وفي هذه المأساة الانسانية الهائلة، التي انتشرت عبر مئات الأميال من الأرض التي يصعب غالباً الوصول إليها ، لم تلعب الأمم المتحدة سوى دور ضئيل . وكان ممثلوها المقيمون في *طهران* خبراء تنمية ،غير متمرسين بمعالجة الأزمات ولم يتلقوا أي تأهيل في مجال معايير حقوق الانسان . وفي الواقع سلم مكتب الأمم المتحدة في طهران القيادة الى الصليب الأحمرالدولي واتحاد جمعيات الصليب والهلال الأحمر وجميعة الهلال الأحمر الايرانية . وفي انقرة أخذت القوات المسلحة الاميركية سوية مع القوات التركية والهلال الأحمر التركي على عاتقها قيادة تنسيق عمليات الاغاثة على الحدود.

لقد أدى سيل اللاجئين وجذوره المتمثلة في انتهاكات العراق لحقوق الانسان الى اصدار قرار مجلس الأمن ٦٨٨ في ٥ نيسان ١٩٩١ ، وهو دعوة تأريخية للحكومة العراقية الى الامتناع عن اضطهاد شعبها . فقد قدمت فرنسا القرار بعد رسالة الحكومة الفرنسية الى الأمم المتحدة في ٤ نيسان(٣٢) ، والتي دعمت من قبل بريطانيا والولايات المتحدة. وقد واجه المشروع معارضة قوية من قبل الصين والدول النامية الأعضاء في مجلس الأمن ، والتي كانت منفعلة بسبب السابقة التاريخية التي قد يتهدد معها الحق في السيادة الوطنية . بهذا المعنى عكس القرار الدوامة التي تواجهها الأمم المتحدة إليوم في محاولاتها الموازنة بين الضغوط المتناقضة للسيادة الوطنية وحقوق الانسان . لكن الصين اختارت الامتناع عن التصويت بدلاً من استعمال حقها في النقض ، وحصل القرار على أغلبية الثلثين المطلوبة .

ومن المفيد التذكير بلهجة القرار القوية خاصة فيما يتعلق بالهوة بين مطالب الأمم المتحدة والتزام العراق :

الفقرة الثانية : «يطالب (مجلس الأمن) العراق ، كمساهمة منه في ازالة الخطر على الأمن والسلم العالميين في المنطقة، الوقف الفوري للقمع ويعبر عن أمله في نفس المجال بأن يبدأ حوار مفتوح لتأمين احترام الحقوق الانسانية والسياسية لكل المواطنين العراقيين . »

الفقرة الثالثة : «يصر على سماح العراق الفوري للمنظمات الانسانية العالمية بالوصول الى كل من هم بحاجة الى المساعدة في كل أنحاء العراق وتوفير كل المستلزمات لتسهيل عملياتها. »

لم تكن ادارة بوش راغبة في التحرك بنفسها ، أو حتى في الضغط من أجل التحرك المنظم خلال مجلس الأمن للتعامل مع الموجة الضخمة للاجئين . فقد خرجت الولايات المتحدة للتو من حرب أعلن الرئيس بوش بأنها كانت نصراً عظيماً ، ولم تكن هناك رغبة للإنغماس مجدداً في وحل العراق . هذه المرة جاء الضغط من بريطانيا خاصة من رئيس الوزراء ميجر ، ومن فرنسا بقيادة السيدة دانيل ميتران زوجة الرئيس الفرنسي وصديقة الأكراد القديمة ، مما دعا واشنطن والأمم المتحدة الى التحرك.

لقد أدت «عملية توفير المساعدة» ، وعملياً الذراع العسكري للقرار ، الى المواجهة الفعالة والسريعة للأزمة الانسانية التي ولدت هذا القرار . وهذه العملية التي لا تزال قيد التنفيذ بعد عامين من بدايتها ، هي تحالف الدول الغربية الثلاث وتركيا الدولة المضيفة للطائرات العسكرية التي تقوم بأعمال الدورية في شمال العراق وتحت الحماية هذه، انعكس اتجاه الموجة البشرية شيئاً فشيئاً وعادت الى العراق . وفي تشرين الأول ١٩٩١ سحبت الحكومة العراقية ماتبقى من مسؤوليها وقوات أمنها من الشمال الذي سيطر عليه الأكراد ، وأقيمت بذلك محمية كردية.

لكن اهتمام الأمم المتحدة والمجتمع الدولي لم يوجه الى أوضاع حقوق الانسان في الجنوب . فقد اعتقل العديد من الشيعة اللاجئين الذين عادوا الى العراق ثم اختفوا ، وأعادت السعودية بالقوة مجموعات من اللاجئين العراقيين الذين تسنى لهم عبور الحدود بصورة غير شرعية عام ١٩٩٢ ، ورفضت الكويت المتحررة حديثاً دخول أي لاجئ عراقي الى أراضيها ، بل انها رفضت دخول قسم من المقيمين فيها منذ مدة طويلة ممن يعرفون بالبدون ، الذين وجدوا أنفسهم محصورين داخل العراق بعد الحرب.

لم تثمر جهود الأمم الشحيحة لاغاثة السكان المحتاجين على الدوام في الجنوب. ففي أواسط تموز ١٩٩١ قاد الأمير صدر الدين اغا خان المسؤول البارز في الأمم المتحدة فريقاً لزيارة منطقة هور الحمار ، حيث اتخذت السلطة العراقية احتياطات حذرة لإبعاد مواجدها العسكري أثناء الزيارة . وقد رتب الأمير افتتاح مركز صغير لتوزيع الأغذية في قرية الحمار ، ثم أغلقته بغداد بعد أسبوع. وفي مؤتمر صحفي عقد لاحقاً ، اتهم الأمير صدر الدين العراق بخداع الأمم المتحدة .(٣٦)

هناك تناقض واضح بين قدرة الأمم المتحدة على فرض قراراتها المتعلقة بالأمن -مثل قرار ٦٨٧ بصدد تدمير أنظمة الأسلحة العراقية -وقدرتها على تطبيق القرار ٦٨٨ فيما يتعلق بتوزيع المعونات الغذائية . ويعود جزء من المشكلة الى أسباب عملية، فقد أشار مسؤولو الأمم المتحدة الى ان المساعدات لا توزع من الناحية العملية بدون صيغة من الاتفاق القانوني مع بغداد. في نفس الوقت توحدت السلطات الكردية ومجاميع المعارضة الشيعية العراقية ومنظمات الاغاثة العراقية في الخارج في نقدها لاداء منظمات الامم المتحدة الكبرى المتخصصة في الاغاثة مثل إليونسيف والمفوضية العليا للاجيئين وبرنامج الغذاء العالمي ومنظمة الصحة العالمية خلال العامين الماضيين في العراق . وقد ذكر المسؤولون الأكراد بان برنامج لمعونة الشتاء بقيمة ٨٦ (٨٥؟) مليون دولار لشتاء ٩٣/٩٢ قد بدأ متأخراً ولم يصل الى من هم بحاجة ماسة إليه.

بتقديرنا فان الأمم المتحدة تقلل من امكانياتها على المساومة مع الحكومة العراقية التي تخفي لهجتها العلنية الشديدة ضعفاً كبيراً وخزانة تنضب باستمرار. والحكومة العراقية ، اذ تواجه مشاكل جدية في مجال الصحة العامة ، هي في أمس الحاجة الى منظمة الصحة العالمية وإليونسيف على وجه الخصوص . ومن جانب آخر ، لم يحصل العاملون على الأرض من رؤسائهم الذين ليسوا مستعدين لمواجهة بغداد حول القيود التي لا حصر لها على حركة الأجانب.

تشكيل قسم الشؤون الانسانية

Department of Human Affirs, DHA

بالرغم من العقبات المثبطة التي تواجهها وكالات الأمم المتحدة ، كان عدم الرضا عن أدائها واسعاً في كانون الأول ١٩٩١ عندما أقرت الجمعية العمومية قرارها المرقم

١٨٢/٤٦ لتشكيل قسم للشؤون الانسانية يرأسه الدبلوماسي السويدي يان إلياسون مساعد السكرتير العام لتنسيق تقديم المساعدات الانسانية. وقد تشتت انتباه القسم منذ بداية عمله في آذار ١٩٩٢ على مواجهة أزمات كبرى في الصومال ويوغسلافيا السابقة والعراق وأماكن أخرى ، وبالتالي بقيت امكانية التركيز على أي من هذه الأزمات ، والقدرة على جمع التبرعات لتمويل برامج المساعدات محدودة جداً.

وقد واجه القسم نقصاً في العاملين وتشتتاً في تعامله مع العراق، واضطر الى التنسيق مع الوكالات التي تأسست منذ فترة طويلة. فقد ورث جهازاً ادارياً كان قد تشكل على عجل أثناء أزمة الخليج برئاسة الأمير صدر الدين ، ومع ذلك كان على القسم اضفاء طابعه على العمل في العراق. وعلي صعيد العمل ، كان القسم وديعاً جداً تجاه طغمة وضيعة ، فعندما رفض العراق اعطاء تصريحات دخول لممثلي الدول الغربية المتبرعة لمرافقة فريق من اليونسيف لتقدير الاحتياجات في آذار ١٩٩٣ وافق القسم -باعتباره المنسق- بوداعة على شروط بغداد ، وحتى انه لم يطالب بموافقة لزيارة الأهوار حيث يعاني عشرات الآلاف من المدنيين من حصار اقتصادي ومن تجفيف مياه الأهوار والقصف اليومي لديارهم. وقد حذرت الحكومة الأمم المتحدة من انها لا يمكن أن تضمن سلامة مبعوثها في المنطقة . غير انه لا يمكن الغفران للقسم عدم القيام بجهود أخرى لتجاوز العقبات التي تضعها بغداد. وقد مثل ذلك صفعة شديدة لمواقف الياسون حول ان السياسة الهادئة وحافز المعونات الانسانية يمكن ان تجلب تقدماً لقضية حقوق الانسان أيضاً.

وقد رفضت الأمم المتحدة صراحة الدعوات لربط حقوق الانسان بالشؤون الانسانية عند تشكيلها للجهاز الجديد. ولم يكن مسؤولا الأمم المتحدة وبضمنهم السكرتير العام الجدد ، الى جانب خلط هذين العنصرين ، بحجة ان إمكانية الوصول الى العديد من الدول سيتعرض بذلك الى الضعف.

ويناقش الياسون في أحاديثه الخاصة امكانيات القسم لدفع قضية حقوق الانسان باستعمال الوسائل غير السياسية وغير التهديدية . وكمثال على ذلك يذكر نجاح المباحثات التي أجراها رئيس اليونسيف غرانت في صيف ١٩٩٢ .حين انتهى مفعول مذكرة التفاهم في ٣٠ حزيران وكانت الحكومة العراقية قد صعدت من ضغطها على المنظمات الانسانية غير الحكومية وموظفي الأمم المتحدة العاملين في مجال الاغاثة في العراق . فجرى عدم تجديد تصاريح السفر وتقييد الحركة الداخلية وتزايدت الاعتداءات ضد الأجانب يومياً .

وقالت بغداد انها لا ترى سبباً لوجود الأمم المتحدة تحت أية ذريعة وطالبت بخروجها. وبمواجهة هذه الاجراءات تمكن غرانت في أواسط ايلول من انتزاع تمديد جديد لمذكرة التفاهم لستة أشهر اخرى ، مما مكن موظفي الأمم المتحدة -وبضمنهم ٣٠٠ من الحراس- من البقاء في العراق لغاية ٣١ آذار ١٩٩٣ وتوزيع ماتبقى من برنامج اغاثة بقيمة ٢٠٠ مليون دولار.

في الواقع كانت الأمم المتحدة تتوسل التفاهم ، لانه أفضل مايمكنها عمله في ظل هذه الظروف. وذكر بطرس غالي في اب بأن العراق هدد بالانتقام في حالة فرض الخطة التي تقودها الولايات المتحدة لفرض منطقة حظر جوي جنوب خط عرض ٣٢ ، وذلك من خلال طرد كل الحراس الدوليين المتبقين ، وقد حذر من أن الجهود الدولية لتوفير المساعدات الانسانية في العراق قد تتعرض للضعف بسبب عدم تمديد الحكومة لمذكرة التفاهم (٣٧) . وقد انسحبت حفنة قوات الأمم المتحدة المرابطة في الجنوب بعد تزايد التهديدات ضد سلامة الجنود الشخصية لاحقاً . وفي كانون الأول ١٩٩٢ أغلقت المفوضية العليا للاجئين مكتبها في البصرة منهية بذلك آخر وجود دائم للأمم المتحدة في المنطقة المهددة.

ان منظمتنا ترى ضرورة لبقاء المفوضية في البصرة . ان مضايقة واعتقال اللاجئين العائدين وأقارب أولئك الذين هربوا الى الخارج هي ممارسة يومية لقوات الأمن العراقية ، وبعد طرد ايران للجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي في بداية العام ، أصبح مكتب البصرة القناة الوحيدة للصلة بين اللاجئين الشيعة في ايران وذويهم في الوطن .

توصيات

حقوق الانسان في الأهوار الجنوبية: يجب على الأمم المتحدة التوجه للتعامل مع أزمة حقوق الانسان القائمة في الأهوار بكل ماتمتلك من وسائل ، هذا يتضمن : عقد جلسة طارئة للجنة حقوق الانسان لدراسة الوضع الحالي هناك ، واقتراح حلول خاصة : دراسة اعلان المنطقة محمية منزوعة السلاح داخل وحول الأهوار وفتح ممر من الحدود الايرانية الى الأهوار كمسألة في غاية الالحاح ، وتشكيل لجنة اختصاصيين مستقلة لدراسة العواقب

المتعلقة بحقوق الانسان الناجمة عن الأعمال الانشائية الواسعة النطاق الجارية الآن في الأهوار وعلى طول أجزاء من نهري دجلة والفرات.

الحصول على معطيات مباشرة عن حقوق الانسان: يجب على الأمم المتحدة اعادة تأكيد حقها في ارسال حراس دوليين الى العراق وبأعداد كافية لضمان سلامة عمليات الأمم المتحدة الحالية والمستقبلية ، واستناداً الى القرار ٦٨٨ يجب الإصرار على مبدأ حرية مسؤولي الأمم المتحدة في الوصول الى أية بقعة من العراق بدون عوائق بغض النظر عن أن أية وكالة دولية تود العمل في المنطقة المعنية أم لا؛ وان رفض العراق ذلك الإجراء ، يجب طرح مقترح ارسال فريق مراقبين لحقوق الانسان على مجلس الأمن في أقرب فرصة ودراسة سبل تطبيق الخطة بنجاح . يجب على السكرتير العام السماح للمقرر الخاص فان درستول بزيارة المناطق الشمالية التي سحبت منها السلطة المركزية أجهزتها لجمع المعلومات بصورة مستقلة عن بغداد ؛ ويجب على مجلس الأمن الاستعداد للتعامل مع المعلومات المتعلقة بالانتهاكات الخطيرة لحقوق الانسان وخروقات القانون الانساني الدولي ومساواة ذلك مع التهديدات المعروفة تقليدياً «للسلم والأمن».

الابادة المحتملة وجرائم الحرب : يجب على مجلس الأمن تشكيل لجنة تحقيقية مماثلة لتلك التي تشكلت حول يوغسلافيا السابقة ، لفحص الأدلة حول جرائم الحرب خلال أزمة الخليج ٩٠ /٩١ والجرائم المحتملة ضد الانسانية وجرائم الابادة التي اقترفتها الحكومة العراقية قبل هذه الأحداث ، واذا كانت الأدلة كافية ، ونعتقد بأنها كذلك ، يجب على الجهاز المختص في الأمم المتحدة ان يطلب رأياً استشارياً من محكمة العدل الدولية فيما اذا كانت أعمال الحكومة العراقية في المنطقة الكردية بين ٨٧-٨٩ تنطوي على الابادة كما هي معرفة في اتفاقية ١٩٥١ لمنع الابادة ومعاقبة مرتكبيها.

التوثيق والمسؤولية : يجب على أجهزة الأمم المتحدة المختصة الاصرار على ضرورة تجاوب العراق مع المطالب السابقة بكامل المسؤولية عن كل المواطنين العراقيين الذين «اختفوا» على يد السلطات منذ انقلاب عام ١٩٦٨ ، الاصرار على تفتيش كل المناطق المشكوك بكونها مراكز اعدامات جماعية أو أماكن اعتقال ، العمل مع اللجنة الدولية

للصليب الأحمر على اعداد قائمة بمراكز الاعتقال المصرح بها والسرية التي تدار من قبل أجهزة الأمن العراقية ، مع قوائم بالمعتقلين فيها ، والاصرار على حق الصليب الأحمر في مراقبة كل هذه الأماكن وفقاً لقرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ .

الاحتياجات الانسانية : يجب أن لا يكون رفض العراق لقراري مجلس الأمن حول «غذاء مقابل النفط» حجة لمنع وصول المساعدات الانسانية الى الشعب العراقي . ولزيادة فاعلية توزيع المساعدات يجب الاعتماد على المنظمات غير الحكومية العراقية داخل وخارج العراق لتوزيع جزء من برنامج الأمم المتحدة للمساعدات.

عمليات الأمم المتحدة : يجب على قسم الشؤون الانسانية أن يضع برامجاً للصحة ومعالجة المياه في خطة العمل التي تجري دراستها الآن مع بغداد والجهات المتبرعة بما يمكن مسؤولي الأمم المتحدة من الوصول الى مناطق العراق الأكثر تعرضاً لانتهاكات السلطة ، يجب على اليونسيف ومنظمة الصحة العالمية وبرنامج الغذاء العالمي ان توجها عامليها في العراق بعدم التعاون مع البرامج الحكومية العراقية التي تمارس التمييز بين السكان حسب الولاء للسلطة.

الهوامش

١ - اقتباساً من حنا بطاطو في «حقوق الانسان في العراق» من اصدار مراقبة الشرق الأوسط ، نيويورك ١٩٩٠ ص١. ويعتمد هذا الجزء على فقرات من تقرير مراقبة الشرق الأوسط حول العراق لعام ١٩٩٠ وتقريرها المشترك مع أطباء من أجل حقوق الانسان : «حملة الانفال في كردستان العراق : تدمير كورمه» نيويورك ١٩٩٣ .

٢ - من المتفق عليه بان الأكراد هم رابع مجموعة عرقية في الشرق الأوسط بعد العرب والترك والفرس . يتراوح عددهم حسب التقديرات بين ١٨ - ٣٠ مليون يعيشون في العراق وتركيا وايران وسوريا

وأجزاء من الاتحاد السوفييتي السابق. وتقدر نسبتهم في العراق بـ ٢٣٪ أو مايزيد عن ٤ ملايين نسمة .

٣ - هو اسم استعملته الحكومة العراقية مقتبس من التراث القرآن في محاربة الكفار بالرغم من ان الأكراد مسلمون وان العراق اسمياً دولة علمانية .

٤ - هناك خلاف حول العدد الدقيق لهؤلاء ، جزئياً بسبب رفض الحكومة الكويتية الاعتراف بحقوق البدون أو عديمي الجنسية الذين حصروا في العراق بعد الحرب.

٥ - ابن عم صدام وصهره ، وهو وزير الدفاع العراقي الآن.

٦ - تدافع حكومة صدام عن ماتسميه بمشروع النهر الثالث وهو قناة بزل بطول يزيد عن ٥٠٠ كم ، على أسس تنموية . لكن الحكومة صمتت عن الهدف من مجاميع السدود وغيرها من الأعمال الترابية حول وداخل الأهوار والتي تبنى على عجل تحت حماية الجيش وبعد افراغ المنطقة من سكانها .

٧ - بعثة منظمة الصحة العالمية واليونسيف الخاصة الى العراق ، شباط ١٩٩١ ، مجلس الأمن رقم S / 22328 في ٤ آذار ١٩٩١ . لقد انتقدت مراقبة الشرق الأوسط الحلفاء لتماديهم في مهاجمة كل محطات توليد الطاقة ومنشآت الخدمات العامة الأخرى الأساسية للحياة المدنية . مراقبة الشرق الأوسط : موت غير مبرر في حرب الخليج : الخسائر المدنية خلال الحملة الجوية وخرق قوانين الحرب ، نيويورك ١٩٩١ ص ٩٢ - ١٧١. ٨ - نفس المصدر - البعثة الخاصة الى العراق .

٩ - وثيقة المجلس الاقتصادي الاجتماعي للأمم المتحدة E/ CN.4 /1992 /31، التقرير الختامي حول وضع حقوق الانسان في العراق من قبل المقرر الخاص للجنة حقوق الانسان ، السيد فان درستول ص ٦٥ فقرة ١٥٤ .

١٠ - نفس المصدر ص ٦٥ فقرة ١٥٣ . الاشارة الى جانب آخرين هي الى وزير الدفاع الحالي علي حسن المجيد أحد أقرباء الرئيس صدام حسين المقربين.

١١ - انظر أدناه.

١٢ - يناقش مسؤولوالأمم المتحدة على علمهم بنواقص مذكرة التفاهم ، بأنه من الأفضل وجود اتفاقية مكتوبة مع بغداد مهما كانت عيوبها، من العمل في العراق بدون أية اتفاقية . وقد أكد مقرر الأمم المتحدة على أهمية اغاثة ٥ ,٣ مليون كردي ، عبر عن تخوفه من أن تمنع تركيا مرور مواد الاغاثة الى المنطقة الكردية خوفاً من أي يؤدي استقرار الأوضاع هناك استقلال المنطقةعملياً وتشكل دولة كردية . ولهذا أعتبرت الموافقة العراقية على قوافل المساعدات قضية أساسية.

١٣ - استند هذاالجزء على دراسة ماريان هوك Marian Houk لصالح مراقبة الشرق الأوسط وأطباء من أجل حقوق الانسان وهي منظمة مقرها بوسطن تضم اختصاصيين أطباء.

١٤ - S/ PV. 2943 ص ٧.

١٥ - وثيقة الأمم المتحدة S / 21742 - 1

١٦ - وجهت الحكومة العراقية في ١٤ كانون الثاني ١٩٩١ دعوة الى منظمة الصحة العالمية واليونسيف لارسال بعثة.

١٧ - أخبرت السفيرة الفنلندية ماريانا Mariatta Rasi مراقبة الشرق الأوسط بأنه خلال الأشهر

الخمسة الأولى من عمل اللجنة التي ترأست جلساتها، عرقلت عملها نقاشات غامضة حول امكانية استفادة الجنود العراقيين من حليب الأطفال، أو النقاش الآخر حول هل بالامكان استعمال المقصات الطبية كسلاح أيضاً.

١٨ - قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ (١٩٩١) في ٥ آذار ١٩٩١ .

١٩ - أصر الرئيس كلنتون أن العقوبات ستبقى لحين الاستجابة الكاملة الى قرارات مجلس الأمن، لكنه تجنب بحذر ربط السياسة باستمرار الزعيم العراقي في السلطة.

٢٠ - وثيقة مجلس الأمن رقم S/ PR. 2978 ص ٨٦.

٢١ - نفس المصدر ص٢٥ - ٢٦ .

٢٢ - وثيقة مجلس الأمن رقم S/ PV. 2981 ص٥٣ .

٢٣ - استنتجت مراقبة الشرق الأوسط في منشورها : «موت غير مبرر في حرب الخليج.. الخ» بأن الحلفاء فشلوا مراراً في اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب الاصابات المدنية أثناء القصف. كما أوغل الحلفاء في قصفهم للبنية التحتية العراقية الأساسية مثل الكهرباء ومنشآت تصفية المياه وبذلك أسهموا في انهيار شروط الحياة المدنية.

٢٤ - وثيقة مجلس الأمن رقم S/ 22366 في ٢٠ آذار ١٩٩١ ص١

٢٥ - انظر الغارديان ٩٢/١/١٨ «أغنياء بغداد يتمتعون بالحياة بينما..»

٢٦ - علل الرئيس بوش اعلان منطقة الحظر الجنوبية ، في ٢٦ اب ١٩٩٢ ، بالقمع الشديد للشيعة من قبل الحكومة . وقد قال مدير عمليات الأركان المشتركة : «هدف انشاء منطقة حظر جوي (وأؤكد بانها منطقة حظر جوي وليست منطقة آمنة) هولتأمين سلامة الطائرات التي تراقب التزام العراق بقرارمجلس الأمن ٦٨٨ . انظر الواشنطن بوست عدد ٢٧ آب ١٩٩٢ .

٢٧ - أكبر مدينة في المنطقة ، السليمانية، وغيرها من المدن الصغيرة تقع جنوب خط عرض ٣٦ ، غير ان واشنطن ولندن قاومتا دعوات الأكراد وغيرهم من المعارضة الى توسيع رقعة المنطقة.

٢٨ - في لقاءات مع مراقبة الشرق الأوسط، نيسان ١٩٩٣ .

٢٩ - انظرمثلاً مجموعة وثائق الأمم المتحدة الرسمية «نشاط الأمم المتحدة في حقل حقوق الانسان» (نيويورك ١٩٨٣) ص٢٣٤ - ٢٤٣.

٣٠ - نفس المصدر ص ٢٢٤

٣١ - نشرة اخبارية عن المفوضية العليا للاجئين رقم ١ ، ٤ شباط ١٩٩١ : العمليات في منطقةالخليج الفارسي» ص٢.

٣٢ - يجب على الحكومة الاميركية تحمل جزء من المسؤولية عن هذه الانتهاكات الخطيرة بسبب تشجيعها العلني الشعب العراقي للاطاحة بحكومته.

٣٣ - ان أية نظرة الى أي تقرير من تقارير منظمة لعفو الدولية عن العراق، أو التقرير السنوي لمراقبة الشرق الأوسط ١٩٩٠ - حقوق الانسان في العراق ، ستحذر أياً من موظفي الأمم المتحدة ، مهما كان قليل خبرة، ان حملات من القمع الواسع ضد المدنيين ستقع لا محالة.

٣٤ - تم سحب كل موظفي الأمم المتحدة من العراق قبل اندلاع الحرب . وبقي هناك موظف واحد : عراقي الجنسية لكن الأمم المتحدة لم تطلب منه تمثيلها في شؤون غير شؤون وكالته - وهي اللجنة الاقتصادية - الاجتماعية لغرب آسيا، خوفاً من أن يقع في موقف لا يمكن الدفاع عنه فيه.

٣٥ - وثيقة مجلس الأمن رقم S?22442 في ٤ نيسان ١٩٩١ .

٣٦ - «العراق يطلب من الأمم المتحدة ايقاف توزيع الأغذية» واشنطن بوست في ١٧ آب ١٩٩١ و «الأمم المتحدة تقول ان العراق قد خدع بعثة الاغاثة » نفس الجريدة ١٩ / آب ١٩٩١ .

٣٧ - واشنطن بوست ٢٦ آب ١٩٩٢.

ترجمة الثقافة الجديدة

* الفصل الخاص بالعراق من التقرير الذي أصدرته في حزيران ١٩٩٣ هيئة «مراقبة حقوق الانسان Human Rights Watch بعنوان

The Lost Agenda, Human Rights and UN Field Operations

نبيل شعث:
الاتفاق يجعل التقدم نحو دولة * فلسطينية أمراً حتمياً

* من دون شك أن اعلان المبادئ يمهد لدولة فلسطينية، ذلك أن الاعلان ، إضافة الى الاعتراف المتبادل بين المنظمة واسرائيل يخلق ظروفاً واجراءات لا يمكن التراجع عنها أو التقهقر عما أنجزته إلا بالتوجه نحو دولة فلسطينية. ان الاعتراف وتوقيع المنظمة على الاتفاق في البيت الأبيض، ثم تسليم هذا الاتفاق إلى الأمم المتحدة فوراً ممثلة بأمينها العام بطرس غالي الذي حضر التوقيع، وما أدى اليه هذا التوقيع من نتائج، جعل الاتفاق بين اسرائيل والمنظمة وكأنه اتفاق بين دولتين حول اقامة حكم مستقل على أرض هي أرض احدى هاتين الدولتين، أي الاراضي الفلسطينية المحتلة.

والناظر إلى اتفاق اعلان المبادئ واعترافه بحقوق الشعب الفلسطيني وتوضيحه للعلاقات بين الطرفين يجعل التقدم نحو دولة فلسطينية مستقلة أمراً حتمياً.

اضافة إلى ذلك، فإن الأسباب الموضوعية التي جعلت مثل هذا الاتفاق حديث العالم كله مما يشكل ضمانة دولية، ولو كانت غير رسمية، لنجاح هذا الاتفاق، تجعل التقدم نحو الدولة المستقلة أمراً ضرورياً لكي تحقق الأطراف المكاسب التي من أجلها وقعت هذا الاتفاق.

والتوفيق أو التحكيم إطاران قانونيان دوليان متعارف عليهما تماماً، ومثال طابا واضح للتحكيم والذي تريده اسرائيل توفيقاً أي أن يقبله الطرفان، بينما في التحكيم فالحكم الذي يقبله الطرفان يفرض رأيه حسب قراءته للقضية، وبالتالي لدينا ثلاث مراحل، أولاً: محاولة حل النزاع ثنائياً، فإن لم يكن فلجنة توفيق دولية، فإن لم يكن فلجنة تحكيم دولية.

وهناك تعريفات قانونية دولية واضحة لكل من هذه الاطارات. إما الحديث عن سوق

شرق أوسطي أو عن علاقة اسرائيلية بالمنطقة العربية فيجب أن ينظر اليه أولاً على أنه اضافة أو بعد مختلف عن البعد القومي وليس بديلاً منه فنحن نتحدث عن علاقات متوسطية. وهناك الكثير من الأعمال التي تنبثق من العلاقة بين الدول العربية والشمال افريقية، وبالذات مصر وبين الدول الأوروبية في شمال البحر الأبيض المتوسط وهناك كلام كثير عن مؤتمر الأمن والتعاون الاقليمي للبحر الأبيض، وهي فكرة أطلقت منذ مؤتمر التنمية والأمن الاقليمي في هلسنكي تجعل البحر الأبيض المتوسط بعداً.

هناك أيضاً من يتحدث عن البعد الاسلامي. فهناك بعد في العلاقات الاسلامية، ودائماً كانت محاولات ادخال تركيا وايران في علاقة مع المنطقة تنبثق من فكرة شرق أوسطية. وهناك أيضاً العلاقة العربية التي تربط الدول العربية الافريقية بافريقيا. ولم تحل أي فكرة من هذه العلاقات محل الفكرة القومية العربية والانتماء القومي العربي والأمن القومي العربي. وعلى ذلك لا يجوز تصور أن البعد الشرق الأوسطي هو بعد بديل عن المنطقة العربية والبعد القومي العربي أمنياً كان واقتصادياً.

كما أن اسرائيل تبقى من حيث الثقافة والانتماء الحضاري، طالما ظلت في شكلها الحالي، دولة أوروبية تنتمي الى ثقافة تختلف عن الثقافة والحضارة العربية الاسلامية؛

وإذ كان البعد الحضاري أو البعد الثقافي في العلاقات يكتسب أهمية خاصة في هذه الأيام ببروز الحضارة الكونفوشية الصينية واليابانية والهندية والسلافية والاسلامية بشقيها العربي والايراني - التركي والغربية بشقيها الأوروبي والأميركي، فلا يمكن تصور أن اسرائيل يمكن اعتبارها جزءاً من هذه الحضارة العربية - الاسلامية إلا اذا حدث تغير جذري في تركيبة الحكم الاسرائيلي وحدثت غلبة للشرقيين في اسرائيل، وهو أمر غير متوقع حالياً.

لذلك يبقى البعد الشرق الأوسطي بعداً اضافياً تماماً كالبعد البحر الأبيض المتوسطي أو البعد الافريقي في داخله على البعد القومي العربي الذي سيظل بعداً رئيسياً وأساسياً وانتمائياً لفلسطين ولكل الأطراف العربية المحيطة بها.

هذا من جانب ومن جانب آخر هناك مبالغة كبرى في الحديث عن قيادة اسرائيل لهذه التي تسمى السوق الشرق الأوسطية. فالواقع أنه يجب أن ينظر الانسان إلى تكوين الاقتصاد الاسرائيلي لكي يدرك أن هذا التكوين قد تأثر بـ 45 سنة من المقاطعة العربية فتوجه توجهاً شبه كامل إلى علاقات اقتصادية تحكمها الظروف السياسية لاسرائيل، ومن ثم غلبت على الاقتصاد الاسرائيلي صناعة صقل الماس التي نجمت عن العلاقات الخاصة مع جنوب افريقيا والصناعات الالكترونية العسكرية التي نتجت عن علاقاتها الخاصة مع الولايات المتحدة الأميركية، وبعض القدرات الزراعية والسلع الزراعية. ويجوز أن الجانب

التقني فيها كان متقدماً، وهو عكس الاهتمام الاسرائيلي بالزراعة في ظل وجود نقص كبير في المياه، ولكن بالنسبة لحجم التبادل السلعي تشكل الصادرات الاسرائيلية زراعية كالفاكهة والورود جزءاً كبيراً من جملة مواردها.

ومن ثم لا أرى حقيقة أن القدرة الاسرائيلية السلعية التجارية الآن يمكن لها أن تنافس في الأسواق العربية المنتجات العالمية التي تدخل هذه الأسواق العربية، كما لا أرى أيضاً أن اسرائيل جاهزة لتفتح أبوابها التجارية أمام السلع العربية والاستثمارات والتجارة العربية لأن ذلك سيغير تماماً الشكل الاقتصادي والاجتماعي لاسرائيل.

لذلك أنا أتصور أن ما يسمى بالسوق الشرق الأوسطية هو محاولة اسرائيلية لكي تستفيد من وقف المقاطعة العربية في جانبها الثانوي أساساً، أي وقف مقاطعة الشركات الأميركية التي تتعامل أساساً مع اسرائيل مما يتيح لها فرصة التعامل مع هذه الشركات في علاقات من نوع الاستثمارات المشتركة أو العقود المشتركة في منطقتنا العربية.

أمام ذلك فمن دون شك أن عملية السلام ستفتح الأسوار وسيكون من الصعب سياسياً غلقها أمام اسرائيل، ولكن هناك فرقاً بين أن تفتح الأسوار، وبين أن تقتحم الأسوار فالعلاقات التي طبعت بين مصر واسرائيل سمحت لاسرائيل بالمتاجرة والاستثمار في مصر لكن الفرق شتان بين أن تفتح الأسوار وبين أن تقتحم. ذلك ان المصلحة هي التي ستحكم هذه العلاقات. وهذه المصلحة تقول أنه أمام اسرائيل - في رأيي - على الأقل أعوام خمسة قبل أن تستطيع أن تكيف اقتصادها بما ينسجم مع دور داخل منطقتنا العربية، في حين تنمو أيضاً دولة جديدة حديثة هي دولة فلسطين تستند الى علاقات خاصة مع مصر والأردن، وقريباً الخليج عندما تزول الجفوة، وتعود العلاقات الصافية التي ربطت فلسطين دائماً بالمملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي.

ومن ثم فالتحدي المطروح على فلسطين وعلى جوارها العربي هو تحدي الشكل الجديد الذي تنمو فيه العلاقات الاقتصادية العربية لتخلص واقعاً عربياً جديداً اقتصادياً ذا أبعاد سياسية طويلة الأجل في مواجهة السلام الذي يختلف في كل تفاصيله عن المواجهة في زمان الحرب.

ومن دون أي غيبية أو طوباوية يرى الانسان في تاريخ العالم أنه ليس حتمياً أن من ينتصر في الحرب ينتصر في السلام، والحرب العالمية الثانية تعطينا أمثلة معاكسة، فالذين انهزموا هم الذين انتصروا في المواجهة الاقتصادية، والذين انتصروا لم يستطع جزء كبير منهم تحقيق الانتصار في السلام الاقتصادي الذي حل وليس هذا قدراً، وعلينا أن نكون حريصين بالفعل، وأن نبني سلاماً حقيقياً من دون أن نلغي جذورنا وانتماءاتنا ومصالحنا العربية، وهذا هو الأساس الذي سيقرر ما الذي سيحدث في المستقبل سوق شرق أوسطية

أو سوق غربية الى جانبها ابعاد أخرى بحر أبيضية أو افريقية وأوروبية أو شرق أوسطية. أما بالنسبة لموضوع المياه فمن المرفوض تماماً الادعاءات الاسرائيلية، فالبداية هي في حقوق المياه، وقد اعترفت اسرائيل بضرورة التفاوض حول حقوق المياه في الضفة الغربية وغزة. ولابد من اعادة المسروق من المياه الفلسطينية أثناء الاحتلال. وهذا جزء مهم من تفاوضنا.

لذلك فمقولة اسرائيل بشأن موارد المياه مرفوضة وغير مقبولة اطلاقاً. ولا نستطيع أن ننتظر حتى يرزقنا الله بمياه من تركيا أو من مياه النيل أو بتحلية مياه البحر ذات الكلفة العالية جداً. ولكن أتصور أن هناك بعض الوسائل وعلى رأسها مسألة المحافظة في استخدام المياه بانتقاء المحاصيل ذات الاستخدام القليل نسبياً للمياه من خلال وسائل الري الحديثة، أو بتقليل الاعتماد على الزراعة كمصدر رئيسي للدخل والتركيز على الخدمات والسياحة والصناعة والتقنية المتقدمة. لكن هذا كله لا ينفي ضرورة أن نحصل أولاً على حقوقنا المائية.

في العدد القادم:

■ تكملة ندوة المنبر الثقافي: النزعة القومية، الدولة، الأمة، والدين، حيث سننشر مساهمات السادة:

سامي زبيدة، د. ماريون ـ فاروق سلكليت وديينز سلكليت، ايبرهارد كيتله. ونعتذر للقراء وللسادة المساهمين لتعذر نشرها في هذا العدد لأسباب فنية قاهرة.

بعدما هدأت حماسة الابتهاج والطنين والرنين *

ادوارد سعيد*

« الآن، وبعد أن هدأت حماسة الابتهاج والطنين والرنين أصبح في امكاننا أن نعيد النظر في الاتفاق المبرم بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل بما يقتضيه الأمر من النظرة العقلانية. وما يتبدى لنا من هذا التمحيص أن في الصفقة من الثغرات والنقاط التي لا تميل الى صالح معظم الفلسطينيين، ما يزيد على ما اعتقده البعض في البداية. فالمظاهر المبتذلة لـ عرض الأزياء الذي جرى في حديقة البيت الأبيض (يوم الاثنين 1993/9/13 لتوقيع الاتفاق الفلسطيني الاسرائيلي) ومشهد ياسر عرفات وهو يشكر الجميع على تعليق معظم حقوق شعبه والوقار الصوري لبيل كلينتون في أداء دوره كامبراطور روما في القرن العشرين بسوق ملكين تابعين من ملوك الامبراطورية نحو حظيرة الوفاق والخنوع، كل هذه المباهر لم تؤد الا الى إحداث تعمية مؤقتة عن الأبعاد المذهلة حقاً للاستسلام الفلسطيني.

لنسمّ الاتفاق المذكور أولاً باسمه الحقيقي: أداة للاستسلام الفلسطيني، بتعبير آخر: فيرساي فلسطينية. وما هو أسوأ من ذلك أن منظمة التحرير الفلسطينية كان في وسعها وفي مدى السنوات الخمس عشرة الماضية على الأقل، أن تحصل بالتفاوض على اتفاق أفضل من الاتفاق الراهن الذي لا يتجاوز كونه نسخة معدلة من "مشروع آلون"، وعلى اتفاق لا يتطلب كل هذه التنازلات لاسرائيل من جانب واحد. لكن قيادة المنظمة، لأسباب تعرفها هي أكثر من غيرها، رفضت تلك المفاتحات السابقة جميعها. وأسوق هنا مثالاً واحداً كنت شاهداً فيه: أواخر السبعينات طلب وزير الخارجية الأميركي آنذاك سايروس فانس أن أقنع ياسر عرفات بقبول قرار مجلس الأمن 242 مع تحفظ تضيفه منظمة التحرير الفلسطينية (يكون مقبولاً لدى الولايات المتحدة) وينطوي على اصرار

منظمة التحرير الفلسطينية (يكون مقبولاً لدى الولايات المتحدة) وينطوي على اصرار المنظمة على الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني اضافة إلى حقه في تقرير مصيره. وقال فانس في حينه أن الولايات المتحدة ستعترف في تلك الحال على الفور بالمنظمة وتشرع في ترتيب مفاوضات بينها وبين اسرائيل. ورفض عرفات ذلك العرض رفضاً قاطعاً كما فعل بعروض مماثلة. بعد ذلك وقعت حرب الخليج، وخسرت منظمة التحرير، بسبب موقفها فيها، الذي جرَّ عليها الكوارث، مزيداً من مكانتها، وفي ما عدا مقررات المجلس الوطني الفلسطيني عام 1988 ، فقد تبددت المكاسب التي حققتها الانتفاضة، واليوم يقول دعاة الاتفاق الجديد: لم يكن أمامنا بديل . أما العبارة الصحيحة لطرح ذلك فهي: لم يكن أمامنا بديل لأننا إما ضاعت منّا فرص البدائل العديدة الأخرى أو أضعناها، ولم يبق لنا سوى هذا البديل".

وللمضي قدماً نحو نيل الفلسطينيين حقهم في تقرير المصير - الذي لا معنى له من دون أن تكون الحرية والسيادة والمساواة، لا الخنوع الدائم لاسرائيل، هي أهدافه - نحتاج الى أن نقر باخلاص بموقعنا ووضعنا ونحن على أعتاب المفاوضات الخاصة بالاتفاق الموقت. والمدهش خصوصاً هذا العدد الكبير من الزعماء الفلسطينيين ومفكريهم الذين لا يتوقفون عن وصف الاتفاق الجديد أنه "انتصار" أذ قال نبيل شعث عنه أنه "مساواة تامة" بين الاسرائيليين والفلسطينيين. والواقع، طبعاً، هو أن اسرائيل، كما قال جيمس بيكر وزير الخارجية الأميركي السابق، لم تتخل عن شيء سوى قبولها اللطيف" بأن "منظمة التحرير الفلسطينية هي ممثلة الشعب الفلسطيني". أو، كما قال الحمامة الداعي للسلام الاسرائيلي أموس أوز، في سياق مقابلة مع هيئة الاذاعة البريطانية (بتاريخ 93/9/14)، أن هذا هو ثاني أكبر انتصار في تاريخ الصهيونية .

وفي المقابل، يحمل اعتراف عرفات بحق اسرائيل في الوجود سلسلة طويلة في طياته من التراجعات: تراجع عن نصوص الميثاق الوطني لمنظمة التحرير الفلسطينية، نبذ للعنف و"الارهاب" اهدار لجميع قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية ما عدا القرارين 242 و338 اللذين لا يحويان كلمة واحدة عن الفلسطينيين أو حقوقهم أو تطلعاتهم، وتنحي منظمة التحرير ضمنياً بذلك قرارات دولية أخرى (يبدو الآن أنها تعمل مع اسرائيل والولايات المتحدة على تعديلها أو الغائها) أعطت اللاجئين الفلسطينيين حقوقاً منذ عام 1948 منها إما التعويض لهم أو اعادتهم الى ديارهم. وفاز الفلسطينيون بالعديد من هذه القرارات الدولية بما في ذلك القرارات التي أصدرتها المجموعة الأوروبية ودول حركة عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الاسلامي والجامعة العربية اضافة الى الأمم المتحدة التي لم تسمح باقامة المستوطنات الاسرائيلية في الأراضي العربية أو أنها حظرت اقامتها أو ضم

الأراضي العربي لاسرائيل والجرائم التي ترتكب ضد السكان الخاضعين للاحتلال.

لذا يبدو أن منظمة التحرير الفلسطينية قد وضعت حداً للانتفاضة التي لم تكن تجسد العنف أو الارهاب، بل حق الفلسطينيين في المقاومة، على رغم استمرار اسرائيل في احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة.

والاهتمام الأول في الاتفاق الجديد هو أمن اسرائيل من دون ذكر شيء عن أمن الفلسطينيين حيال الهجمات الاسرائيلية. وكان اسحق رابين رئيس الوزراء الاسرائيلي صريحاً في المؤتمر الصحافي الذي عقده في الثالث عشر من أيلول (سبتمبر) الماضي في حديثه عن استمرار اسرائيل في الاشراف على السيادة، وأضاف ان اسرائيل ستتمسك بنهر الأردن وبالحدود مع الأردن ومصر والبحر والأراضي بين غزة وأريحا وبالقدس وبالمستوطنات والطرق. وليس هناك في الاتفاق المذكور ما ينص على أن اسرائيل ستتخلى عن "عنفها" هي ضد الفلسطينيين أو تعوّض على ضحايا سياساتها في مدى خمس وأربعين سنة، كما طلب من العراق أن يفعل اثر غزوه الكويت.

ولم يسبق لعرفات أو غيره من الفلسطينيين المفاوضين في أوسلو أن شاهد في حياته مستوطنة اسرائيلية وهناك الآن أكثر من مئتي مستوطنة أغلبها في التلال وأكتاف الجبال والمناطق الاستراتيجية الأخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة. وربما انكمش العديد منها وتلاشى بمرور الزمن، لكن المستوطنات الكبيرة منها أقيمت لتبقى. ويصل ما بينها وبين رقعة اسرائيل نظام مستقل من الطرق التي تعطل الاتصال ما بين المراكز السكنية الفلسطينية. وتقدر التخمينات أن مساحة الأرض الفعلية التي تشغلها هذه المستوطنات اضافة الى المساحات المخصصة للمصادرة تزيد على 55 في المئة من مساحة الأراضي المحتلة بمجموعها. ومنطقة القدس الكبرى وحدها التي ضمتها اسرائيل اليها تشمل حيزاً كبيراً جداً من الأراضي المسروقة لا يقل عن 25 في المئة من المساحة الكلية. وفي قطاع غزة تشكل المستوطنات الثلاث في الشمال والمستوطنتان في الوسط والاثنتا عشرة مستوطنة في الجنوب على طول الخط الساحلي من الحدود المصرية مروراً بخان يونس مالا يقل عن 30 في المئة من مساحة القطاع يضاف الى هذا أن اسرائيل تمتص الآبار في الضفة الغربية وتستهلك اليوم حوالي ثمانين في المئة من مياهها لإرواء المستوطنات وأراضي اسرائيل ذاتها. (وربما كانت هناك منشآت مائية مماثلة داخل "المنطقة الأمنية" التي خلقتها اسرائيل في جنوب لبنان). وهكذا نجد أن اتفاق أوسلو إما تجاهل السيطرة على الأرض والموارد الماضية (إن لم يكن سرقتها صراحة) في ما يتعلق بمشكلة المياه، أو أنه أرجأ هذه المسألة في ما يتعلق بمشكلة الأرض.

وما هو أسوأ من ذلك أن المعلومات المتعلقة بالمستوطنات والأرض والمياه كلها في يد

اسرائيل، وهي معلومات أغفلت معظمها عن الفلسطينيين الذين أشركتهم بنسب عالية للغاية في نظام ضرائب مجحف فرضته عليهم على مدى ست وعشرين سنة. وانشأت منظمة التحرير الفلسطينية لجاناً فنية من مختلف الأشكال والألوان في الأراضي المحتلة (بمشاركة فلسطينيين من خارج هذه الأراضي) لكن لا تتوافر سوى دلائل ضئيلة (ان كان هناك من دلائل أصلاً) على استفادة الفلسطينيين المفاوضين في أوسلو من نتائج دراسات تلك اللجان. وبهذا يظل الانطباع بوجود فارق هائل بين ما حصلت اسرائيل عليه وما تنازل عنه الفلسطينيون أو تغاضوا عنه قائماً ويولد الشعور بعدم التكافؤ.

ويخامرني الظن بأن كل فلسطيني شاهد الاحتفال الذي أقيم في البيت الأبيض شعر بأن مئة عام من التضحيات والحرمان والكفاح البطولي لم تثمر شيئاً في نهاية الأمر. وما يزعج المرء أيما ازعاج هو أن رابين ألقى خطبة الفلسطينيين في حين نطق عرفات بكلمات تنمّ بكل معانيها عن أنه توصل إلى "عقد ايجار" لا الى اتفاق سلام فقد ظهر الفلسطينيون أبعد ما يكونون ضحايا للصهيونية، وظهروا لأنفسهم أنهم أمام العالم المتجنّون عليها بالأمس النادمون على فعلتهم هذا اليوم. أما الآلاف الذين قتلهم الاسرائيليون جراء قصفهم مخيمات اللاجئين والمستشفيات والمدارس في لبنان والثمانمئة ألف فلسطيني مبعد منذ عام 1948 (الذين يبلغ عدد أحفادهم ثلاثة ملايين معظمهم لا يحمل جنسية بلد معيّن)، وغزو أراضيهم ومصادرة ممتلكاتهم وتدمير أكثر من أربعمئة قرية فلسطينية واجتياح لبنان، ناهيك عن وحشية الأعمال الاسرائيلية خلال ست وعشرين سنة من الاحتلال العسكري، كل هذا يصبح أعمال "عنف" و"ارهاب" يجب على الفلسطينيين (لا الاسرائيليين) أن ينبذوها كلية. وكانت اسرائيل تصف المقاومة الفلسطينية على الدوام أنها ارهاب و عنف" وبهذا تكون اسرائيل، حتى على صعيد صياغة العبارات في الاتفاق الجديد، تلقت هدية معنوية وتاريخية.

مقابل ماذا؟ لاشك في أن اعتراف اسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية خطوة مهمة الى الأمام. لكن الفلسطينيين، وراء هذا الخط، تخلوا بقبولهم إرجاء البحث في مسألتي الأرض والسيادة الى حين اجراء "المفاوضات الخاصة بالوضع النهائي ، عن مطلبهم الذي أعلنوه من طرفهم والذي يحظى باعتراف دولي وهو السيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة: فقد أصبحت هذه الأراضي "مناطق متنازعاً عليها . وهكذا وهبت اسرائيل، بمساعدة فلسطينية، ميزة أن تطرح مطلباً مساوياً لمطلب الفلسطينيين على الأقل. وفي حسابات اسرائيل ان منظمة التحرير الفلسطينية، بقبولها القيام بمسؤوليات الأمن في قطاع غزة، الذي حاول يبغن أن يعطيه للرئيس السادات قبل خمس عشرة سنة، قد تجد نفسها في صدام مع منافسيها المحليين الذين تشكل حركة حماس جزءاً منهم. يضاف الى هذا

أن الفلسطينيين بدلاً من أن يصبحوا أقوى في هذه الفترة الموقتة فقد يزدادون ضعفاً وأكثر عرضة للضغط الاسرائيلي وبالتالي أقل قدرة على تحدي المطلب الاسرائيلي حين تبدأ المجموعة الأخيرة من المفاوضات. ولكن اتفاق السلام الجديد لا يتطرق عمداً الى هذه القضية مع غياب أي آلية محددة للانتقال من الفترة الموقتة الى مرحلة لاحقة، فهل هذا يعني، لاسمح الله، أن المرحلة الموقتة هي في الواقع المرحلة النهائية أيضاً؟

كان المعلقون الاسرائيليون (أمثال أوزي بنزيمان، صحيفة هاآرتس الاسرائيلية، 9/3/ 1993) يتكهنون أن منظمة التحرير الفلسطينية وحكومة رابين ستجريان في غضون ستة أشهر مفاوضات في شأن اتفاق جديد يرجئ الانتخابات الى فترة أبعد ما يسمح للمنظمة بالاستمرار في الإمساك بزمام الأمور. كما يجدر بالذكر أن ياسر عرفات صرح مرتين على الأقل خلال الصيف الماضي أن خبرته في الحكم لا تتجاوز عشر سنوات حين "سيطر" على الأوضاع في لبنان، وليس في هذا كبير راحة العديد من اللبنانين والفلسطينيين الذين لا يزالون يحملون ذكريات مرة عن تلك الفترة المحزنة. كما ليس هناك سبيل واضح متوافر الآن لاجراء انتخابات حقيقية ولم يؤد فرض الأحكام من الأعلى اضافة الى المخلفات القديمة والمترسخة للاحتلال، في شيء يذكر الى اقامة مؤسسات ديموقراطية ذات قاعدة جماهيرية. وقد ذكرت الصحافة العربية أنباء غير مؤكدة أن منظمة التحرير الفلسطينية عينت بالفعل وزراء من داخل أوساطها الخاصة في تونس ونواباً للوزراء ممن تثق بهم في الضفة الغربية وقطاع غزة (ويذكر أن الدكتور حيدر عبد الشافي رفض عرضاً بتوزيره). هل ستتطور هذه التحركات لتصبح مؤسسات تمثيلية بحق؟ وليس في وسع المرء أن يكون كثير التفاؤل وهو يرى عرفات يرفض في شكل قاطع إن يشاركه أحد في السلطة أو أن يتخلى عن جزء منها، ناهيك عن الأرصدة التي لا يعرف أحد عنها شيئاً سواه وليس في يد أحد سواه.

وتترابط منظمة التحرير واسرائيل على صعيد الأمن الداخلي والتنمية بالنسبة الى الأراضي المحتلة وتجري لقاءات بين أعضاء، أو مستشاري، منظمة التحرير ومسؤولين في جهاز الاستخبارات الاسرائيلي (موساد) منذ تشرين الأول (اكتوبر) من العام الماضي (صحيفة بوسطن غلوب الأميركية ـ 1993/9/17) لبحث المسائل الأمنية بما فيها أمن عرفات شخصياً. وكان هذا يحدث في حين كانت أسوأ أعمال القمع تجري ضد الفلسطينيين الرازحين تحت الاحتلال الاسرائيلي. والغرض من هذا التعاون بالذات إسكات أي رجل أو إمرأة من الفلسطينيين الذين يريدون مثلاً التظاهر ضد الاحتلال المقرر أن يستمر (بعد اتفاق السلام) لأن الاتفاق ينص على اعادة نشر القوات الاسرائيلية لا سحبها. كما أن المستوطنين الاسرائيليين سوف يبقون حيث هم ويعيشون، كما هي

حالهم دوماً، في ظل قوانين مختلفة يتحكم الجيش الاسرائيلي في تطبيقها. وبهذا تصبح منظمة التحرير ذراع اسرائيل في تنفيذ القانون، وليس هذا بالطموح الذي يدخل السرور الى قلوب معظم الفلسطينيين. واللافت، ان (حزب) المؤتمر الوطني الافريقي، حتى بعد فوزه بالاعتراف السياسي به، كان يرفض على الدوام تقديم رجال شرطة من السود الى الحكومة البيضاء حتى المشاركة في السلطة، وذلك كي لا يبدو بالذات الشرطي الذي يحمي مصالح البيض وحكومتهم. وسمعنا قبل أيام أنباء صادرة من عمان أن مئة وسبعين فرداً من عناصر جيش التحرير الفلسطيني، التي تتدرب هناك على أداء مهام الشرطة في غزة، رفضوا الاستمرار في التدريب لهذا السبب بالذات. وهناك أيضاً تناقض مبطن، إن لم نقل تناقضاً صريحاً بالنسبة الى الترتيبات الأمنية الجديدة التي يجري الاعداد لها في حين يقبع في السجون الاسرائيلية حوالي 14000 فلسطيني معتقلين تقول اسرائيل أنها قد تفرج عن بعضهم. فهل سيخصص حيز في هذه الترتيبات الأمنية لمعالجة وضع هؤلاء المعتقلين وحماية الأمن الفلسطيني؟

والمسألة التي يتفق عليها معظم الفلسطينيين هي التنمية، التي يجري الحديث عنها هذه الأيام بأكثر العبارات التي يمكن تصورها من حيث السذاجة والسطحية. فالواقع أعقد منها للغاية" ويتوقع أن يسهم المجتمع الدولي بمبالغ كبيرة لدعم المناطق التي تتمتع بشبه حكم ذاتي، كما يتوقع أن يسهم فلسطينيو الشتات في ذلك، لابل أنهم يعدون العدّة له. لكن سبل التنمية للفلسطينيين يجب أن تمر من خلال "لجنة التعاون الاقتصادي الفلسطينية - الاسرائيلية المشتركة، على رغم أن "الطرفين سيتعاونان في شكل مشترك أو منفرد مع أطراف اقليمية ودولية لدعم هذه الأهداف"، حسب نص الاتفاق الجديد. واسرائيل، بطبيعة الحال، هي القوة المهيمنة اقتصادياً وسياسياً في المنطقة، يضاف الى هذا أن قوتها هذه تترسخ بتحالفها مع الولايات المتحدة. ويعتمد أكثر من ثمانين في المئة من اقتصاد الضفة والقطاع على اسرائيل التي يرجح أن تسيطر على الصادرات والمنتوجات والعمالة الفلسطينية في المستقبل المنظور. وإذا استثنينا المجموعة الصغيرة من رجال الأعمال والمقاولين الفلسطينيين نجد أن الغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني فقيرة ليس لها ارض وتخضع لأهواء المنتجين والتجار الاسرائيليين الذين يستخدمون الفلسطينيين أيدي عاملة رخيصة. ومن شبه المؤكد أن يبقى الفلسطينيون على حالهم الراهنة من حيث الأوضاع الاقتصادية على رغم أن المتوقع الآن أن يعملوا ضمن إطار القطاع الخاص وقطاع الخدمات الذي يشرف الفلسطينيون عليه جزئياً، بما في ذلك المنتجعات ومصانع التجميع الصغيرة والمزارع وما شابه ذلك.

وفي دراسة حديثة أجراها الصحافي الاسرائيلي أشير دافيدي (ميريب - رقم 184

شهير 9 و1993/10) ينقل عن دوف لوتمان رئيس "رابطة المنتجين الاسرائيليين" قوله أن من غير المهم ما إذا كانت هناك دولة فلسطينية أو حكم ذاتي فلسطيني أو دولة فلسطينية أردنية، يجب أن تبقى الحدود بين اسرائيل والمناطق (المحتلة) مفتوحة. لكن اسرائيل بمؤسساتها المتطورة وعلاقاتها الجلية بالولايات المتحدة وتميز اقتصادها بالاندفاع والمغامرة سوف تحتوي المناطق المحتلة اقتصادياً وتبقيها تابعة لها على الدوام. ومن ثم تلتفت اسرائيل الى العالم العربي، مستغلة اتفاقها مع الفلسطينيين والمكاسب السياسية الناجمة عنه كمنطلق الى الأسواق العربية التي ستستغلها أيضاً، بل يحتمل أن تسيطر عليها.

وفي إطار هذا كله تبرز الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة في عالم اليوم التي يستند مفهومها لـ "النظام العالمي الجديد" الى الهيمنة الاقتصادية من قبل بضع شركات كبرى وإفقار العديد ممن هم أقل حجماً (حتى في الدول الحواضر) إذا دعت الضرورة الى ذلك فالمعونة الاقتصادية لفلسطين تشرف عليها الولايات المتحدة وتتحكم فيها ملتفة من حول الأمم المتحدة التي تعتبر بعض وكالاتها مثل "وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين" و"برنامج التنمية العالمي" في وضع أفضل بكثير للاشراف على توزيع المعونات للفلسطينيين. ولنأخذ مثلين من التاريخ الحديث. نيكاراغوا وفيتنام. كلا البلدين عدو سابق للولايات المتحدة، بل إن فيتنام ألحقت الهزيمة بالقوات الأميركية، لكنهما اليوم في حاجة إلى الدعم الاقتصادي من واشنطن التي تفرض مقاطعة مستمرة عليها، كما تعاد كتابة التاريخ بحيث يظهر "الإثم" الذي اقترفته فيتنام بحق الولايات المتحدة رداً على البادرة الأميركية "المثالية" في غزو فيتنام وقصف أراضيها قصفاً ماحقاً. أما في نيكاراغوا فتعرضت حكومة ساندينيستا إلى هجوم متمردي حركة كونترا المدعومة من الولايات المتحدة والتي بثت الألغام في موانئ البلاد وتعرضت نيكاراغوا آنذاك للتجويع والمقاطعة وكل أنماط الأعمال التخريبية. وجلبت انتخابات 1991 السيدة شامورو المدعومة من واشنطن الى سدة السلطة في العاصمة ماناغوا ووعدت الولايات المتحدة بتقديم عشرات الملايين من الدولارات كمعونة الى نيكاراغوا. لكنها لم ترسل سوى ثلاثين مليوناً وحسب، إذ أوقفت المعونات كلها في منتصف الشهر الماضي واليوم تعاني نيكاراغوا ثانية من ويلات الحرب الأهلية والمجاعة. ولم يكن حظ السلفادور وهايتي بأحسن من حظ نيكاراغوا. باختصار، أن المرء حين يلقي بنفسه، كما فعل عرفات، في أحضان "الرحمة" الأميركية، يجد نفسه في شكل شبه مؤكد يواجه المصير ذاته الذي حددته واشنطن لـ "الارهابيين" الذين اضطرت الى التفاهم معهم في العالم الثالث بعد وعدهم بالتوقف عن مقاومتها.

والسيطرة على المقدرات الاقتصادية والاستراتيجية لدول العالم الثالث تمضي جنباً الى

جنب مع السيطرة على وسائل الاعلام التي لا حد لتأثيرها في الأفكار والآراء. وقد رسمت وسائل الاعلام الغربية على مدى السنوات العشرين الماضية صورة لياسر عرفات جعلته يمثل من خلالها أقبح رجال الأرض وأكثرهم مدعاة للاشمئزاز. فكلما ظهر في وسائل الاعلام تلك أو طرح نقاش عنه فيها، لا يشاهده المرء أو يسمعه إلا وهو يتحدث عن الفكرة الوحيدة التي تريده وسائل الاعلام الغربية أن يتبناها: ألا وهي قتل اليهود، ولاسيما منهم النساء والأطفال الأبرياء. وفي غضون أيام قليلة غيّرت "وسائل الاعلام المستقلة" هذه الصورة لعرفات كلياً، وأصبح الآن شخصية مقبولة، بل محبوبة، اسبغت شجاعته وواقعيته على اسرائيل ما تستحقه: لقد تاب عرفات وأصبح "صديقاً" وأصبح هو وشعبه إلى جانبنا "نحن". وكل من عارض افعاله السابقة أو انتقدها كان إما متشدداً، كالمستوطنين المنتمين إلى حزب ليكود، أو إرهابياً كناشطي حركة "حماس" وأصبح من المستحيل تقريباً أن يقول المرء أي شيء ما عدا أن الاتفاق الفلسطيني ـ الاسرائيلي الذي لم يُقرأ أو يمحص في معظمه، وغير واضح في معظمه، ومع افتقاره إلى التفصيلات المهمة ـ هو الخطوة الأولى نحو تحقيق الاستقلال الفلسطيني.

وكما هي الحال بالنسبة الى الاتفاق ذاته، تكمن مشكلة وسائل الاعلام، من منظور الناقد المستقل حقاً والمحلل المستقل حقاً، في أسلوب تحرير النفس من النظام الايديولوجي الذي يبرزه كل من اتفاق السلام و"شبكة أخبار الكيبل" (N.N.C) التلفزيونية. ومن متطلبات ذلك أن يتحلى المرء بالذاكرة الجديدة والتشكك (إن لم يكن الاشتباه الصريح). وهكذا، وحتى لو كان الأمر ظاهراً من باطنه ان حرية الفلسطينيين بأي معنى حقيقي لم يقصد أبداً أن تتحقق في حيز يتجاوز الحدود الضيقة المفروضة من قبل اسرائيل والولايات المتحدة يفترض أن تكون المصافحة الشهيرة (بين عرفات ورابين) التي بثتها شبكات التلفزيون في أنحاء العالم أجمع رمزاً للحظة عظيمة من لحظات النجاح، وطمساً لمعالم الحقائق ماضياً وحاضراً.

ولو تحقق للفلسطينيين جزء ضئيل من الأمانة لتبينوا أن الاتفاق الجديد لا يخدم مصالح الغالبية العظمى من الناس الذين يفترض أن تمثلهم منظمة التحرير الفلسطينية، إلا في شكل صوري سطحي. وصحيح ان سكان الضفة والقطاع مسرورون، وبحق، لانسحاب بعض القوات الاسرائيلية من هناك ولتوقع تدفق أموال كثيرة لانعاش مناطقهم، لكن من انعدام الأمانة صراحة أن لا يتنبهوا الى ما يستجره الاتفاق من التوسع في الاحتلال والسيطرة الاقتصادية وانعدام الأمن على نطاق واسع وعميق. وهناك أيضاً مشكلة الفلسطينيين الذين يعيشون في الأردن، ناهيك عن آلاف اللاجئين منهم الذين يعيشون في المخيمات داخل لبنان وسورية. كما أن الدول العربية "الشقيقة" كان فيها دوماً

قانونان أحدهما للفلسطينيين والآخر لمواطنيها الأصليين. ولقد تصاعدت هذه الممارسات منذ الآن، كما نشهد اليوم من عمليات التأخير والمضايقة على جسر اللنبي منذ الاعلان عن اتفاق السلام الفلسطيني الاسرائيلي. والمفارقة ليست بسيطة حين نسمع أن "البيروقراطية الفلسطينية الجديدة يجري تدريب أفرادها في مصر، التي فيها أكثر البيروقراطيات فتكاً والتي كان سجلها متميزاً بالمرارة في معاملة الفلسطينيين.

إذاً، ما العمل إن لم يكن البكاء يجدي على شيء راح هدراً كما يفعل الفلسطينيون الآن؟ أولا ما على الفلسطينيين القيام به أن لا يبرزوا مزايا اعتراف اسرائيل بهم وقبولهم لدى البيت الأبيض وحسب، بل أو يوضحوا المعوقات الكبيرة حقاً بجلاء. وليضعوا تشاؤم العقل قبل تفاؤل الإرادة. وليس في وسع المرء أن يحسن وضعاً سيئاً يعزى فيه معظمه إلى انعدام الكفاءة الفنية لدى منظمة التحرير الفلسطينية التي فاوضت باللغة الانكليزية التي لا يفقهها عرفات ولا مبعوثه في أوسلو، من دون وجود مستشار قانوني (فقد استقال المفاوضان القانونيان الرئيسيان لمنظمة التحرير الفلسطينية احتجاجاً على ما كان يجري، ولم يبق سوى عرفات وثلاثة أو أربعة من مرؤوسيه في مواجهة طاقم كامل من خبراء وزراء الخارجية الاسرائيلي) الى أن يشرك المرء على مستوى الفنيين على الأقل أشخاصاً يتمتعون بالقدرة على اتخاذ قراراتهم بأنفسهم وليسوا مجرد أدوات لما قد أصبح الآن سلطة فلسطينية منفردة. واني لأشعر بأسى كبير حين أجد هذا العدد العديد من المثقفين العرب والفلسطينيين الذين كانوا قبل أسبوع من توقيع الاتفاق يكون ويتباكون بسبب أساليب عرفات الدكتاتورية، وتحكمه منفرداً بأموال منظمة التحرير، وبطانته من المداحين والأعوان في تونس أخيراً وانعدام المحاسبة وتمحيص المواقف منذ حرب الخليج على الأقل، يستديرون الآن في آرائهم 180 درجة ليعكسوها تماماً ويشرعوا في كيل المديح فجأة لعبقرية عرفات التكتيكية والاشادة بأحدث انتصاراته! **إن المسيرة نحو تقرير المصير لا يمكن أن يقوم بها إلا شعب ذو طموحات وأهداف ديموقراطية، وإلا لما كان الشأن يعادل الجهد المبذول لتحقيقه.**

وعلينا، في أعقاب هذه الغمرة كلها من الابتهاج بـ "الخطوة الأولى نحو إقامة دولة فلسطينية". أن نذكر أنفسنا بأن ما هو أهم بكثير من اقامة دولة فسطينية هو نوع هذه الدولة. وقد شوهت عالمنا في تاريخه الحديث ما بعد عصر الاستعمار النظم الطاغية القائمة على الحزب الواحد، والطغم الجشعة من طبقة النخبة والخراب الاقتصادي ومسخ المجتمعات بسبب "الاستثمارات" الغربية والتجويع الواسع الناطق بخلق المجاعات وإثارة الحروب الأهلية والسرقة المكشوفة. وبقدر عدم صلاحية التشدد الديني لأن يكون الجواب لمشكلات المجتمعات العلمانية الجديدة، كذا لا تصلح الاتجاهات القومية المحض

لذلك أيضاً. وليس إمكان إقامة دولة في فلسطين استثناء لذلك لا سيما في ضوء هذه البداية غير الميمونة حيث يستطيع المرء لسوء الحظ أن يرى نذر تزواج مندفع بين فوضى الحرب الأهلية في لبنان وطغيان عراق صدام حسين.

وللحؤول دون الوصول الى هذه النهاية. علينا معالجة عدد من القضايا المحددة بوضوح. أحداها، طبعاً، مشكلة الشتات الفلسطيني (أو فلسطيني الشتات) العامل الذي أوصل عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى السلطة في الأصل، وأبقاها في سدتها، وهؤلاء الفلسطينيون اليوم أصبحوا منفيين دائمين أو أخذوا وضع اللاجئين. وبما أنه يشكلون نصف مجموع عدد الفلسطينيين فلا يمكن تجاهل حاجاتهم وتطلعاتهم لاسيما حين يسعى الجميع إلى الحصول على دعمهم المادي والسياسي لغزة وأريحا. وتمثل المنظمات السياسية المختلفة التي "تستضيفها" سورية قطاعاً صغيراً من المنفيين الفلسطينيين، ولايزال لعدد مهم من المستقلين (بعضهم، من أمثال شفيق الحوت ومحمود درويش، استقال من منظمة التحرير احتجاجاً على ما يعترض عليه من تصرفاتها) دور فاعل على صعيد العمل الفلسطيني لا بالاشادة أو التنديد من الهوامش والأطراف، بل بالتشجيع على أحداث تغييرات معينة في هيكل منظمة التحرير، والسعي إلى تحويل المشاعر الانتصارية السائدة الآن الى نظرات عقلانية أقرب إلى الواقع وإلى تعبئة المؤيدين وبناء المنظمة من داخل الجاليات الفلسطينية المتعددة في أنحاء العالم لمتابعة الطريق نحو تقرير المصير. وقد تفردت هذه الجاليات منذ بدأت عملية السلام في مدريد بفقدان التأثير والأثر والقيادة والمبالاة.

من أولى المهام على هذا الصعيد إجراء إحصاء عام للفلسطينيين حيثما كانوا. والمدهش أن اسرائيل والولايات المتحدة والدول العربية ـ كل هؤلاء من دون استثناء ـ كانوا على الدوام يعارضون اجراء هذا الاحصاء العام، اذ أن من شأنه أن يبرز وضع الفلسطينيين إلى حجم يفوق الحد اللازم في دول يفترض أن يكونوا مخفيين داخلاً، كما أن من شأنه، قبل حرب الخليج، أن يكشف لمختلف الحكومات الخليجية مدى اعتمادها على جالية من الضيوف كبيرة الحجم الى ابعاد أضخم مما كان يظن جرت العادة على استغلالها. وكان الاعتراض على اجراء ذلك الإحصاء ينطلق في المقام الأول من أن الفلسطينيين لو أحصوا بمجموعهم على رغم التفرق والحرمان، فسيقتربون، لمجرد اجراء الاحصاء، من ظفرهم بكيان الأمة ولا يعودون مجموعة متفرقة من الناس. وفي رأيي أن عملية اجراء هذا الأحصاء، التي ربما تبعتها انتخابات فلسطينية في أنحاء العالم، يجب أن تتصدر جداول الأعمال الفلسطينية في أي مكان فمن شأنها أن تكون تحركاً تاريخياً وتحقيقاً سياسياً للذات خارج نطاق القيود المفروضة على الفلسطينيين في غياب السيادة،

كما أنها تجسد حاجتهم الشاملة للمشاركة الديموقراطية التي حدّت منها اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية حداً كبيراً بتحالفهما السابق كثيراً لآونه.

والمؤكد أن الاحصاء السكاني هذا سيثير مجدداً مسألة عودة الفلسطينيين الذين لم يكونوا من سكان الضفة أو القطاع. وعلى رغم أن هذه المسألة قلصت لتنطوي في طيات قضية "اللاجئين" بعامة التي أرجئ بحثها الى حين اجراء المحادثات الخاصة بالوضع النهائي (للأراضي المحتلة) في وقت ما مستقبلاً، فان الحاجة تقضي الآن باثارتها وطرحها على بساط البحث. وقد أخذت الحكومة اللبنانية، على سبيل المثال، تعلي صوتها الذي يردد آراء الفئات جميعاً في البلاد المعارضة لمنح الجنسية للبنانية للفلسطينيين في لبنان الذي يتراوح عددهم بين 350 و400 ألف فلسطيني لا يحمل معظمهم أي جنسية ويسود بينهم الفقر وقد كتب عليهم أن تتوقف حالهم عند الوضع الراهن في شكل مستديم. والوضع نفسه يتكرر في كل من مصر والأردن (صحيفة كريستيان ساينس مونيتور - 9/28/ 1993). وهؤلاء الذين دفعوا أفدح ثمن يدفعه أي فلسطيني لا يمكن أن يتركوا كي يتعفّنوا وتتعفن معهم قضيتهم ولا لكي يلقى بهم في مكان آخر ضد رغبتهم. هذا في حين تتمتع اسرائيل بـ حق العودة" لأي يهودي في العالم كل يهودي في أي مكان يستطيع أن يصبح مواطناً اسرائيلياً ويعيش في اسرائيل في اي وقت. هذا التفاوت العجيب في الحقوق التي أنكرت على الفلسطينيين لأكثر من نصف قرن يجب ان يزول. ومالا يمكن أن يخطر في بال حتماً أن يرغب جميع اللاجئين الفلسطينيين منذ عام 1948 أو أن يتمكنوا أن يعودوا الى رقعة صغيرة من الأرض كالتي يقترح أن تقام عليها الدولة الفلسطينية، لكن مالا يمكن قبوله من ناحية أخرى أن يطلب منهم أن يقبلوا بـ "اعادة توطينهم" في أماكن أخرى، أو أن يتخلوا عن أي فكرة تتعلق بعودتهم إلى ديارهم أو التعويض لهم.

لذا كان من الأمور التي ينبغي على منظمة التحرير الفلسطينية والفلسطينيين المستقلين أن يفعلوه أن يفتحوا ملف قضية لما يعالجها اتفاق أوسلو استباقاً للمحادثات الخاصة بالوضع النهائي للأراضي المحتلة ألا وهي قضية طلب التعويض للفلسطينيين الذين كانوا ضحية هذا الصراع الرهيب. وعلى رغم رغبة الحكومة الاسرائيلية (التي عبر عنها رابين بصراحة وجلاء في مؤتمره الصحافي الذي عقده في واشنطن) في أن تغلق منظمة التحرير الفلسطينية "ما يدعى بسفاراتها" - حسب تعبيره - يجب أن يبقى عدد معيّن من هذه المكاتب مفتوحاً للمطالبة بالحقوق الفلسطينية كاعادة اللاجئين إلى ديارهم والتعويض لهم ورد حقوقهم وممارسة الضغط لتحقيق ذلك على رغم أن العديد من مكاتب التمثيل الفلسطينية في الخارج يعاني من نقص الأموال والكفاءة والروح المعنوية المثبطة للعاملين هناك.

وخلاصة القول أن علينا أن نسمو فوق الذل الانبطاحي الذي جرى التفاوض على اتفاق أوسلو من حيث الواقع في أجوائه ("سنقبل بأي شيء طالما تعترفون بنا") ونواصل السعي لتحقيق اتفاقات موازية بين اسرائيل وباقي الدول العربية تلبي الطموحات الفلسطينية الوطنية، تفريقاً لها عن الطموحات البلدية الضيقة. لكن هذا لا يستبعد مقاومة الاحتلال الاسرائيلي الذي يستمر الى آجال غير محدودة. فطالما استمر الاحتلال والاستيطان، سواء أضفت منظمة التحرير عليها الشرعية أم لا، يجب أن يجهر الفلسطينيون وغيرهم ضدهما. ومالم تفصح عنه اتفاقات أوسلو أو الرسائل المتبادلة بين منظمة التحرير واسرائيل او الخطب التي القيت في واشنطن هو ما اذا كانت أعمال العنف التي أعلنت المنظمة تخليها عنها تشمل المقاومة السلمية أو العصيان المدني، الخ. وهذا هو الحق الذي لا يمكن إنكاره على أي شعب حرم من سيادته واستقلاله الكاملين، ويجب مساندة هذا الحق.

وقد أخذت منظمة التحرير الفلسطينية، شأنها شأن العديد من الحكومات العربية التي لا تمارس الديمقراطية ولا تحظى بالشعبية في بلادها، تنتحل السلطة لنفسها بوصف معارضيها بالارهابيين والمتشددين. وهذه هي الغوغائية بعينها. وتعارض حركتا حماس و الجهاد الاسلامي" اتفاق أوسلو، لكنهما أعلنتا غير مرة أنهما لن تستخدما وسائل العنف ضد الفصائل الفلسطينية الأخرى. يضاف الى هذا أن خروجهما كلتيهما عن الخط لا يشكل أكثر من ثلث مجموع السكان في الضفة والقطاع. أما بالنسبة إلى الفصائل التي تتخذ من دمشق مقراً لها فهي تعطيني الانطباع الشخصي بأنها اما مشلولة الحركة أو أنها لا تحظى بصدقية في الأوساط الفلسطينية الأخرى (لأسباب واضحة). لكن هذا لا يلغي بأي حال وشكل المعارضة الفلسطينية التي يحلّل معين ربّاني فصائلها المختلفة في مقالة متميزة (ميدل ايست انترناشينال، 1993/9/24) والتي تضم العلمانيين المعروفين الملتزمين بالتوصل الى حل سلمي للصراع الاسرائيلي الفلسطيني والذين ينهجون السبيل الواقعي والديمقراطي. وأنتمي شخصياً إلى هذه الفئة التي أعتقد أنها أكبر حجماً بكثير مما يفترض هذا الأيام.

والنقطة المركزية في فكرة المعارضة هذه هي الحاجة الصارخة الى الاصلاح من داخل المنظمة التي أخطرت الآن أن مطالبتها بـ الوحدة الوطنية" لم تعد صالحة كذريعة لتبرير عدم كفاءتها والفساد المنتشر في صفوفها وانفرادها بالسلطة وللمرة الأولى في التاريخ الفلسطيني لا يمكن قرن هذه المعارضة بالخيانة أو الغدر إلا بمنطق مخادع ومناف للعقل. وفي الواقع أننا ندعو الى معارضة الوطنية الفلسطينية الطائفية والولاء الأعمى للزعامة، ونتمسك بالالتزام بالمبادئ الديمقراطية والاجتماعية العريضة الداعية الى المحاسبة وأداء

المهام الملقاة على عاتق القيادة على الوجه الاكمل، وهما الاطراف الذان سعى دعاة الوطنيةالانتصارية على الدوام الى الغائها. وأظن أن معارضة واسعة القاعدة لتخبط منظمة التحرير وانعدام كفاءتها لسنين طوال ستبرز من أوساط فلسطينيي الشتات، لكنها ستضم أيضاً أشخاصاً وفئات داخل الأراضي المحتلة.

وأخيراً، هناك المسألة المحيرة الخاصة بالعلاقات بين الاسرائيليين والفلسطينيين الذين يؤمنون بحق تقرير المصير لشعبين بالتبادل والتساوي. فشعبانا مشتبكان في الصراع ومشتركان في تاريخ واحد من الاضطهاد الى أعماق أبعد بكثير مما يمكن أن يسمح باقامة الاحتفالات أو المهرجانات الصاخبة على الطريقة الأميركية بهدف لئم الجراح والانطلاق في سبيل جديد نحو الأمام. فلا يزال هناك ضحية ولا يزال هناك جلاّد. لكن يمكن أن يكون هناك تضامن في الكفاح لوضع عدم المساواة وأن يضغط الاسرائيليون على حكومتهم لانهاء الاحتلال ومصادرة الأراضي والممتلكات واقامة المستوطنات. فلم يعد لدى الفلسطينيين الكثير كي يقدموه. وينبغي الآن أن يشترك الطرفان معاً وبجد في خوض المعركة ضد الفقر والظلم والنزعة العسكرية، ومن دون المطالبة التقليدية "المقدسة" يتوافر الأمن النفسي للاسرائيليين الذين ان لم يتوافر لهم الآن لا يمكن أن يتوافر لهم مطلقاً. وهذا، أكثر من أي شيء آخر، هو المحك الحقيقي للمصافحة الرمزية (في حديقة البيت الأبيض). اذا كان يراد لها أن تكون الخطوة الأولى نحو الوفاق والسلام الحقيقي.

• أستاذ الانكليزية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا

• المقالتان عن صحيفة الحياة

تصريح المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي:

حول اتفاق غزة ـ أريحا أولا

جرى التوقيع مؤخرا من قبل ممثلين لـ (م.ت.ف) وحكومة اسرائيل على ما سمّي بخيار قطاع غزه ـ أريحا أولا"، الذي جرى فيه تبادل الاعتراف بين الطرفين، واقامة حكم ذاتي محدود للفلسطينيين على جزء من الارض الفلسطينية المحتلة عام 1967 ، على قاعدة قراري مجلس الامن 242 و 338 ، وتأجيل بحث القضايا المتعلقة بالقدس واللاجئين بالخارج وقضايا اخرى الى موعد لاحق.

وقد استقبل هذا الامر، وما ترشح عنه قبل وقوعه، بشكل متفاوت، من قبل ممثلي المنظمات الفلسطينية المختلفة، سواء منها التي داخل (م.ت.ف)، أو خارجها. وكذلك الحال من قبل ممثلي حركة التحرر الوطني العربية والحكومات العربية، بين مؤيد ومعارض.

لقد وقف حزبنا الشيوعي العراقي دوما الى جانب الحقوق العادلة للشعب العربي الفلسطيني بالعودة وتقرير المصير واقامة دولته الوطنية المستقلة. ودعا باستمرار الى ان يأخذ الشعب الفلسطيني المناضل قضيته بين يديه، ويقرر بنفسه، كيفية الوصول الى تحقيق هذا الهدف المشروع، بدعم من جماهير الامة العربية، وكل القوى الديمقراطية في العالم، وهو ما انعكس في اعتراف اكثر من مائة دولة بـ (م.ت.ف). غير ان صعوبات جدية اعترضت تحقيق مطامح الشعب العربي الفلسطيني، رغم كل ذلك ورغم انتفاضته الباسلة التي قاربت الست سنوات، والتضحيات الغالية التي قدمها.

فلقد تغير ميزان القوى العالمي لصالح اسرائيل وحماتها الاميركان، بانهيار المعسكر الاشتراكي، وتفكك الاتحاد السوفييتي، وتحوله من راعٍ مكافيء للمؤتمر على تابع للسياسة الاميركية بالكامل، على أيدي حكومة يلتسين ـ كوزوريف. وتعمقت الازمة في حركة التحرر الوطني العربية، وتردى الوضع العربي اكثر من أي وقت مضى، جراء غزو الكويت من قبل صدام حسين، وما اتاحه هذا من ذرائع للاميركان وحلفائهم الاطلسيين لتعزيز مواقعهم وهيمنتهم على مقدرات الخليج والمنطقة العربية.

وعانت (م.ت.ف) صعوبات جدية بسبب من موقفها الخاطيء في حرب الخليج الثانية، وانكشاف الكثير من مواقع الخلل في اساليب عملها، والتصرف بماليتها التي تراجعت كثيرا عما كانت عليه قبل حرب الخليج.

ان كل هذه العوامل حملت تأثيراتها السلبية الثقيلة الى مائدة المفاوضات، التي ابتدأت قبل حوالي السنتين في مدريد، وأدت فيما أدت، الى تمكين الاسرائيليين والاميركان من طرح هذا الخيار الذي ينتقص من حقوق الشعب العربي الفلسطيني.

ان تقييم ما توصلت اليه قيادة (م.ت.ف) يعود للشعب العربي الفلسطيني ولمنظماته.

واذا كان لاصدقاء الشعب الفلسطيني، ومناصري قضيته العادلة ان يقولوا كلمة بهذا الخصوص، فهي الاعراب عن التمنيات الصميمية في ان يحافظ الشعب الفلسطيني على وحدته الوطنية، وان يعالج الاشكاليات التي أثارها توقيع الاتفاق بالحوار الجاد المسؤول، وتغليب الاساليب الديمقراطية.

ولذا فان حزبنا يحيي أية اتفاقات بين القوى والمنظمات الفلسطينية المختلفة لاستبعاد العنف في معالجة الموضوع. ويعرب عن الاسف لانفراد (م.ت.ف) في توقيع الاتفاق بمعزل عن الاطراف العربية الاخرى، وخصوصا سوريا، مما اضعف الموقف العربي المشترك، الهادف الى تحرير كل الاراضي العربية المحتلة في حزيران 1967 .

ان المعركة لم تنته، ولربما ستكون اعقد في مراحلها القادمة عما كانت عليه حتى الخلافات التي تريد الاوساط المعادية للشعب الفلسطيني دفعها الى حد الحرب الاهلية.

اننا لعلى ثقة، ان التجارب الغنية والازمات التي جرى تجاوزها في السابق، ستكون معينا لكل المخلصين لقضية شعبهم، لتجاوز هذه المرحلة الخطرة.

والنصر لقضية الشعب الفلسطيني العادلة.

20 أيلول 1993

اليمن. المغرب. الأردن.

الانتخابات والتعددية ونجاحات اليسار

عبد المنعم الأعسم

في فترة متقاربة جرت انتخابات نيابية في كل من اليمن الموحدة والمغرب، أثارت، مع الاستعدادات للانتخابات في الأردن، دائرة واسعة من الاهتمام باعتبارها (استثناءات ديمقراطية) في منطقة تغيب، أو تقمع، فيها أبسط الحريات وممارسات الديمقراطية، وتشهد هيمنة الحكومات الدكتاتورية والعسكرية واليمنية.

وعلى الرغم من النواقص والاعتراضات التي قدمتها الأحزاب السياسية في هذه الدول فإن النتائج أكدت حقائق التحول في الوعي والمزاج الشعبي نحو الديمقراطية، الأمر الذي أحرج الفئات الحاكمة، المعنة في الاستبداد والاستئثار السياسي، في الدول المجاورة بمواجهة مظاهر التعاطف الشعبي المتزايدة مع الديمقراطية وتطور التعاطف الى استعدادات واضحة لخوض معارك من أجل الحريات السياسية والنظام البرلماني التعددي.

واذ سجلت النتائج المعلنة للانتخابات في اليمن والمغرب المكانة التي تحتلها الأحزاب والفئات والبرامج اليسارية والتقدمية فإن الأكثر أهمية في حصيلة تلك النتائج يتمثل في ان فئات سياسية تقليدية ومحافظة ودينية متنورة صارت تتلمس الطريق الى خيار الديمقراطية وصناديق الانتخاب وصارت تتجه الى القطاعات الشعبية لرصد همومها ومطالبها وتشارك في تحريضها على الإسهام في صياغة تقرير السياسة العامة وادارة الدولة. وقد جرى ذلك على خلفية عمليات فرز اجتماعية مديدة انتهت الى عزلة القوى الأكثر يمينية وظلامية ورجعية، فضلاً عن شل النزعة الاستبدادية المناهضة للديمقراطية في هرم السلطة السياسية والنخب الحاكمة.

اليمن الموحدة

جرت الانتخابات النيابية في اليمن تحت تأثير ثلاثة عوامل مركبة هي:

وحدة الشطرين، الشمالي والجنوبي، وطي صفحة معارك الحدود، لتحل محلها صراعات اجتماعية وسياسية تستمد عناوينها من ارث وطبيعة نظامين سياسيين مختلفين، كانا قد احتربا لفترة طويلة.

حلف الحزبين الرئيسيين الحاكمين (مؤتمر الشعب العام. الحزب الاشتراكي) حيث تعرض هذا الحلف الى امتحان ثقيل بسبب ضغط القوى المحافظة والقبلية داخل (المؤتمر) وخارجه لشطب دور الحزب الاشتراكي.

مأزق الفئات الأصولية المتطرفة (الأخوان المسلمين) بتأثير مواقفها السلبية من وحدة البلاد، أو بتأثير تداعيات أزمة الخليج الثانية حيث توترت وانقطعت صلاتها بدول الدعم والتمويل والتأييد السياسي، واضطرار هذه الفئات الى التحالف مع القيادات القبلية التي كانت قد انشقت عن الحكم منذ أن تحالف مع الحزب الاشتراكي.

وكان للحزب الاشتراكي مبرره للإصرار على خوض الانتخابات على أساس اللوائح المستقلة، أولاً، لتكريس تقاليد للمنافسة السياسية حول القضايا والشعارات والبرامج السياسية ، وثانياً، لكي يعرف - ويستثمر- نفوذه السياسي في مواجهة محاولات التحجيم التي تشترك فيها قوى عديدة في سياق تصفية الحساب عن مراحل سابقة للوحدة.

لقد خاضت الانتخابات اليمنية وهي أول انتخابات في دولة الوحدة والكثير من الأحزاب والجماعات السياسية التي استفادت من قانون الأحزاب والدستور الموحد، حيث زادت على الأربعين جماعة غطت كافة الاتجاهات والاجتهادات والميول والتقسيمات المحلية، السياسية والاجتماعية والقبلية والطائفية .. ولكن التنافس الحاسم كان على أشده بين الأحزاب الرئيسية الثلاثة: المؤتمر (الرئيس علي عبد الله صالح) والاشتراكي (نائب الرئيس علي سالم البيض) والتجمع اليمني للاصلاح (شيخ قبائل حاشد عبد الله بن حسين الأحمر).

وفيما وقف كل من الاشتراكي (يسار) والاصلاح (يمين) على طرفي نقيض من الخيارات السياسية والاجتماعية، ومن مضامين الدستور ووجهة التعديلات الموجهة له، ومن

حقوق المرأة، وسياسة التعليم، ومن قضايا مثل حمل السلاح ومصنع البيرة ووحدة الجيش، فقد اتخذ المؤتمر مواقف وسطية بين الحزبين دون أن يدرأ بجدية - وهو يمسك بسلطة الأمن الداخلي- الاعتداءات والاغتيالات والدعوات الهسيتيرية للانتقام من الحزب الاشتراكي. وكادت تلك الحملة أن تؤدي الى حرب أهلية أقل نتائجها تدمير الوحدة الفتية، لولا اعتصام قيادة الاشتراكي بخيار الحوار وضبط النفس والالتصاق بالجماهير وتصبيرها بالحقائق.

وكان يوم السابع والعشرين من نيسان الماضي موعداً مع الانتخابات، حيث توجه مليون ومئتي الف مواطن أمكن تسجيلهم (نسبة المشاركة أكثر من ٨٠٪) الى صناديق الاقتراع لانتخاب (٣٠١) نائب يتنافس على مقاعدهم مايزيد على (٢٥٠٠) مرشح ينتسب الى غالبية الأحزاب السياسية، فضلاً عن عشرات من المستقلين .. وكانت النتائج على الوجه التالي:

- مؤتمر الشعب العام (١٢١) + (١٢) من المستقلين انضموا الى كتلته.
- الحزب الاشتراكي (٥٨) + (١٦) من المستقلين انضموا الى كتلته.
- تجمع الاصلاح (٦٢) + (٧) من المستقلين انضموا الى كتلته.
- المستقلون (٤٤).
- حزب البعث (موالي لبغداد) (٧).
- حزب الحق (٢).
- الوحدوي الناصري (١).
- التصحيح الناصري (١) .
- الناصري الديمقراطي (١).
- دوائر لم تعلن (٢).

ومما له مغزى في النتائج المعلنة، ان أكثر من (٩٠) بالمائة من مقاعد الاشتراكي جاءت من جنوب اليمن حيث كان حاكماً، وقد شكا الحزب من أعمال تزوير وتضييقات عديدة حدثت في شمال البلاد من قبل متنفذين في المؤتمر ومشايخ وجماعات قبلية مسلحة، حالت دون فوز الكثير من مرشحيه في تلك المناطق. كما ان سقوط زعيم الاخوان المسلمين عبد الوهاب الانسي (عن التجمع) اعتبر ضربة لسمعة التيار الأصولي المتشدد، فيما أثارت هزيمة الكاتب والسياسي عمر الجاوي الذي يتزعم «التجمع الوحدوي» استغراب

الكثير من المراقبين بالنظر للمكانة التي كان يتمتع بها ولمواقفه المستقلة ودفاعه المتواصل ومنذ سنوات طويلة عن الديمقراطية، ووحدة الشطرين، وقد ألقى الجاوي اللوم على أوساط بالحزب الاشتراكي.

لقد مهّدت نتائج الانتخابات للحزب الاشتراكي ان يعود الى رئاسة الحكومة، وفي ذلك حافظ على مكانته مستنداً الى وزنه في البرلمان باعتباره القوة الثانية بعد المؤتمر.

المغرب

قبل أن تجري الانتخابات النيابية في المغرب في الخامس والعشرين من حزيران الماضي كانت الساحة السياسية تمور بالمشاكل والخلافات فوق مخاوف من أن تتدهور الأوضاع الى حافة الضياع متأثرة بالأحداث الجزائرية وبالصراع الذي تخوضه الأصولية المتطرفة في تونس ومصر، امتداداً حتى السودان.

وكانت الجماعات والأحزاب اليسارية والديمقراطية تخوض الصراع على مستويين، الأول ضد قمة السلطة(الملك وكبار موظفي الادارة)، والثاني ضد النزعة الأصولية المتشددة المدمرة، وقد نجحت في جزء من المعركة السياسية بتكوين اصطفاف شعبي واسع لفرض «تحسين» الدستور وفرص التعبير عن المواقف السياسية، من جهة، وجر أوساط من القوى الأصولية الى اللعبة الانتخابية وعزل الفئات الأكثر تطرفاً من جهة أخرى.

لقد قضت التعديلات الجديدة الدستور بمنح رئيس الحكومة صلاحيات أوسع كانت بحوزة الملك، كما سحبت صلاحية تقرير مصائر الحكومة من الملك ووضعت في عهدة البرلمان الذي وسعت صلاحياته التشريعية، غير ان هذه التعديلات لم تكن لترضي جميع الفئات السياسية التي انشقت في الموقف من الاستفتاء على الدستور بين مؤيد وبين مقاطع له، فوقف حزب التقدم والاشتراكية (شيوعيين) الى جانب التصويت والدستور فيما دعت أحزاب الاتحاد الاشتراكي والاستقلال والاتحاد الوطني للقوات الشعبية ومنظمة العمل الديمقراطي الى المقاطعة.

ولكن الاستفتاء الذي جرى في ايلول من العام الماضي سجل نتائج كانت موضع جدل واسع حيث أيد الدستور (١١,٤) مليون من أصل (١١,٨) مليون مسجلين في قوائم

المقترعين الأمر الذي أثار اعتراض الأحزاب المقاطعة التي طعنت بنزاهة المشرفين على الاستفتاء، وأخذوا على أرقام النتائج انها «لم تأخذ بعين الاعتبار حتى عدد أعضاء ،مناضلي الأحزاب والنقابات والجمعيات التي أعلنت عدم المشاركة كما جاء في بيان لحزب الاستقلال.

لقد شارك في الانتخابات النيابية (١٠)أحزاب سياسية توزعت على ثلاثة محاور واتجاهات سياسية.

- أحزاب مايسمى بـ «الوفاق الوطني» اليمينية وهي الاتحاد الدستوري (المعطي بوعبيد) والحركة الشعبية (مهند العنصر) والحزب الوطني الديمقراطي (ارسلان الجديري) وكانت تسيطر في السابق على مجلس النواب.

- أحزاب الكتلة الديمقراطية المعارضة وهي : الاتحاد الاشتراكي والاستقلال وحزب التقدم والاشتراكية (الشيوعيون) ومنظمةالعمل الديمقراطي.

- قوى الوسط الملتفة حول حزب التجمع الوطني للأحرار

وشهدت النتائج تراجعاً في نفوذ أحزاب الوفاق اليمنية في البرلمان لصالح القوى اليسارية .. وسجلت النتائج التالية:

- الاتحاد الاشتراكي (٤٨) مقعداً مقابل (٣٤) سابقاً.
- حزب الاستقلال (٤٣) مقعداً مقابل (٢٣) سابقاً.
- حزب التقدم والاشتراكية (٦) مقاعد مقابل (٢) سابقاً.
- منظمة العمل الديمقراطي (٢) مقابل مقعداً واحداً سابقاً.
- أحزاب الوفاق (٨٨) مقعداً مقابل (١٠١) سابقاً.
- أحزاب التجمع (٣٨) مقعداً مقابل (٢٨) سابقاً.
- الحركة الوطنية الشعبية (١٤) مقعداً ، لأول مرة.
- الشورى والاستقلال (٣) مقاعد.
- المستقلون مقعدان.

لقد تنافس في هذه الانتخابات (٢٠٤٢) مرشحاً لاحتلال (٢٢٢) مقعداً نيابياً، وسط اعلانات متكررة للملك الحسن بأنه سيكون حيادياً بين الجميع فيما برزت خلال الحملة

الانتخابية دعوات جدية لانهاء تدخل الملكية في شؤون ادارة الدولة عن طريق تحو يلها الى سلطة معنوية.

الاردن

قبل عام صدر في الأردن قانون للأحزاب قضى باختيار التعددية السياسية لأول مرة في البلاد منذ أكثرمن ثلاثة عقود من تحريم وتجريم، نشاط الأحزاب باستثناء الأخوان المسلمين. وقد أجيز على ضوء القانون حتى من الآن عشرن حزباً سياسياً لليساريين والشيوعيين والقوميين والتيارات الدينية والمحلية والملكية والمحافظة.

ومنذ أن أقدم الملك حسين على حل البرلمان في الشهرالماضي اتخذت المناقشات المحلية طابع الجدة والمعارضة، ذلك لأن الهدف من حل البرلمان قبل الشروع في التهيئة للانتخابات من شأنه ان يمرر التشريعات الملكيةالى التنفيذ من دون معارضة النواب الذين عُرف أن غالبيتهم ضد تعديل قانون الانتخابات، وهو الذي صدر في وقت لاحق وأثار اعتراضات واسعة، وبخاصة من التيارات الاسلامية لاعتماده طريقة «الصوت الواحد للناخب الواحد» مما يحرم الفئات السياسية من فرص التحالف مع سواها رغم ان التعديل أبقى على الدوائر الانتخابية على حالها.

وبالرغم من ذلك دخلت الساحة السياسية أجواء الانتخابات بعد أن سحب التيار الاسلامي تهديداته بالمقاطعة، وأصبح واضحاً ان الحملة السياسية ستتأثر بالمعطيات التالية:

- اثار حرب الخليج الثانية حيث انحازت فئات سياسية عديدة الى جانب نظام صدام حسين وتحملت الاردن من جراء الأزمة الكثير من الاستحقاقات، وحيث أعاد الملك وعدد من الجماعات السياسية تقويم المواقف على ضوء تلك الاستحقاقات.

- المفاوضات العربية الاسرائيلية، حيث انسحبت الخلافات الاسرائيلية على الساحة الاردنية وأخذت تلك الخلافات تتجاذب الوسط الفلسطيني في الاردن.

- اعمال التضييق الحكومية ضد التيار الاسلامي المتطرف الذي أدين بـ «التآمر» على النظام وسدت أمامه الكثير من منافذ النشاط السياسي.

ويجمع المراقبون للوضع السياسي في الأردن على أهمية الانتخابات النيابية القادمة وكذلك انتخابات (البلديات والنقابات والتجمعات)، ذلك لأن الانتخابات السابقة (قبل أربع سنوات) لم تجر في ظل الحياة الحزبية القانونية، الأمر الذي أبقى تقدير نفوذ الجماعات السياسية بمثابة فرضيات بالنظر لأن فئات كثيرة لم تأخذ فرصة التبشير لأفكارها، كما ان التقييدات القانونية أخلت بالمعايير التمثيلية وبمبادئ تمثُّل وصياغة مصالح القطاعات الاجتماعية العريضة والدعاية للأفكار والاجتهادات غير المرخص لها.

وتتوزع خارطة الأحزاب الأردنية التي تعد نفسها لخوض الانتخابات على ستة محاور:

- التيار اليساري، ويتمثل فيه بالحزب الشيوعي الاردني (يعقوب زيادين) والحزب الديمقراطي الاشتراكي ·عيسى مدانات) وحزب الحرية (فواز الزعبي).

- التيار القومي، ويمثله حزب البعث بجناحيه (محمود العايطة وتيسير الحمصي)، والحزب العربي الديمقراطي (مؤنس الرزاز) وأحزاب قومية صغيرة تحاول التجمع في حزب واحد أو لائحة واحدة.

- التيار الاسلامي، ويضم فئات الأخوان المسلمين التي تتخذ أسماء أخرى مثل جبهة العمل الاسلامي (اسحاق الفرحان) والحركة العربية الاسلامية الديمقراطية (يوسف أبو بكر).

- التيار الوسط، وأقوى أحزابه هو المستقبل (سليمان عرار) والتقدم والعدالة (علي فريد السعد) والوحدوي العربي الديمقراطي (أنيس معشر).

- التيار الملكي المحافظ، ويضم حزب العهد (عبد الهادي المجالي) والتجمع الوطني الاردني (محجم الخريشة) وحزب الوطن (عاطف الفايز).

- التيار الفلسطيني ويضم حزب الوحدة الشعبية الديمقراطية (عزمي الخواجة) القريب من الجبهة الشعبية، وحزب الشعب الديمقراطي (بسام حدادين) وهو قريب من الجبهة الديمقراطية، والحزب التقدمي الديمقراطي (علي عامر) وهو قريب من جناح ياسر عبد ربه.

أيلول 1993



ندوة لمجلس السلم العالمي

في سبيل نظام عالمي سلمي عادل

د. محمد عبد اللطيف مطلب

عقد مجلس السلم العالمي ندوة في بازل (سويسرة) في ٣-٦ حزيران الماضي تحت شعار «في سبيل نظام عالمي سلمي عادل» حضره ٢١٨ مندوباً من حركات السلم في العالم يمثلون ٤٩ قطراً ومنظمة عالمية.

قدّم رئيس مجلس السلم ايفانجيلوس ماهيراس (اليونان) في كلمته الافتتاحية عرضاً للوضع العالمي، فأشار الى النزاعات الجديدة التي شبت في الكثير من بقاع العالم، والتغيرات اتي حصلت في التوازن العسكري؛ وقدم اقتراحات بشأن العمل المقبل لحركة السلم، لخصها في النقاط التالية:

١ - أولوية حلّ النزاعات في جميع الأقاليم.

٢ - مواصلة الكفاح من أجل ازالة الأسلحة النووية وأسلحة الابادة الجماعية، والامتناع عن اجراء التجارب النووية بصورة قاطعة.

٣ - حلّ جميع التكتلات العسكرية، والغاء القواعد العسكرية الأجنبية في جميع البلدان، وسحب جميع القوات والمعدات العسكرية منها.

٤ - تخفيض المصروفات العسكرية، واستخدام الأموال المتوفرة من ذلك في انشاء صندوق للتطور باسم «العالم الثالث».

٥ - تحويل هيئة الأمم الى منظمة ديمقراطية.

٦ - حماية البيئة

٧ - الدفاع عن حقوق الانسان

٨ - مقاومة النازية والفاشية الجديدة والعرقية والعسكرية و«النظام العالمي الجديد» الأمريكي.

رغم تغير الظروف في بلدان الكتلة الشرقية، وتعقدها بالنسبة لحركة السلم، وعدم استطاعة مندوبي حركة السلم في بولونيا والجيك والمجر ودول البلطيق السفر الى بازل لحضور الندوة، رغم كل ذلك كان اللقاء مع مندوبي حركة السلم الآتين من البانيا ورومانيا وسلوفاكيا وبلغاريا وبعض الدول التي كانت تؤلف الاتحاد السوفييتي مشجعاً. غير ان استمرار حركة السلم في العمل العالمي بهذا النوع والمستوى سوف لا يكون في المستقبل أمراً هيّناً. ولكن هذا الحال سوف لا يزعزع القناعة الراسخة بأن الطريق الذي سارت عليه حركة السلم العالمية هو الذي يوصل الى ماتصبو اليه البشرية من خير وسلم.

بعد الجلسة الافتتاحية العامة توزع المشتركون في الندوة الى اللجان التالية التي تعالج كل واحدة منها قضية تتعلق بالسلم العالمي: ١) نزع السلاح؛ ٢) حل النزاعات بالطرق السلمية؛ ٣) اتجاهات التطور؛ ٤) حماية البيئة؛ ٥) حقوق الانسان. وقد عقدت أيضاً اجتماعات خاصة مثل : ١) الحوار العربي - الأوربي؛ ٢) التربية بروح السلام في المدارس؛ ٣) مؤتمر النساء لعام ١٩٩٥؛ ٤) قضايا تحويل الأسلحة الى أدوات سلمية. كما عقدت اجتماعات اقليمية مثل: ١) الدول الأوربية؛ ٢) الأقطار الآسيوية؛ ٣) العرب؛ ٤) افريقيا؛ ٥) امريكا اللاتينية.

رغم المناقشات التي احتدت في بعض الحلقات، كان جميع المندوبين متفقين على ان السلم لا يمكن تحقيقه مادامت الدول العظمى تستخدم قواتها المسلّحة في جميع أنحاء العالم لفرض مصالحها الأنانية باستخدام هيئة الأمم المتحدة ستاراً لما يسمى بـ «التدخل الانساني»، كما يحصل الآن في الصومال مثلاً. ففي الوقت الراهن يجب تحويل هيئة الأمم الى منظمة دميقراطية، وحلّ النزاعات بالحيلولة دون استفحالها، وعدم استخدام السلاح في حلّها، والتقليل من امكانية شن الحروب، بنزع السلاح نزعاً حقيقياً.

لقد تبين خلال النقاشات ان الأسلحة النووية مازالت الوسيلة الرئيسية بيد الدول العظمى للسيطرة على «بقية العالم»، وان الأخطار المرتبطة بذلك لا يمكن درؤها الا حينما تستطيع الشعوب منع تطوير أسلحة الابادة الجماعية هذه بايقاف اجراء التجارب النووية، وتوسيع رقعة المناطق منزوعة السلاح النووي، ودفع الدول الكبرى لنزع السلاح. والذكرى الخمسينية لالقاء القنبلة الذرية على هيروشيما، التي ستحل عام ١٩٩٥، ينبغي ان تكون مناسبة وحافزاً لتنظيم نشاط واسع لبلوغ تلك الأهداف.

ان من يريد اعاقة نشوب حروب جديدة يجب ان يكافح ضد تجارة الأسلحة.

فالولايات المتحدة الأميركية تصدر ٥٠٪ من أسلحتها الى دول العالم الثالث، وبهذا تعمل على تكديس الوسائل التي تستخدم في نزاعات مسلحة جديدة.

لقد اتضحت أهمية التضامن مع الشعوب التي تعاني من الحرب أو الحصار أو التهديد بهما، بسبب مقاومتها فرض هيمنة الدول القوية عليها واستغلالها. وهذا ينطبق على الشعب العربي الفلسطيني، والأكثرية السوداء في جنوب افريقيا، والشعب الكوبي، والشعب الكردي، والشعب العراقي الذي يعاني من حصار لا انساني ذهب ضحيته الألوف من الأطفال والمرضى وكبار السن بسبب نقص الأغذية والأدوية. لهذا يدعو مجلس السلم الى تقوية التضامن مع هذه الشعوب.

وقد اجتمع الرأي على وجوب تحويل هيئة الأمم الى منظمة ديمقراطية كخطوة نحو عالم مسالم. فبالديمقراطية تستطيع هيئة الأمم ان تبقى أمينة على أهدافها المدونة في ميثاقها، ومنع المحاولات الخبيثة لتحويلها الى أداة بيد الولايات المتحدة الأميركية تستخدمها لفرض مآربها وهيمنتها على العالم.

رغم جميع الأخطار التي تهدد السلام العالمي أجمع كل المندوبين على إمكانية فرض السلام اذا تمكنت العشوب من تحقيق التضامن مع بعضها، وتمتع جميع الناس بحقوقهم الانسانية. فان الشعوب أقوى من أولئك الذين يسعون لاستعبادها!

مما ترك أثراً كبيراً لدى المشتركين في الندوة ظهور الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلّه في الاجتماع. وقد تكلم هنا داعياً الى عمل عالمي لرفع الحصار المفروض على بعض الأقطار مثل كوبا والعراق وليبيا، وأعلن عن تأليف لجنة عربية - أوروبية لتنظيم العمل لهذا الغرض؛ وقال ان الشعب العراقي لم يؤخذ رأيه في حرب الخليج. ثم أشار الى تبذير الطاقة والموارد الطبيعية من جانب الدول الصناعية الغنية في الغرب، وانتشار التفكير الاستهلاكي في مجتمعاتها، بينما يسود الفقر والجور في دول العالم الثالث. وقال ان الأفكار الاشتراكية لم تمت في أذهان الملايين، أما الرأسمالية الليبرالية فلم تأتِ في البلدان التي انهارت بها الاشتراكية الا بالخراب الاقتصادي، وانتعاش التعصب القومي، وانتشار المخدرات والجرائم والدعارة؛ وان السلام الذي أراده الرئيس الأمريكي السابق هو سلام المقابر!

وتكلم نيتو (البرازيل) عن عواقب الوحدة الألمانية مشيراً الى ان المانيا الغربية الرأسمالية قد ابتلعت المانيا الشرقية الاشتراكية فدمرت كل فروع صناعتها التي تزاحم

الصناعة الغربية، ورمت الملايين من عمالها الى أحضان البطالة، وضايقت حركة السلام بتجميد أموالها.

وتحدث روميش جاندرا الرئيس السابق لمجلس السلم العالمي عن هيئة الأمم، اذ تستخدمها الآن اميركا في سبيل أغراضها الأنانية. وقال ان كفاحنا يجب أن لا يتجه ضد هيئة الأمم نفسها، إنما ضد استخدامها لأغراض أنانية.

الحوار العربي - الأوروبي

بينت النقاشات في هذا المجال ان مفهوم «الحوار العرب - الأوروبي» ليس خالياً من المشاكل. فأولاً تطفو على السطح مسألة المقصود بـ «اوربا». فما يسمى بـ «المجموعة الأوربية» لا يمكن أخذه الا بتحفظ، سواء في اوربا أو في العالم العربي. والأقطار العربية من الجهة الأخرى ليست متقاربة من بعضها بحيث يمكن اعتبارها عاملاً موحداً في القضايا السياسية الفعلية. لهذا أكد أحد المتحدثين السوريين على العلاقات الثنائية المختلفة بين الدول العربية والأوربية انفرادياً. اضافة الى ذلك تستدعي الأهمية المركزية للقضية الفلسطينية مساهمة اسرائيل بالأساس، بحيث يجري الحوار في اطار الشرق الأدنى. ومن الجهة الأخرى تؤلف البلدان العربية، بلغتها وتاريخها المشترك.. اقليماً ثقافياً جابه اوربا مجابهة عنيفة منذ الفتوحات العربية - الاسلامية في القرن الثامن، وازدادت حدة خلال الحروب الصليبية. ومن هذه التفاعلات التاريخية تولدت عبر القرون صور عدائية حادة فعالة، كما حصلت في نفس الوقت ملاقاة سلمية أغنت الثقافة الانسانية.

أشار أحد اللاجئين العراقيين الى ان حقوق الانسان يجب أن تكون جزءاً أساسياً من الحوار؛ واعتبر ان من الصحيح أن يكون الحوار عربياً - أوربياً، لااسلامياً -مسيحياً وتناول متكلمون آخرون مسألة الأصولية الاسلامية التي تخيف اوربا؛ وحاولوا تفسير هذه الظاهرة بالظروف الاجتماعية المتردية، وانتقاد الكثير من الحكومات العربية لحق البقاء في السلطة؛ وذهبوا الى ان الحركات الأصولية تعبير عن الاحتجاج الاجتماعي الأعمى، اذ المشكلة لم تنشأ بدوافع دينية، انما بتلاعبات بعض الجماعات السياسية، أو بتأثير دول أجنبية.



ندوة ثقافية

علي الوردي وسوسيولوجيا المجتمع العراقي.

بين مبدأ النسبية والنزعة التاريخية وعلم النفس الفردي والاجتماعي

نظمت رابطة المثقفين العراقيين ندوة ثقافية في لندن حول اعمال الباحث العراقي الكبير علي الوردي، وبخاصة عمله الأساسي: لمحات اجتماعية من تاريخ المجتمع العراقي ، شارك فيها كل من الكتاب فالح عبد الجبار، احمد المهنا، والطبيب النفساني ماجد الياسري، ادار الندوة الشاعر شريف الربيعي واعقبها نقاش حيوي شارك فيه عدد من المثقفين الحاضرين.

قدّم المساهمون نبذة موجزة عن الابحاث التي اعدوها بهذه المناسبة.

تناولت مساهمة عبد الحليم الرهيمي المصادر الاكاديمية لسوسيولوجيا الوردي من جانب، وركزت بالاساس، من جانب آخر، على مدى تضارب وتوافق النزعة التاريخية والنزعة السوسيولوجية في كتاب "لمحات اجتماعية...".

وبأتخاذ هذا التضاد قضية محورية للبحث، اثار الرهيمي في الواقع قضية تداخل وتمايز فروع البحث العلمي التي شغل مؤسسي علم الاجتماع (السوسيولوجيا) الوليد، اواخر القرن الماضي، ويرى الرهيمي ان النزعة التاريخية غلبت على عمل الوردي، دون ان يعني ذلك اي تقليل من اهمية هذا السفر.

الواقع ان ملاحظات الرهيمي تثير مجدداً قضية التداخل القديم بين علم التاريخ وعلم

السوسيولوجيا، وصعوبة الفكاك بينهما.

واثارت دراسة فالح عبد الجبار بعض قضايا المنهج عند الوردي، فلاحظ ان منهجه المعرفي (الابستيمولوجي) يعتمد مبدأ نسبية المعرفة (أوجه الهرم المتعددة للحقيقة الواحدة كما عند مانهايم)، وان منهجه تاريخي - ارتقائي - ثنوي يعتمد على مفهوم ثنوية الحضارة - البداوة الخلدونية ويعيد انتاجها سوسيولوجياً، بما تعنيه من تضادات او تناشزات اجتماعية وسيكولوجية. ان هذه التناشزات ليست سوى تعبير عن حالات التغير والاستجابة بما تنطوي عليه من استمرار وانقطاع.

وتناول احمد المهنا معالجة او نظرة الوردي الى ثورة العشرين، ومدى تباينها مع التفسيرات النمطية، التي تضفي على احداث الثورة اما طابعاً قومياً متجانساً، او طابعاً طبقياً متجانساً.

ان تناول الوردي لتفاصيل الثورة وتدقيقه في شهادات المعاصرين بصرامة، واعتماده مبدأ تعدد الشهادات ازاء الواقعة الواحدة جعله يخلص الى تعليل لثورة العشرين متباين مع التفسيرات المقبولة، او الشائعة، الرسمية او غير الرسمية. من هنا السخط الذي تعرض اليه الوردي الذي صدم اوهام العراقيين عن ماضيهم.

اخيراً تناول د. ماجد الياسْري تحديد الوردي للسمات السيكولوجية للشخصية العراقية كشخصية تختزن تناقضات عديدة وعميقة بفعل عوامل التغير العاصفة والحالة التي مرّ بها المجتمع العراقي، والعنف الذي ميز هذه التحولات على الصعيدين السياسي والاجتماعي. وكان المنظور التاريخي خلفية الحدث الذي أفرز تكويناً سايكولوجياً ووعيا جمعياً تجسد في مرحلة ما قبل ثورة العشرين بغلبة عقلية البداوة والوعي القبلي كأنعكاس لواقع اجتماعي محدد في فترة مظلمة تميزت بالكوارث والحروب والتي عكسها الوردي في تحليله لمجتمعنا العراقي.


أدب وفن

الى مثقفينا العراقيين أدباء وفنانين وعلماء وباحثين وصحافيين

نتوجه اليكم يا ممثلي ثقافة شعبنا الوطنية بالتحية الحارة، معبرين عن تقديرنا العميق لمواهبكم وجهدكم الابداعي والفكري وسائر نشاطكم الثقافي، ولدوركم الذي لا يُعوض في تطوير مجتمعنا والارتقاء به.

نتوجه الى جمهرتكم في بغداد وكل أرجاء الوطن العزيز، يا من تقاسمون الملايين محنتها ومعاناتها في ظل الدكتاتورية المستهترة والحصار الخانق، مكبرين فيكم تواصلكم مع شعبنا المعذب ووفاءكم لقضيته العادلة.

نتوجه الى جمهرتكم يا من حققتم وجسدتم النهوض الثقافي الجديد في كردستان، وخضتم مع قوى المجتمع الحية على الدوام معاركها المشهودة ضد العسف السياسي والاضطهاد القومي، مشيدين بجهودكم لحماية التجربة الديمقراطية الوليدة في كردستان ودفعها الى الأمام، وتعميق العملية الثقافية وتطويرها.

نتوجه الى جمهرتكم المشردة في الشتات، يا من عجزت حياة المنفى القاسة المديدة عن هز تعلقكم بالعراق الشعب والوطن، معربين عن اعتزازنا بسعيكم الذي لا يكل دفاعاً عن ثقافتنا واغناءً لها، وانتصاراً لأهلنا المستنزفين في الصراع اليومي لتأمين لقمة الخبز والمتلهفين الى الانعتاق من البؤس والظلم والظلام.

إن شعبنا الذي ينوء تحت ثقل سياسات التجويع والاذلال والترويع، يتطلع الى سماع صوتكم أعلى وأعلى في مناصرته وإسناد سعيه لتقريب ساعة الخلاص، والانغمار في بناء الوطن الديمقراطي الجديد. واننا في هذا السياق كذلك نهيب بالمنتشرين منكم في المهاجر أن يستجمعوا قدراتهم، ويقيموا ويستهلوا عملهم الثقافي والسياسي المستقل ويحولوه أداة ضاربة في نهوض شعبنا ضد سلطة الجلادين واللصوص، مؤكدين بحرية الابداع والمبدعين والفكر والمفكرين واستعدادنا الكامل للتعاون وتقديم كل الدعم الممكن.

ويداً بيد على طريق الحرية والخير والجمال.

المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي
شقلاوة 12 ـ 25 تشرين الأول 1993

شاعر التفاصيل اليومية وتناقضاتها الحادة



جمال حيدر

في ليلة خريفية شابها البرد والصمت، تنحى الشاعر أليوناني الكبير يانيس ريتسوس عن دوران الأيام اللاهث. وانطوت بموته الصفحة الأخيرة من ثالوث الشعر اليوناني المعاصر: اليتيس، سيفيرس وريتسوس.

ريتسوس... شاعر التفاصيل اليومية وتناقضاتها الحادة، لون خلال مسيرته الابداعية التي تجاوزت (٥٦) عاماً، مداه الاغريقي والمتوسطي بافاق شعرية توشجت مع هموم الشرق بأوثق الأواصر وأقواها. ريتسوس المبدع الشفاف جمع بين كفيه لعبة الزمن وبعثرها بين المنافي والمعتقلات والسجون والمصحات التي منحت عالمه مزيداً من المعرفة، وكماً غريباً من الادراك والصبر والمناعة، صانعاً من الشعر لوحات تستمد ابعادها من شهيق وهمسات وزمن مطلق دون حدود.... دون قرار.

يحاور ريتسوس، القابض بكلتا يديه على ريح عاصفة، التاريخ الممتد في وجدان الانسانية وآمالها المشروعة، وارثاً لتنوع تاريخي عريق يمتد في مساحات زمنية مترامية الأبعاد بين الأساطير القديمة والتراث الهيلليني، وبين التأمل الوجودي لفلسفة الحياة وخيالها الجامح.

تكمن وراء بساطة عوالم ريتسوس وموجوداته الشعرية حقيقة تتبلور في الذهن المسكون بالألم الانساني مما يجعلنا نتعامل مع نتاجاته الشعرية بعفوية، ولكننا نظل

* المادة المنشورة نموذج مصغر عن الكتاب الذي اعكف على العمل فيه حالياً، وعلاقتي الشخصية المتميزة مع الشاعر الراحل المصدر الأول للكتاب.

تكتشفها قراءة بعد قراءة، مثلما نكتشف أسرار ظواهر الكون. ينهض شعر ريتسوس على شبكة أرض المصادفات، اذ تتداخل الأشياء وأطيافها وتلتقي في شبكة تشير الاضطراب والدهشة في آن، فالقصيدة مساحة مفعمة بالأشياء العادية والبسيطة تشف عبرها، بصورة موارية، الدلالات والرموز المتراكمة والخافية. وتكثف التفاصيل حضورها لتحل محل الوجوه والشخصيات المجهولة والغامضة والعابرة كالأطياف.

والسمة التي تميز بها ريتسوس انه كان سباقاً في اعتماد اليومي والسردي والتشكيل البصري التي تصخب بها قصائده، وأسس عبرها عالمه الخاص وتراكيب لغته المميزة وأبعاد صوره الشعرية، وهو عالم يأبى التصنيف المسبق لأن عمقه الفلسفي غالباً مايستحوذ على مداه الأفقي. واذا بدت نتاجات ريتسوس سهلة وبسيطة للوهلة الأولى، فثمة تجربة جوهرية عميقة تختبئ وراء بساطتها الظاهرة، كما تمثل اللعبة الشعرية التي يتقن صنعها جانباً ابداعياً في غاية الخطورة، لأنها معقدة ومتشابكة، وتفصل بين ارتقائها وسقوطها لحظة زمنية قائمة، غالباً ما يستطيع الشاعر صياغة مفهومها الزمني والحدثي معاً.

ووراء التفاصيل التي تضج بها قصيدة ريتسوس يكمن الجوهر الشعري القادر على منح الأشياء مواصفات مميزة تحررها من تناقضاتها الخارجية وتسبغ عليها ظلالاً وأطيافاً، لتمتد عوالمه من القصيدة الملحمية الى القصائد القصيرة المتناثرة. وفي غمار هذا العالم الشعري المتنوع تتوحد تجربة ريتسوس وتنصهر، فالقصائد الطويلة تستعيد مجدداً التراجيديا الاغريقية القديمة لتصوغها في اطار معاصر لا ينفصل بعدها الواقعي عن تاريخها ولا تتخلى عن نزوعها الميتافيزيقي.

يدون ريتسوس قصائده كما لو انه يمارس الرسم تماماً، فأشعاره تخاطب البصر، أي تتوجه صوب المخيلة عبر العين، واستطاع ان يرى الكون كمنظر عام ويجمع عناصره وفقاً لرؤياه الخاصة ومزاجه، مطلاً على الواقع اليومي الحياتي دون أن يتخلى عن أحلامه.

ولعل من أبرز السمات التي اتصفت بها نتاجات ريتسوس انتماءه السياسي والنضالي، حيث يطرح شعره اشكالية العلاقة بين الابداع والالتزام السياسي، وهذه الاشكالية لم تنف التآلف الغامض بين المضامين المتنوعة في الشكل الظاهري (البعد السياسي) الى جانب التراث الاغريقي ورموز المسيحية الارثوذكسية، مبلوراً خلفية ميتافيزيقية شكلت حيزاً حقيقياً في تجربته الشعرية.

كان للتوجه الشعري لدى ريتسوس المفعم بالالتزام والثورية أثر بالغ في انتزاع شهرته

الواسعة، بعد ان غدت قصائده تتغلغل في عمق الضمير الوطني، لتصبح أغنية يرددها الشعب، وخبزاً يومياً وعزاء معنوياً حيال القمع والارهاب والعتمة والجور والفاقة.

تجربة ريتسوس حالة توفيقية بين الواقع الشعري والواقع الموضوعي، ولا تنفصل هذه الحالة عن الحلم اطلاقاً، اذ يتلمس القارئ أواصر وشيجة غير مرئية بشكل ظاهري بين حلم القصيدة وواقعها الموضوعي. واكتسبت شاعريته عناصر بالغة التنوع تحمل نُظماً بنيوية وشعرية مختلفة جمعت السرد والوصف والتقنية الصورية (الفوتوغرافية)، مايدعو الى التساؤل أحياناً: الى أي مدى يمكن أن تبلغه مغامرة ريتسوس في تهديد مفهوم وحدة القصيدة وعملية تجميع عناصرها؟

حضور ريتسوس العربي

انطلق ريتسوس كرائد للغنائية المعاصرة المختلفة في جوهرها وطبيعتها عن الغنائية التقليدية، اذ تجاوزت تجربته رومانسية الغناء لتضفي عليها بعداً أعمق يصل الى الجوهر الحقيقي لمعنى الغناء كفاعلية مليئة بالتجديد.

وعلى رغم ان ريتسوس استطاع ان يرسخ حضوره العربي وأن يحظى بالتفاف ربما لم يحظ به شاعر عالمي معاصر، وبدا نتاجه لفترة ما مرجعاً نادراً رفد جزءاً مهماً من الشعر العربي المعاصر، غير ان صورته كشاعر ومجدد ومتميز باختلافه، لم تظهر ملامحها الا عبر قراءات بعض الشعراء الشباب. في الوقت ذاته لم تعر المنابر الأدبية العربية اهتماماً لتجربة الشاعرغير النضالية، بل اكتفت بتجربته السياسية وأبرزت صورته كملتزم ومؤيد لقضايا الشعوب العادلة، خاصة القضية الفلسطينية، ولم تصر على قراءة محايدة، ملقية الضوء على عالمه الشعري الفسيح المتواري خلف الصورة اليومية الأليفة. ولعل نضال ريتسوس والتزامه السياسي ساهما في طمس هويته الابداعية الحقيقية، بعدما خاض الشاعرتجربة طويلة وعميقة في اتون النضال والسجون والمعتقلات والمنافي. ومالبث ان أعاد الجيل الشعري العربي الجديد قراءة ريتسوس واكتشافه دون ان يهمل تاريخه النضالي واعتباراته السياسية.

ومنذ مطلع السبعينات بدأت القراءة الجديدة لريتسوس مترجماً عن الانكليزية أو الفرنسية. وخلال حفنة قليلة من الأعوام استعاد ريتسوس صورته الابداعية كشاعر طليعي، وساهم في تأسيس لغة معاصرة لم تكن مألوفة في الشعر العربي.

حرضت أشعار ريتسوس الانفتاح على اللاشعري... اي التفاصيل اليومية العادية التي كان ينفر منها الشعر العربي، كما ابتدعت لغة مجازية بصرية وتعبيرية مختلفة، لقنت بعض الشعراء العرب الملتزمين سياسياً (وهم الأوائل الذين تأثروا بريتسوس) درساً في التحرر من الخطابية المباشرة الخاوية التي وسمت الشعر السياسي العربي، كما نقضت القصائد السياسية المعممة وتجاوزتها بحثاً عن معادلات شعرية جديدة تسودها البساطة والشفافية.

استطاع ريتسوس ان يحدث قدراً من التغيير في القصيدة العربية،خاصة قصيدة النثر، بعدما أكد حضوره من خلال تقنياته الشعرية ولعبته المجازية. بالمقابل ترجمت أشعار ريتسوس الى اللغة العربية من الجانبين الكمي والنوعي، الا ان أغلب الترجمات خانت النص الأصلي وصياغاته الروحية وتعابيره الشفافة. ويعتري هذا المأخذ معظم الترجمات، خصوصاً ان لغة ريتسوس تحتوي على كم غريب من الخداع البصري، اذ تبدو للوهلة الأولى على قدر كبير من السهولة، بينما تخفي في العمق الكثير من المعاني الحسية المرهفة، ويبدو الصفاء فيها مرافقاً لغموض غير متعمد.

قاس السماء بكفتيه

في الأول من ايار عام ١٩٠٩ ولد ريتسوس بمدينة مونيمفاسيا في منزل يقع باتجاه البحر. افتقرت عائلته بعد ان كانت تملك الأراضي الزراعية الواسعة. مات شقيقه الأكبر «ميميس» بالسل، وانتهت حياة امه في مصح، أما والده فقد أصيب بالجنون بعد أن كان سبباً في انهيار العائلة لادمانه الخمر والقمار، ومن بعده أصيبت احدى شقيقاته بالجنون أيضاً.

«استيقظتُ منزعجة فزعة من دوي طلقات الرصاص الصادرة عن بندقية أبي، ظل يطلق الرصاص من شرفة منزلنا حتى أيقظ أهالي مونيمفاسيا عن بكرة أبيهم، تحية لمولد ابنه الثاني. في ذلك الفجر ولد يانيس. هرعت نحوي مربيتي «صوفيا» لتهدئتي، رفعتني الى حضنها وحملتني الى سرير أمي. داعبتني أمي وقبلتني ثم أطلعتني على المولود الصغير المغطى باللفائف البيضاء وقالت لي: «انظري.. انت التي ستربينه، كل هذا من أجلك فلماذا تخافين»؟ وهكذا شعرت طوال حياتي بأني مربية يانيس».(١)

في مطلع عام ١٩٢١ قدم ريتسوس الى اثينا لإكمال دراسته، ولامس القسوة والاستغلال خلال الأعمال البدوية التي مارسها.. انها الأزمنة العصيبة: دمار آسيا الصغرى، اليونان تنتفض من أقصاها إلى أقصاها، الى جانب التضخم والبؤس ومرارة الفقر، كانت الاشتباكات الدموية بين التيارات السياسية قد بلغت قمة مداها.

كتب ريتسوس أول أشعاره في الثامنة عشرة من عمره، ومارس في الوقت ذاته الرسم والموسيقى والرقص. أصيب بمرض السل الذي كان بمثابة جرح اجتماعي غائر وظل لفترة زمنية ليست بالقصيرة من رواد المصحات والمستشفيات المعزولة.

«...كان ذلك في شتاء عام ١٩٢٦، لا أستطيع تحديد الزمن تماماً. استيقظت ذات صباح لأجد يانيس منحنياً على اناء الماء القديم في غرفتنا الصغيرة بأثينا. كان يتقيأ دماً. لم يستطع الحديث معي، كان فمه مليئاً بالدماء، بينما أصبح الماء في الإناء شديد الاحمرار. ارتسم الخوف على ملامحه، وكان خوفي أشد منه. لقد أصابنا الرعب... هاهو الشر يقع على أسرتنا للمرة الثالثة.

مسحت عنه آثار الدم ثم غسلته. اضطجع على السرير. وعدوت في الشوارع مع اطلالة الصباح الأولى بحثاً عن طبيب.. عن أمل. بعد بحث شاق وأسئلة متكررة اهتديت الى طبيب من أبناء مدينتنا، فوجئ بالخبر غير المتوقع عن يانيس، ورجوته أن يأتي سريعاً.

غادرنا الطبيب بعد فحصه، وكان من رأيه ان يذهب يانيس الى مونيمفاسيا للتجديد والعناية». (٢)

بعد فترة قصيرة ذهب ريتسوس الى مدينته الساحلية، وأقام في منزل عائلته المهجور، كان يرقد في ركن مسقوف بالقرميد، ذلك لأن بقية المنزل كان مفتوحاً على كل الجهات. لم يكن ذلك يعنيه. وضع منضدة في ركن الصالة وبدأ يقرأ ويكتب منذ تباشير النهار الأولى ولغاية مغيب الشمس. تحسنت حالته، فالسعال لم يأت الى المنزل الا مرات قليلة ومعدودة. وحين سألته أخته عما يفعله أجابها: «انني مشغول جداً.. أقيس السماء بكفتي».

قاس ريتسوس السماء بكفتيه، ومذ ذلك الحين لم يدعها تغيب عن ناظريه. في عام ١٩٢٧ عاد الى اثينا مرة أخرى ورقد في مصحة «الخلاص». في المصح أكمل مجموعته الشعرية «في منزلنا القديم» التي بدأ في كتابتها أثناء اقامته في مدينته، المجموعة الشعرية لم تصدر كاملة أبداً، اذ تعرضت بعض مخطوطاتها للتلف والضياع. (٣)

جاء شعر ريتسوس بعد النهضة الشعرية اليونانية، خاصة بعد رائد الشعر الحديث كوستيس بالماس (١٨٥٩ - ١٩٤٣). ومثّل ضرورة انسانية تصهر كل التناقضات لتحقيق حالة من الألفة الغامضة بينها. ومنحت مجمل الأحداث التي لامست حياته مذاقاً خاصاً لكتاباته الشعرية التي كانت مثالاً مأساوياً ودامياً للقمع التي عاشته وتعرضت له.

كان ريتسوس يكتب قصائده ويخبئها في قناني يطمرها في التراب. وفي اصراره على الكتابة تتجلى تلك الفاعلية التي واجه فيها الشاعر العالم في زمن يقف ضد الكتابة. وعبر هذه الضدية اكتسب اصرار ريتسوس على الكتابة بعداً صوفياً أضفى على الشعر معانٍ أشد عمقاً وصفاء.

تحت أمرة حرس القرون الوسطى نفي ريتسوس الى الجزر المقفرة. في عام ١٩٤٨ يرفض التوقيع على وثيقة انصياع للسلطة العسكرية، ويدفع الثمن أربع سنوات اعتقال مصاحبة لفترات تعذيب متفرقة. عام ١٩٥٢ ترفض السلطات الافراج عنه، ولم يثن قرار الحكومة الحملات التضامنية التي عمت أغلب عواصم الأرض. في معسكر كوتولولي ينجز الشاعر «يوميات منفي»، «الوعاء الساخن»، والأعمال المسرحية «قسم النقل»، «زمن حجري». أما في معتقل «ستراتي» فينجز «نحن والنهر»، «رسالة الى كيوري»، و «الانسان ذو القرنفلة».

يقول ريتسوس: «أنا مدين لتلك المغامرات التي صلّبت عودي، كل القمع التعذيب والضغوط دفعني الى محاربة الطغيان والوقوف في مواجهته، ورسحت احساساً كامناً في داخلي بالتصدي وعدم الرضوخ والانهيار. احرقوا كتبي وكان ذكر اسمي جريمة يطالها القانون، غير ان تضامن الناس الصامت كان يأتيني عبر كل المسافات والحرس ونقاط التفتيش وجدران المعتقلات. كنت أحس باللهاث الدافئ لصداقتهم، وأتيقن أن قصائدي تأتي من هؤلاء الذين أدين لهم بكل شيء، وهم غير مدينين لي بشيء». (٤)

رشح ريتسوس لجائزة نوبل احدى عشرة مرة ولم يحصل عليها، وحين نال التشيلي بابلوا نيرودا الجائزة عام ١٩٦٨ قال: «أعلم تماماً ان ذلك الاغريقي ريتسوس يستحقها أكثر مني». بالمقابل نال العديد من الجوائز العالمية: جائزة لينين ١٩٧٧، جائزة ديمتروف ١٩٧٦، جائزة الشعر الكبرى في المهرجان الشعري العالمي في بلجيكا ١٩٧٦، جائزة الدولة اليونانية للإبداع ١٩٨٧، اضافة الى جوائز محلية عدة.

ريتسوس ... الصديق الأليف

ريتسوس.. الشاعر الشفاف الذي ظلل عالمي بصحبة دامت أعواماً يقطن على بعد قريب من بيتي، وحين أسرع خطاي لأصل بيتي، أصل بيته أولاً. نتزاور أحياناً ويحرص أن يقدم القهوة اليونانية بيده التي حملت بصمات أعوامه الثمانين.

لم أكن أعلم ان ريتسوس سيكون صديقاً لي بهذه البساطة، بهذا القدر الغرائبي من الدفء الانساني. ريتسوس... وقرابة نصف قرن من الأعوام تفصلنا يكون فرحاً في لقائي، ينصت بشغف لحديثي، مهذباً لغتي اليونانية، مدخلاً عليها صياغات جديدة. وحين تكون زوجته الضلع الثالث من مثلث حواراتنا الساخنة، نصل الى الحدود القصوى من الشغب الطفولي. تحمل لي زوجته الكعك اليوناني، بينما يخفي ريتسوس في جيوبي علب سجائره المحلية الرخيصة، متحايلاً على زوجته، ليعبئ صدره بدخان عابق، بعدما نصحه الأطباء بضرورة الامتناع عن التدخين.

نقطع الطرق، والأزقة القديمة بحثاً عن مقهى بائس أو مطعم يرتاده العمال والفقراء وبحارة هرمون تمكسوا باليابسة. ويستفسر بهمس ضاحكاً: «هذه عوالمي ومحطاتي.. فأين عالمك»؟

مرة... غزا المرض جسد ريتسوس الضعيف، ونقل الى المستشفى، عاجلته بزيارة وتبرعت له بكمية من الدم. وحين نقل الدم الى جسده، نهض وجاب الردهة وهو يصرخ: في عروقي دماء عربية.. ياللفخر.

اذكر... شاهدنا معاً مجزرة صبرا وشاتيلا في فيلم تلفزيوني، بكى ريتسوس وقال: «أما لهذا القهر أن ينتهي..»؟

في صباح يوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني عام ١٩٩٠ نقلت الينا وكالات الأنباء -وبحياد شديد- نبأ رحيل ريتسوس. تسرب الخبر الى مساماتي، وترك في حواسي عزاء وفاجعة لا حدود لهما. تمنيت أن يتحايل ريتسوس على الزمن ليبقى الى جوارنا.

ريتسوس... صديقي الحالم، تنفس برئة الكون، ولامس كل الحقائق دون خوف.. دون وجل، ليرسخ حضوره الانساني المفعم بالحب والصدق والعفوية.

المقابلة الأخيرة

خلف ريتسوس بصماته الشخصية الجلية علي جانب واسع من الأواصر التي وشجت عالمينا. وغمر علاقتنا بالألفة والحلم اللاهب، ضاجاً بها في فوضى مضيئة. لكني لم أحظَ الا بمقابلات قليلة للغاية معه. فريتسوس محاور أصم.. وروح غنية تتوهج باليقين. مقابلتي هذه حملتها معي حين غادرت اليونان دون رجعة، وغدت بالنسبة لي آخر ماتبقى لي من شريط الذكريات مع ريتسوس...ورغم كل الاغراءات وتنوعها التي قدمت لأجل نشرها، غير ان الرفض كان هو الكفة الراجحة. بالمقابل عجزت كل منافذي أمام تقديمها الى «الثقافة الجديدة» كهدية متواضعة في ذكرى غيابه الثالثة:

- على مايبدو نحن في فترة يستحيل ان يتبلور فيها الأدب مرافقاً للحياة وعلى نحو فاعل.

- تعرضت الثقافة اليونانية وتطورها التاريخي الى فترات انقطاع، ومن أهمها الضربة التي تلقتها الحركة الثقافية اليونانية ابان الحرب الأهلية (١٩٤٤ - ١٩٤٩) حيث انتجت شعوراً عاماً بالاحتباط، واختفى الحلم الكبير الذي طالما راودنا منذ زمن طويل. ولكن كل تلك الأحداث كانت بمثابة ظاهرة عابرة في حياة الأدب والثقافة اليونانية. ليس هناك حالة انحسار، بل حالة انتظار.. هو الهدوء الذي يسبق العاصفة عادة. أدباء فترة الخمسينات والستينات مازالوا الموروث الشاخص والدليل الكامن على ان مستوى الأدب لم يتراجع كثيراً. وشعراؤنا الشباب لم يقدموا بعد كل ماعندهم.

في ما مضى طبع شيخ الآداب اليونانية المعاصرة (بالاماس) ألف نسخة لاحدى مجموعاته الشعرية، ولزمته ثلاثة أعوام لتسويق الطبعة. بينما صدرت مجموعتي الشعري «سوناتا ضوء القمر» بـ ٣٥ طبعة. لذا يمكنني القول بأن الأدب ماضٍ في الحياة يتطور ضمن تطورها بشكل ثابت ومستمر.

-كيف تنعكس الحياة في شعرك.. وكيف تجسد معناها؟

-مع تتابع الحياة ومواصلتها لايقاع الديمومة، يتتابع الشعر. الحياة لم تكتمل بعد، والشعر لم يقل كل مافي الحياة. تنعكس الحياة داخل نصوصي وتحيا في ذاكرة المستقبل، لذا فالشعر يصنع ذاكرة المستقبل بحكم تواصله مع تاريخ البشرية. الشعر بالنسبة للحياة

نتيجة وجدانية تغلف ضمن ضرورة انسانية، وهو مفتوح على مداه، كما هي الحياة، لا محرمات، لا ممنوعات. يعتبر عملية نضالية متراصة ومتواصلة ضد كل أشكال الموت. ومن هنا أرى ان الشعرهو الحياة بعمقها وحقيقتها، وحين أتكلم عن الشعر أكون قد لامست كل جوانب الحياة.

- مؤخراً كتبت نثراً تناول تاريخك الشخصي، واثارت المجموعة نقاشاً واسعاً، انها بلا شك تجربة ذاتية بحت، غير انها تجاوزت الخطوط الحمر المعدة سلفاً لريتسوس، بعد ان طرحت مواضيع لم تجد قبولاً لدى قطاعات عريضة من الشعب اليوناني.(٦)

- لا أملك أي تحفظ أخلاقي بشأن مجموعتي النثرية على الاطلاق. فالأشياء غير المنسجمة مع الأخلاق هي تلك التي تضر بالوعي الجمالي. وأصف الذين تهجموا عليها بأنهم غير صادقين.. غير صريحين، ويختبئون وراء أصابعهم، كأنما يخجلون من أنفسهم. هذه أخلاقية كاذبة، وتهذيب مخادع، كون التهذيب الحقيقي يمثل الصراحة الواعية.

الكثير ممن عارضوا مجموعتي القصصية، وماإحتوته من تفاصيل، اختفوا خلف صفة الناسك، في الوقت ذاته يمارسون أبشع الموبقات بطرق ووسائل معلنة، وهؤلاء ليسوا غير أخلاقيين فحسب، بل وتغلف حياتهم أمية معتمة وضلالة ظلامية.

- وصف اراغون القصيدة بانها اغنية تهدر بها الاف الحناجر... مارايك؟

- قد تكون العبارة صحيحة الى حد ما.. الشعر بحاجة الى خصوصية تدفعه من مكانه في المكتبات والأكاديميات الدراسية لينتقل الى الشوارع، المصانع والمزارع. قد تخسر القصيدة الكثير من قدسيتها، ولكنها تتحول الى غناء جماعي أكثر قرباً من الناس، يرددونه كضرورة حياتية، كالهواء، كالحب، كالخبز.

- الا تصيبك خيبة أمل من الشعر.. بعدما حمل اكثر مما يحتمل؟

- الشعر محاولة لتجاوز مداخل الحياة المعتمة، وحين يلامسها الضوء تنجلي كل الحقائق بوضوح. ولا يعكس الشعر الحس الاجتماعي، بقدر ماينظمه ويمنحه شكلاً واتجاهاً. لم أصب بخيبة أمل من الشعر، بل أنا مدين بحياتي للشعر، فمن خلاله نمت اشراقة في داخلي لا تعرف السكون.

- منحت جائزة نوبل لشخصيات أدبية كبيرة، بالمقابل منحت لأدباء ثانويين من الدرجة الدنيا، وللجائزة العديد من الجوانب التي تخرج من اطار الابداع...

- (مقاطعاً) لا أحلم بهذه الجائزة أبداً، فهي قد منحت لأدباء يونانيين عظام، مايعني انها قد أصبحت تحت الشعر اليوناني. الكثير من شعراء وأدباء العالم تجاوزوا عقدة الجائزة وظلت نتاجاتهم أرفع مرتبة من لمعان الجائزة. وبهذا الخصوص سأكون سعيداً لو حظي بها الأدباء العرب (أجريت المقابلة قبل حصول الروائي نجيب محفوظ على الجائزة)، أو أدباء العالم الثالث. بالنسبة لي شخصياً اعتبر جائزة مهرجان الشعر العالمي التي نلتها عام ١٩٧٦ أهم بكثير من جائزة نوبل.

- **سفرك طويل واعمارنا قصيرة.. بعد كل هذه السفر الإبداعي لمن تكتب قصيدتك؟**

- أكتب لأكون أكثر قرباً من الأشياء الأليفة التي أعشقها... أكتب لتكون تجربتي أكثر التصاقاً بالناس، ولأمتلئ بحياة جديدة مع كل شهيق شعر.

الهوامش

١ - «سنوات طفولة أخي يانيسش»، لولي ريتسوس، ص (١٩ -٢١).

٢ - المصدر السابق، ص (٨٥ -٨٦).

٣ - تعتبر المجموعة الشعرية «في منزلنا القديم» النتاج الشعري الأول لريتسوس، ونشرها غير مكتملة بعد فقدان بعض أجزائها، جعل من مجموعته «الجرارات» ١٩٣٤ المجموعة الشعرية الأولى الكاملة للشاعر.

٤ - مقابلة سابقة لريتسوس أجريتها لمجلة "Politismos" الصادرة في اثينا.

٥ - أدين بعميق تقديري للمبدع الكبير ادونيس الذي دفعني باصراره على تحقيق هذه المقابلة لمجلة «مواقف».. غير ان سعة المنافي وتشتتها حالت دون نشرها.

٦ - أشار ريتسوس في المجموعة القصصية الى حياته الجنسية المثلية الخاصة.

٧ - القصائد مترجمة عن اليونانية، وتنشر للمرة الأولى باللغة العربية.

من شعر ريتسوس

أغنية الى شقيقتي

أختي..
انهض مبجلاً،
متجهاً صوب الشمس.
لكن يا أختي،
لا أحتمل المزيد
ذبل صوتي
وتبعثر رحيق أفكاري.

أختي...
أنا نملة جريحة
ضلت طريقها في الليل البهيم

أختي...
مجبولة أنتِ على العطاء
توزعين كل هداياك
وتبقى كفاك فارغتين.

أختي سأتوكأ على قلبكِ
وانصت الى نبض الناس.

أفتح بوابات الرغبة
بإعجاب وقلق
لأحوّل الحزن الى نشوة
والصرخة الى صلاة.
الضوء يغمر الأرض
مزوّداً بمحبتكِ،
يا أختي.

سراج يضيء الليل
نمت السنابل في دمائنا
وتقدمنا نحو قيامة الزهور
تسلقنا التلال
سألتني الشمس: الى أين أمضي؟
وسألتها الى أين تمضين؟
هل تعتمر السماء
وأنا هنا في الأرض.
الى أين تسير؟
الى أين أسير؟
الى أين نسير؟

تسلقت القمم البعيدة
صاحب بي الزنابق
كان صوتها يبدو غريباً
صحت بها سأنهض

وردة النار

عزيز السماوي

شعر باللغة العامية

إنت ..

إنت .. المانجي .

إنت خوفي إومهجتي .. إوطعم البچي

إنت بعيوني حزن درويش لو غربة نبي

إنت طول الياخذ إچفوفي حرير إمن اللهب . . ما ينطفي

إنت التشعل أسراري . .

– معاني إمن الجمر –

منك إلك . . تشتكي

إنت ..

آخ .. إنت ..

تهيم إبعيد بالظلمه . .

حزين . .

إوتلتم إچفوفك . .

حنين . .إتهيم .. وردة نار

تاخذني فرح بين اللهب واسرار

إوكلش أرد

خايف أرد

حزين . .

ألتم .. على جروحي .. بچي .

إنت .. إتوج إصابيعي الحزينه إفراگ ليليه .. إوبچي

حنينه الروح في شجره

حنينه إبلاگمر .. گمره

حزين الطول .. ذل صدره

آخ ...

لا تكسر الخاطر ..

تذل ..

إعيون

بچفوفك ..

على إچفوفك

على إچفوفك

حزين إمن الفرح . .

هايم إلك . .

وجني البچي

ولك رف القميص إوريحة الرگبه . . بچي

طولك يوج عليك گمريه . . إو حچي

إچفوفك حمام إيطير بعيوني . . بچي

زرگه السيوف ..

إتصير . .

بالظلمه . . إو حچي

كل جمره بالظلمه توج إو تنطفي

بس سري مجنون . . إو ابد ما ينطفي

لا يقظه . .

تاخذني إلك

إولا حلم ..

يلگاني . . إوتجي

حزينه الروح مامش كيف

بس هذا الهوى البارد . .

يرد الروح . .

ناعم للمحبه . . إيلوح

يضحك بين إصابيعي

غنج . . ويروح

يرف لون القميص . . إيلوح

جنون . . إيوج حنيني إعليك بالظلمه اغاني إوطيف

عليك إنت . . صهيل الروح ياخذني . . لمض . . للسيف

توج روحي لهيب ازرگ فرح للسيف

يصلي وياي هيبه .. السيف

اصلي إدمــوع . .

عكس السيف . .

يوج كل الحنين إعليك هاله إبلا گمر يا حيف

لوين إتريد ماخذني عليك إوياك ليليه صهيل إو سيف

حزينه إو تلمض إچفوفي عليك إنت الفرح والضيف

الف يا حيف

مامش لا فرح .. لا ضيف

اكتب بالظلام إسمك

حنين إيوج إصابيعي

عليك إمن الفرح

لكن ..

والف لكن .

تلهب إحروفك ذهب

تاخذ الظلمه إوترد . . كل الذهب ينمحي

وصلك بعيد . . إنت الحلم

هايم عليك إبلا جرح گبل الجرح حيل أللچم

طولك حرير إويخفگ إبليل الوطن . . راية زلم

احلم وجيك . . إو ما تجي

گمره الليالي . . الما تجي

هيبه الوصل - گبل الوصل - خايف اخذ طولي البرد

هايم عليك . . إو ما أرد

مجروح . .

إو على إچفوفك . .

يوج . .

دمي . . ورد .

تلتم . .

إچفوفك على إچفوفي

حنين إيوج حنين .

إبليلة الظلمه . . ورد

تلهب الوان المحبه . . إو للمحبه . . إيوج ورد

هيبه الجمر بالروح ما ذله البرد .

روحي . . إتهيم

مهره . . إتهيم . .

توج . . ليل الهجر . . وتهيم

تصد الريح . .

مذعوره .

تعاند

حيل . . بالظلمه . . إو تصد

ياهو الوده جرحه إبليل يتلگه الصبح

او ياهو الخله كل روحه وطن تحت الجرح

إو ياهو العاند التيار كل عمره سبح .

كل گلبي . .

هايم .. إلك

طير . .

إو خفگ جنح . . إبجنح .

لوين إتريد أخذ طولي البچي .

احضن اسراري

أوج

كلي جمر درويش

يلهب . . إبليل التجافي

إبعيد . .

هيبه إو إلك . . گمرة نبي .

حبيبي إنت جرح طولي البچي

ما تدري إيديك إطيوف أعبدها ليالي إمن البچي

إبكل دمعه يغبش جرح

إبكل دمعه ميت صبح

إبكل دمعه . قميص إبعيد .. ياخذني على إدرويك . . ذبح

حزين . .

إو تلتم إچفوفك . .

نهار ازرگ

حـنين

إعله الجرح

إبكل دمعه سكته الحچي . .

إبكل دمعه جثة نبي

وين إنت

اشوفك وين

خلص عمري الحزين

إعليك

بالظلمه .. خوف إومشي

هايم عليك الجرح مذعور خوف إو حزن

يهيم إشراع

بالظلمه

يوج إشراع ..

هيبه إوياخذ الظلمه لهب وإشراع . .

يعاند ما يذل للـــگاع . .

گمر . .

يلتم على إچفوفك

حزين . .

إو بس إلك . . گمره الحزن

خذني . .

خذني . . إبين إيديك

ذلت إعيوني الحزينه إبين إيديك

لض . . شيبي . . عراق إمن الغضب ما بين إيديك

عليك الريح تاخذني واحن

مجروح

إو عليك إنت

الحنين

إيهيم . . گمرية سجن

انت إبعيد بالظلمه . . واحس لو ن الوجن

هامن إچفوفي الحزينه إهناك . . بالگمره . . سفن

ورده الجرح بالروح من طولك يجي

جيس القميص يهيم بچفوفي بچي

خل الحچي إيوج الحچي

تلتم ..

إجروح التجافي

إبليل . .

وردة نار

ياخذها اللهب

خوف إو حچي .

تهيم إنت الخيول التاخذ إچفوفي صهيل إمن الفرح گبل البچي

كل العمر انتظر طولك على إچفوفي بچي

ذاك . .

القميص . .

إيهيم . .

گمرية فرح . . ما تنحچي

إنت . . إنت . . إلما تجي . .

طوبى

فراس سليمان محمد

يتوضأ المساء بالكسل، نرتعشُ قليلاً
نُسقِط دموعنا اليابسة على الأرغفة اليابسة
وننهدم على عتبةٍ لا تقود الى مكان.
ونصرخ البلاد... البلاد
يخرجُ الفجرُ من هديلٍ أشيب
ينهض الجلاد ملفعاً بالضباب، يأكل شفاهنا..
ويصنع من صرخاتنا سبّحة لضجره القتّال.
ينهض الجلاد .. ثم ينهض الجلاد.. ثم العالمُ
سجادة ملوثة بالدم

سحقاً للكلام يغدو مروحةً للهواء المعروق
سحقاً للأغنية... للنشيد الوطني وهو ينزعنا من حضنه كما
يَنزعُ برغوثاً
سحقاً للماء وهو يذعن للجهة المنخفضة
سحقاً لأطفال هذا العصر ... ينزلون من كهوف أمهاتهم..
ليصطدموا بأكتاف اسرائيل
سحقاً لي.. لأصابعي وهي تغوص عميقاً في الروح لتداعب
أجنحة الجراد
سحقاً.

ينكبُ معجون الحلاقة على الصباح.. تنكبُ أكواب الشاي على الصباح
تشلح العاهرات الضفائر على كتف الصباح.. يستعير الضباط أوسمة
من دم الجنود .. من روث الصباح
يتضاجع الموظفون في حافلات الصباح.. يقضم القيظ الأغاني
وأصابعَ العشاق.. وأطرافَ الأرض والصـ...،
تفيق البلاد بلا رأس... يتوضأ الوقتُ باللحم والدم ... يرشُ ملحاً على الأجنة.. تبكي القرى والمدن
أصرخ.. تصرخ .. البلاد.. البلاد...

«لنقل الأشياء على سبيل التندر قليلاً وعلى سبيل الموت وعلى سبيل أنّا علينا أن نقول»
-اوبى لأميركا وهي تجعلنا ندسُ أرواحنا في الأحذية النبيلة ونمضي في الهواء . طوبى لامريكا وهي بحنو تمسح على شعر العالم وتربت على كتفه.. طوبى لورقها المعدني القاتل... لالتماع المساحيق والباروك .. للجاز والجينز والجزادين وهي تسترنا تجملنا نحن الجثث العارية. طوبى للقنبلة مطعمة بعروقنا .. لناطحات الله .. للملائكة يرفرفون بشراشفهم الفرو على القارات البردانة. طوبى لامريكا تفتح العالم / المعرض. تقطع الشريط.. جثث براميل.. أدمغة عاهرات نجوم ايدلوجيات.. دماء دول للبيع. طوبى لزقزقة إبليس الشامتة... لقمر حزين في قميص أمي... لسيجارة أبي ودخانها أشرف من دخان الشفرولي وغليون الربّ. طوبى لي.... وأنا أتقدم العالم.. العالم الثالث فقط على صهوة حمار دهري... طوبى....

١٩٩١

النهار الأخير

نوار العراقي

في المساء الأخير
والذي مرَّ شهياً كعينيكِ
رائعة كنتِ...
لكنك في النهار الذي تفتح كوجنتيكِ
تركتيني وحيد القلب
محترقاً كالظهيرة في صيف مرير
في النهار الأخير... هل تذكرين ؟
كنا سوية... ولكن منفصلينْ !

رغبة أكيدة

لي رغبة صغيرة
أن أتبادل قبلة واحدة
مع امرأة تسكن في الشرق... وحيدة وحزينة
تحلم ببعدي وتسكعي وسكري
قبلة واحدة !

أترك بعدها قلبي.. نائماً على صدرها كالنسمة
لأعود مسرعاً الى منفاي
كطير مهاجر.

أغاني السيدة البعيدة

من نافذة غرفتي... ألمح عينيك كل صباح
ناسياً... بأنك حزينة ونائية
وأني وحيد وبائس... كرجل مطلقْ !
في وحدتي.. تلك التي أكرهها
كحشرة ولدتها امعائي...
أصمت مجنوناً، مولعاً بالحزنِ
مفكراً بأشياء صعبة... كالشهادَة من أجلكِ !
حين تأتين، سيدتي
أليفة كالودِ... رائعة كالحب
منعشة كالريح الشمالية
تموت كل ضنوني المرتجفة.. ويحترق هذا الزمن الردئ !
حين قبلتك
تساقطت العصافير على رؤوسنا كما المطر
غنت لنا...
ثم طارت

المخبأ

المؤلف : هايرو انيبال نينيو
ترجمة : سعدي عبد اللطيف

(مسرح مدور. عتمة. من أرضية المسرح يبدو باب مسحور يتأرجح منفتحاً ويظهر شبحان، يلهثان بشدة. كل مايمكن سماعه لعدة لحظات أصوات كلهاث الكلاب).

السكرتير: أين مفتاح الضوء ؟

الرئيس : ابحث عنه.

السكرتير : هذا المكان غريب.

الرئيس : نعم، سيدي.

(سكون قصير. شبح يحاول التعرف على ماحوله متحسساً طريقه في الظلام. يداه الممدودتان تبدوان كأنهما تنزلقان على امتداد حائط من جليد. أكمل الشبح تقريباً دورة كاملة حول المسرح. فجأة، وكأن الشبح عثر على المفتاح الكهربائي، لأن ضياء قد توهج. كان مصباح الضوء يتدلى من سلك مضفور، ضوء بلون الماء الأخضر، وخز انعكاسه الشديد عيون الشخصيتين. جنرال عجوز بزيه العسكري. الزي لافت للنظر دون أن يثير الضحك. يبدو ان الجنرال ارتدى زيه على عجل لأن السترة قد زررت عشوائياً فوق بجامته. الى جانبه يقف شاب كأن هالة من الشيخوخة تحيط به. ويرتدي بذلة فائقة الجودة، خطوطها تشبه عظام سمكة الرنكة. أخذ الشاب ينظف نظارته الذهبية الاطار بمنديل حريري النسيج).

الرئيس (مصعوقاً) : كيف يمكن أن يحدث هذا ؟

السكرتير : لا أدري.

الرئيس : فجأة، أحسست بهم مثل زحف

جيش من النمل.

السكرتير : مضبوط جداً، ومثل نمل مجرم اكتسح قاعات القصر وأروقته.

الرئيس : حراسي، الذين كانوا يناموين مثل السلاقي الوفية على الأرض قرب باب غرفة نومي، فصلوا رؤوسهم عن أجسادهم. عندما صحوت على الصخب عند الباب، ووثبت من سريري، غطست قدماي في سائل حار ودبق. كان السائل دم. عند ذاك عرفت ان حراسي المخلصين مزّقوا شرّ ممزق.

السكرتير : لا أدري كيف أفلحنا في الهروب.

الرئيس : انها معجزة العذراء. انها تحميني على الدوام.

(سكون قصير)

السكرتير : كنا محظوظين.

الرئيس : ترى أين زوجتي الآن ؟

السكرتير : لابد انها شقت طريق الهروب من الباب الخلفي.

الرئيس : جائز.

السكرتير : هل نحن في أمان هنا ؟

الرئيس : نعم. هذه حجرة سرية بناها الجنرال (المناريس) أثناء رئاسته للجمهورية. اكتشفتها بمحض الصدفة تماماً عندما عثرت على بعض خرائط أخفيت في أرشيف القصر. بعدئذ أحرقت الخرائط، لذلك العالم برمته لا يعرف بوجودنا هنا.

السكرتير : قُتل الجنرال.

الرئيس (بغضب شديد مكبوح) : أمسك لسانك، يا طير النحس.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : الأبله أودى بنفسه عندما كان يزور العاهرة في الفراش وقتلوه. أطلقوا النار على خصيتيه. يسترنا الله ويحفظنا من مثل هذه النهاية الكريهة. هل تتمكن من تصور المشهد؟ حين يفاجئ رجل الرصاص على خصيتيه، لا يستطيع حراكاً. وقبل أن تصل الرصاصة، فانك ميت من عار الذل.

السكرتير : نعم سيدي.

(سكون طويل. رئيس الجمهورية يتجول في أنحاء الحجرة. التي هي علية خاوية وغريبة. الشيء الوحيد الملفت في قفرها هو صندوق جلدي قديم جداً يبرز مثل شيء قبيح).

السكرتير : ألا ينتبهون الى الضوء ؟ الا يسمعون أصواتنا ؟

الرئيس : لا ، الجنرال المناريس كتب في الخرائط بيده: لا يُخترق - لا يُرى - لا يُسمع. وهذا صحيح. جربت ذلك شخصياً وتأكدت منه. كان الجنرال يجيد العمل.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : انها مسألة دقائق. ثم تشن

قواتنا هجومها المضاد وتقضي على هؤلاء الرعاع.

(السكرتير يتطلع الى ساعة جيب لامعة)

الرئيس : كم الساعة؟

السكرتير : (مغموماً): لا أعرف. توقفت ساعتي.

الرئيس : في أقل من ساعة سيفيض دم هؤلاء الغوغاء في أنحاء هذا القصر الرئاسي العتيق.

السكرتير : كان حرس القصر ينسحبون. رأيتهم يتساقطون مثل الذباب في الساحة.

الرئيس : هل نسيت ان الجيش لا يتكون من ذلك الفوج فقط؟

السكرتير : لا، يا سيدي.

الرئيس : اذا ساءت الأمور تماماً، ماعلينا الا انتظار قوات العقيد سيكفريدو حتى تصل العاصمة.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس (كما لو انه يتحدث لنفسه) : ترى أين سرية المدرسة العسكرية؟

السكرتير: يجب ان يكونوا الآن هنا.

الرئيس : كان يجب أن يتقيأوا نيرانهم الآن.

السكرتير : ماذا لو وقعوا في قبضة المتمردين؟

الرئيس : سأخصي بيدي هذه كل واحد من المخنثين.

السكرتير : نعم سيدي.

(سكون قصير. الرئيس يفتح الصندوق. يزيح كومة الصحف المهترئة، وأثواب نساء، وبدلة عرس مزخرفة، وسيفاً، ودمية كبيرة مصنوعة من الخرق).

الرئيس : غريبة ممارسات الجنرال المناريس!

السكرتير : سيف جميل.

الرئيس : هذه الخرق لا بد أنها لواحدة من حورياته.

السكرتير : كيف ترى بدلة العرس هذه؟

الرئيس : لماذا تسأل؟

السكرتير : الجنرال المناريس، رحمه الله، مات وهو أعزب.

الرئيس : ملأ القصر بالعاهرات.

السكرتير : في الشهر الماضي، عند تهديم أحد الجدران لتوسيع قاعة الرقص، وجدنا خمسة هياكل عظمية لنساء.

الرئيس : خمسة هياكل!

السكرتير : يبدو انها من عمل الجنرال المناريس. ويقال انه اعتاد دفن نسائه الخائنات في الجدران.

الرئيس (يجفل بعدما مس شيئاً داخل الصندوق): المجد لله.

السكرتير : ماالأمر؟

الرئيس : (يفض الورق الحريري الذي يغلف الشيء) : قنينة براندي (يتمعن

فيها بسرور) معتقة وملكية حسب ذوق الجنرال.

السكرتير : وحسب ذوق فخامتكم.

الرئيس : مادمنا هنا، يمكنك أن تدعوني وببساطة، السيد الرئيس.

السكرتير : نعم سيدي.

(يأخذ الرئيس جرعة قوية مباشرة من القنينة، بينما يتطلع السكرتير بلهفة)

الرئيس : لن تحصل على أي شيء. قطرة واحدة ثم تبدأ بالثرثرة مثل الأبله.

السكرتير : نعم سيدي.

(سكون قصير)

الرئيس : ساعدني للوصول الى كوة السقف تلك.

(يشير الى كوة خيالية. يشابك السكرتير أصابع يديه ركيزةً لقدم الرئيس. كان وزن الأخير ثقيلاً جداً لا تحتمله بنية السكرتير الضعيفة. يقومان بمحاولات متنوعة، وفي النهاية يبدوان مثل مهرجين مثيرين للشفقة منهمكين في فصل كوميدي).

السكرتير (لاهثاً): لا أستطيع، أنت سمين جداً.

الرئيس : لست سميناً يا وغد، أنا قوي، وهذا شيء مختلف، أما أنت فهزيل وهشّ.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : وكف عن القول: نعم سيدي لكل شيء.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : حسن اذن، اصعد أنت.

(السكرتير يصعد)

الرئيس (ينفخ من الجهد): ماذا ترى؟

السكرتير : لاشيء.

الرئيس : ماذا تعني بلا شيء؟

السكرتير : لا أستطيع الوصول الى حافة الكوة يجب أن ترفعني قليلاً أكثر.

الرئيس : اللعنة على اللوطي (يبذل جهداً) كيف الآن؟

السكرتير : لا يكفي.

الرئيس : حاول الوقوف على كتفي.

السكرتير : لا أجرؤ يا صاحب الفخامة.

الرئيس : هيا، يا وغد.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : هل ترى أي شيء؟

السكرتير : نعم يا سيدي.

الرئيس : ماذا ترى؟

السكرتير : جزءاً من الحوش مليء بالمتمردين.

الرئيس : هل هناك الكثيرون؟

السكرتير : بالمئات.

الرئيس : رفع الحثالة يدهم علي. لا أكاد أستطيع انتظار المدافع ودخانها بقيادة العقيد أيالا (يسير في أرجاء المسرح متجاهلاً صرخات السكرتير الذي يحاول الحفاظ على توازنه) هذا خرق فظيع

للقانون والنظام. ولكن الحشرات هذه ستعرف قوة ذراعي. لن أرحم أي واحد، سأسلخ جلودهم أحياء في أفنية القصر. سأقطعهم وأعرض جذوعهم السابحة بالدم على الخوازيق، سأقتلع قلوبهم واحداً فواحداً وأطعمها للكلاب، سوف...

(يصيب اليأس السكرتير في النهاية فيسقط. يتوجه الرئيس الى قنينة البراندي. يتشكى السكرتير من الألم)

وأنت، توقف عن عويلك، انك مثل ملكة عجوز.

السكرتير : لكني أشعر بالألم.

الرئيس : تحمل مثل الرجال، أيها المخنث.

السكرتير : نعم سيدي.

(سكون طويل. الرئيس يواصل شرب البراندي، وتبدأ الآثار الأولى للكحول بالظهور).

الرئيس : ترى ماذا حدث لوزرائي. ماهو مصير الدكتور كرافيتو؟

السكرتير: لنأمل انه كان عندهم الوقت كي يهربوا.

الرئيس : الوقت لابد ان للزمسان دم الحرباء. انه جواد مجنح حينما نكون سعداء، لكنه دودة تجر عجيزتها بتثاقل عندما ينهش المجهول أحشاءنا.

السكرتير : ستتغير الأمور عما قريب.

الرئيس : تتغير؟ ماذا يتغيّر؟

السكرتير : أشرتَ الى حالتنا هذه.

الرئيس (مقاطعاً) تمسكت دائماً بالدور الذي اختارتني بلادي له (توقف قصير) أنقذت هذه الأمة من الخراب والفسوق. عندما قتلوا الجنرال المناريس، صعد الى السلطة استاكيو ذلك النحوي المهووس المسلول. وماذا فعل؟ أخذ يغازل الرعاع، وقدم جميعهم تنازلات للغوغاء لا يقبلها أحد. وماذا حدث بالتالي؟

ملاكو الأراضي، ورئيس الأساقفة، والجنرالات الشرفاء، هرع جميعهم الى بيتي، وفي منتصف الليل جروني من سريري، كانوا يدقون بابي، والدموع تكاد تنهمر منهم، متوسلين أن أحل المشلكة. وماذا فعلت؟ كمواطن ووطني قمت بواجبي. ارتديت بذلتي، وودعت زوجتي، وتوجهت وحدي على الحصان الى القصر الجمهوري وخنقت بيدي هاتين استاكيو (توقف قصير. يشرب البراندي) حملوني على الأكتاف في طول البلاد وعرضها، حياني الناس كمنقذ.

السكرتير : كللوك بالغار.

الرئيس : وبدأت أحكم مثلما قدر الله لي (يُسمع انفجار بعيد). القوات، وصلت القوات.

(سكون طويل)

السكرتير : انها ليست القوات. انه المطر.

الرئيس : انه ليس المطر، انها العاصفة.
(يذهب الرئيس الى الصندوق ويجلس عليه. يبدأ بتصفح بعض الجرائد)
الرئيس (يقرأ): «حشود كبيرة تستقبل القائد» «الجنرال المناريس يدشن السفينة الحربية» «تأييد تام لرئيس الجمهورية من رجال الأعمال» «الجنرال المناريس يفتتح الليلة الحفل الراقص الكبير في النادي القومي» (توقف قصير) لكنك، يا الفاريس، لفظت الأنفاس في أحضان عاهرة. لن يقتلوني، أنا، بالرصاص مثل الكلب. أنا الجنرال اوتيميو ماروكين، لم يولد بعد الرجل الذي يمتلك الشجاعة لاطلاق رصاصة علي. (يشرب) قريباً يبزغ الفجر وتتحسن الأحوال. أطاحوني مؤقتاً عن صهوة جوادي، ولكنهم لا يعرفون أني سأمتطيه ثانية وأستعيد هيبتي، لأني واحد من النخبة التي خلقها الله لترويض الجياد.
السكرتير : نعم سيدي.
الرئيس : وأنت، توقف عن الدوران حولي كالشبح. أشغل نفسك بعمل شيء.
السكرتير: مثل ماذا، سيدي الرئيس.
الرئيس : اخترع شيئاً لتمضية الوقت
السكرتير : لا شيء يخطر على بالي.
الرئيس : امهلك دقيقة، والا فقد استعملك كيساً أتسلى بلكمه.
السكرتير : نعم سيدي.
الرئيس : لا تزعجني، يا بيب اريوليدا.
السكرتير : نعم، سيدي.
(سكون قصير)
السكرتير : لو استطعنا ان نصنع...
الرئيس : ماذا؟
السكرتير : أي شيء يشبه لعبة الباولينك. أعرف انها لعبتك المفضلة، وأثبتّ أنك بطل اللعبة تماماً.
الرئيس (بشيء من الفخر) : جميع القناني أطيح بها، لا أقل من ذلك.
(السكرتير يفكر بضع لحظات. يتوجه الى كومة الجرائد. يحول الجرائد الى أشكال مخروطية ويجعلها كالقناني. يكبس جريدة ويخلطها مع بعض الخرق لتتحول الى كرة. يقذف الكرة على القناني ويتمكن من اطاحة بعضها).
الرئيس (ضاحكاً): لستَ غبياً بالكامل على أية حال.
السكرتير : كلا يا سيدي.
الرئيس : حسناً، دعنا نلعب قليلاً اذن.
(ينزع سترته. يبدو منظره غريباً بقبعته العسكرية الناتئة الحافة وقميص بيجامته المخطط. يلعبان لعبة القناني ويربح فيها الرئيس. وكانا على وشك البدء بجولة ثانية ولكن السكرتير يصاب بالذعر ويتوقف عن اللعب)

السكرتير : صمتا

الرئيس : ماالأمر؟

السكرتير : أسمع ضوضاء

الرئيس : ضوضاء؟

السكرتير (هامساً): اذا عثروا علينا، سيمزقوننا ارباً.

الرئيس : (يشهر مسدسه ويزحف بصمت باتجاه الباب المسحور . يضع رأسه على الأرض . صمت طويل).

الرئيس : لا شيء هناك ، انها تخيلاتك فقط.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : سيطر على أعصابك يا بيب اربوليدا.

السكرتير : حسبت أني سمعت شيئاً ما.

الرئيس : أدري أنك معروف بجبنك الشديد ، ولكن لا تدع خوفك يولد الأشباح.

السكرتير : نعم، سيدي.

(يقوم السكرتير بالدوران في المسرح محاولاً اخفاء اضطرابه)

الرئيس : وتوقف عن الدوران مثل دجاجة تحتضن البيض.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : مسابقي لي الا ان أحبس هنا معك.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : ولكن زوجتي ظلت تلح (يقلدها) هيا، أعط بيتو وظيفة . انه أفضل أبناء أخي.. (توقف قصير) أفضل الأبناء..يرعبني ان أفكر كيف هم اذن اخوانك الآخرون.

السكرتير : عينتني سكرتيرك الخاص، ووقفت باخلاص الى جانبك.

الرئيس (بازدراء) : وقفت الى جانبي.

السكرتير : والدليل ان الجميع تخلى عنك، وأنا الوحيد الذي بقي معك في جحر الفأر هذا.

الرئيس (بعنف) : ماتخلى عني أحد.

السكرتير : أنت تعرف انهم تركوك لوحدك تماماً.

الرئيس : هذا غير صحيح أعرف ان قواتي في هذه اللحظة تستعد لاكتساح القصر ، وسأستعيد سلطتي عندما تصيح الديكة.

السكرتير : أتمنى ذلك

الرئيس : أنا لا أجبرك على البقاء معي ، تستطيع الذهاب اذا أردت.

السكرتير : الآن فات أوان ذلك تماماً.

الرئيس : حسناً اذن، لا أريد سماع أي ندم.

السكرتير : أنا غير نادم على أي شيء . أشعر ان هذا هو مكاني الصحيح (بمهابة) انا السكرتير الخاص لرئيس الجمهورية.

(الرئيس يشرب. هناك دوي رعد. ووميض

برق يسعى كالحية من خلال الكوة.
الرئيس (يتوجه نحو الكوة) : العاصفة أيضاً تواقة الى تذوق اكسير السلطة.
(سكون طويل. ومن وقت لآخر، يغدو أكثر وضوحاً سماع ضوضاء العاصفة. السكرتير يتوجه الى الصندوق ويجلس عليه. يلتقط قطعة من الورق الحريري الذي كان يغلف قنينة البراندي، يرتبها بلطف بأصابعه ويخرج مشطاً من جيبه ويضع الورقة على المشط ويعزف لحناً. الموسيقى جميلة بشكل مدهش ومفعمة حنيناً الى الماضي). لم أكن أعرف أنك تملك مثل هذه الموهبة. انك تعزف جيداً.
السكرتير : شكراً لك.
الرئيس : هاك. خذ جرعة (يناوله القنينة. السكرتير يشرب. الرئيس يختطف القنينة منه(رشفة واحدة فقط، لترطيب الشفة (سكون قصير) اعزف لحناً آخر.
السكرتير : أي لحن؟
الرئيس : لحن الأفيون وشراب الأفسنتين.
السكرتير : الأفيون وشراب الأفسنتين؟
الرئيس : نعم، أغنية خوليو فلوريس التي كنا نغنيها عبر تلك الليالي التي لا تنتهي من شراب الروم والسكر.
السكرتير : من المستحيل عزفها على مشط.
الرئيس : حاول ، فالمعدة المتخمة بالبراندي تجعل أي شيء يبدو جميلاً.
(يبدأ السكرتير العزف. ومن الماضي المفعم بالحنين تنطلق أصوات القيثارات).
(الرئيس يغني).
كي أتحرر من سحرك، يا حبيبي، أغرق جميع أحزاني في اخضرار الافسنتين.
وألمح في قعر الكأس الذي يشبه السماوات نظرتك الغاوية التي لا ترعوي
(يكرر المقطع)
وهكذا التقط غليوني.
وأدخن الأفيون الماسي المتلالئ من أجل تبديد كل أحزاني
وألمح في السحابة الصاعدة نحو السقف خيالك الجميل المستلقي
(يكرر المقطع)
ولكن، لا الأفيون، ولا شراب الافسنتين يحولان دون أن أنسى أنك ذات مرة كنت لي
وهكذا أسرع الخطى الآن الى فناء الكنيسة
أتوسل القندلفت ذا القلب الحجري:
يجب دفني في الحفرة لأصلي
بوسعي التحرر من حمى الحب هذه
بوسعي التحرر من حمى الحب هذه
(السكرتير يصفق بحماس تعبيراً عن استحسانه)
أغنية ممتازة حد الروعة، يا لعنة الله.
(يزداد تأثير الكحول سوءاً) تلك

الشهوات ملأت الليالي. كنا نقتحم القرى ونقضي على حثالات العدو ونختطف الفتيات. ليال تعبق بضراط الياسمين. (سكون قصير) مضى زمن، كان فيه الرجال رجالاً. تلك أيام الشباب، كنت أغمس نعالي في المستنقعات، وأطأ جزراً لم تكتشف (يصعد على الصندوق) تسلقت أعلى سلاسل جبال الانديز، حيث للهواء مضاء سكين القصاب، حيث تصحو على أبرد فجر على الأرض، حيث لا يعيش إلا النسر الاميركي الضخم. هبطت سهولاً لا تنتهي أبداً. أنا خضت أنهاراً عميقة كالبحار. أبحرت في مياه الغموض (ويغيب في نشوة حلمه) مبحراً.. مبحراً... (يجلس على الصندوق ويبدأ التجديف، السكرتير يراقبه مذهولاً) انحرفت بقاربي فجأة لأدخل نهراً، مياهه حمراء كالدم، (الى السكرتير) ماذا تنتظر واقفاً هناك؟

السكرتير : بلا سبب يا سيدي.

الرئيس : لا تقف هكذا كمن جنحت به السفينة، يا وغد. اقفز الى القوارب منطلقاً لاكتشاف أنهارٍ ماؤها من الكينين والمطاط ونخيل العاج.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : تعال وساعدني في التجذيف.

السكرتير : التجذيف سيدي؟

الرئيس : هيا، يجب أن تجذف، . جب أن تشتغل لتسديد نفقات رحلتك.

السكرتير : نعم سيدي.

(لا يبدي السكرتير كثيراً من الحماس، ولكنه يصعد على الصندوق ويتظاهر بالتجذيف)

الرئيس : هكذا، حافظ على وتيرة التجذيف الآن. يجب على المرء تعلم ركوب هذه المياه الغادرة.

(يبدو التجذيف وكأنه لعبة يمكن أن يمارسها الكبار أو الصغار، غير انها مثيرة للشفقة وتراجيدية)

الرئيس : ندخل الآن غابة سرمدية، أخشابها كريمة. دع العطر يسحر أنفك.

السكرتير : العطر سيدي؟

الرئيس : نعم، فالأخشاب تنظح العطر، تزخر بالأشذاء.

(يواصلان التجذيف)

الرئيس : حذار من الهنود الحمر.

السكرتير : الهنود الحمر؟

الرئيس : نعم. فهم يأكلون لحم البشر.

السكرتير : يا للهول.

الرئيس : هل ذقت لحم البشر ذات مرة؟

السكرتير (باشمئزاز) : لا، ياسيدي.

الرئيس : أنا ذقته

(السكرتير يشرف على التقيؤ)

الرئيس : كان علي التفاوض مع الهنود.

وحملت لهم هدايا براقة تزين ملابس النساء، والمرايا، وأقمشة من شتى الأنواع. ولقاءها أهدوني الغابة وللتصديق على الاتفاقية دعوني الى حفل غداء كدليل على الاحترام والصداقة العظيمين. وضعوا أمامي كتلة لحم من رجل مسيحي. حسن... ليس مسيحياً حقيقياً، كان هندياً.

السكرتير : وأنت ، أكلتها ؟

الرئيس : طبعاً، كي تبقى على قيد الحياة في الغابة تحتاج الى أحشاء النمر. وكان عندي أحشاء النمر وخصيتاه.

(سكون قصير. ينزل الرئيس من الصندوق ويستلقي على الأرض واضعاً رأسه على الصندوق. يتوجه السكرتير الى احدى الزوايا)

الرئيس : في ذلك الجحيم، الغابة لم تكن خضراء. كانت صفراء. لم تكن السماء زرقاء. كانت داكنة بلون البعوض. ولم يكن هناك هواء للتنفس، وكانت الغابة تزدحم بالبعوض الضخم (توقف قصير) الثالث من آذار ذاك، الثالث من آذار ذاك (يشرب) رأس الجسر الساحلي ذاك، كان مستنتقعاً من عالم غريب. حاولنا النوم قليلاً فيما يقض مضجعنا البعوض الصغير والخفافيش. وعندما طلع القمر،لم يكن مدوراً، كان يشبه لطخة، أو رشة ضياء على السماء. فجأة انفجر صوت مرعب. اندفع من الماء وكأن النهر في حالة غثيان (ينهض. كان يرتجف) ومن المياه قام الشيطان مجسداً يقطر سائلاً كريه الرائحة.

(السكرتير الخائف يتطلع اليه)

الرئيس : ورأينا شرراً فسفورياً يقترب منا. انه عينا أضخم تمساح منذ الخليقة. وهجم على المعسكر ملتهماً أي شيء في طريقه: المؤن، الأكواخ، وشباك الأراجيح، وعملياً جميع الأدوات واثني عشر رجلاً كنا قد استخدمناهم كأدلاء وحمالين. أطلقنا عليه نيران أسلحتنا، وكأننا نطلق النار على القمر (يختبئ خلف الصندوق). واختبأ أخي خوسيه في الظلام خلف جلمود هائل حسب ظنه، ولم يدرك بأن ذاك الجلمود كان ذيل الوحش. فجأة، التفت التمساح وفتح شدقيه... (يفتح أعلى الصندوق وبطانة حمراء مثل أعلى باطن فم الوحش تظهر) ،... (يغلقه فجأة) أطبق على أخي (يجهش بالبكاء).

السكرتير : يا للحظ التعس.

الرئيس : لا تستطيع أن تتصور كيف كان المنظر.

السكرتير : يا الهي. كلا.

الرئيس : تعال هنا، سأريك ماحدث (توقف قصير) هيا (يقترب السكرتير)

ادخل في الصندوق.
السكرتير : في الصندوق ، سيدي؟
الرئيس : نعم.
(السكرتير يدخل في الصندوق. ويحاول حشر نفسه داخله)
الرئيس : استند على الحافة.
السكرتير : على الحافة سيدي؟
الرئيس : نعم، ودع نصف جسدك معلقاً في الخارج.
(يفعل السكرتير ذلك، وينزل الرئيس الغطاء كما لو أنه شدق هائل للوحش. يئن السكرتير)
الرئيس : التمساح اصطاد أخي، ولأنه أكل الكثير قبل ذلك، لذلك لم يستطع ابتلاعه. وعلق هناك. وبين الحين والحين ينزلق التمساح في نوم عميق، محتفظاً بين شدقيه نصف جسم خوسيه، سحبناه وشددناه بكامل قوتنا، لكننا لم نقدر على تخليصه. حاولنا ذبح ذلك الحيوان الزاحف بكل طريقة يمكن تخيلها، ولكن من دون جدوى،
السكرتير : تراجيديا نتنة.
الرئيس : ولم أترك أبداً جانب أخي للحظة واحدة. كنت أحلق ذقنه، وأقدم الطعام له، وأبعد البعوض عنه. حتى جاءت ظهيرة أصرّ فيها أخي على شرب الروم. كنا نحتفظ بعدة قناني. لأن المؤن الضرورية كانت تجلب لنا بالقوارب من بويرتو. حسن كانت أكبر سكرة شهدتها، وفي خضم هذه العربدة الكحولية، مدّ أخي يده وعيناه تحدقان في عيني وقال: «أراك يوماً ما يا أوتيميو وبعدئذ انزلق في حلق التمساح واختفى.
(الرئيس يشرب. السكرتير لا يجرؤ على الحركة)
السكرتير : خسارة لا يمكن تعويضها.
(الرئيس يقدم له القنينة. يشرب السكرتير)
الرئيس الآن، لا ترتعب.
السكرتير : (بخوف جليدي) كلا، لست خائفاً أبداً يا سيدي.
الرئيس : لأجل هذا أقول ان الحياة تتطلب منك امتلاك خصيتي نمر.
السكرتير : نعم سيدي.
الرئيس : على المرء أن يكون مستعداً لكل زلزال.
السكرتير : نعم سيدي.
الرئيس : هل تعرف كيف مات وحيداً أعز أصدقائي؟ ذلك العالم الجنتلمان الأوحد (دون فرناندو توليدو).
السكرتير : في الغابة؟
الرئيس : كلا. ولهذا فالأمر غريب جداً. حدث ذلك في المدينة. لم يكن يغامر في الخروج من بيته أبداً. ولا حتى الخروج الى

زاوية الشارع. كنت أزوره مراراً لمناقشة مصالح العمل المشترك، مزارع المطاط مثلاً. كان يتاجر بالمطاط بأمواله، وكان سيداً على العديد من الهنود. كان من أكبر تجار المطاط برغم انه لم يضع قدمه أبداً في أية مزرعة. صباح أحد الأيام، أراني بقعة خضراء على يده. كانت البقعة صغيرة جداً، لم تكن أكبر حتى من البرغوث.

السكرتير : هل كان سقيم الجسد ؟

الرئيس : لا، كان ناحلاً قليلاً، لكن صحته جيدة جداً، كان في مثل طولك تقريباً.

السكرتير : مثل طولي تقريباً؟

الرئيس : نعم، نعم تقريباً (سكون قصير) حسن، لكن الأمر ان تلك البقعة بدأت تنتشر.

السكرتير : مرض جلدي؟

الرئيس : لا. كانت نبتة.

السكرتير : ماذا ؟

الرئيس : نبتة، نمو نباتي، يشبه اللبلاب ولكن أوراقها أصغر. وأخذ هذا النبات الطفيلي يمتد يوماً بعد يوم. وبرهنت جميع العلاجات على عدم جدواها. وجربوا حتى استخدام المشرط ولكن ذلك لم يوقف امتداد النبات. وتدريجياً لفه النبات الطفيلي تماماً.

السكرتير : وقتله؟

الرئيس : ربما حدث ذلك. لم نعثر أبداً على الجثة. اذ قام، هو الذي لم يغادر بيته أبداً، بالهرب الى الغابة وأخبرني بعد فترة بعض عمال مزارع المطاط في الأمازون انهم شاهدوا، في ليلة كان القمر فيها بدراً، شجرة يلفها نبات طفيلي تركض مارة بهم بين الظلال. وأصروا على القول ان الشجرة لم تكن تتحرك فقط بل كانت تعوي وتزعق.

(ويقطع على الرئيس مجرى الذكريات دوي انفجار مثل هدير مدفع. ينصت كلاهما باهتمام. الصوت الوحيد الممكن ملاحظته هو سكون ثقيل).

الرئيس : أعتقد أني أسمع الآن دمدمة الدبابات المتقدمة.

السكرتير : من الصعب جداً سماع أي شيء من هنا. فالأصوات لا تكاد تصلنا.

الرئيس : لابد انها عربات نقل المدافع التابعة للمدرسة العسكرية.

(يخطو الرئيس نحو الباب المسحور، ويرفعه ببطء وحذر كما لو ان جميع حواسه اختفت أسفل النفق الأسود. ينتظر متوقعاً شيئاً ما. ينظر السكرتير أيضاً الى فوهة النفق)

السكرتير : لاشيء، غير أصداء الريح فقط.

(الرئيس يفلت من يديه الباب الثقيل المسحور)

الرئيس : ماذا يجري في الخارج بحق الشيطان؟

السكرتير : من الصعب معرفة ذلك.

الرئيس : أمضيت حياة بطولها في السلطة، حياة كاملة، وفجأة لا أعرف تماماً ماذا يجري.

السكرتير : تلك هي الحياة.

الرئيس : ماذا حل بزوجتي يا ترى؟ (سكون قصير) البارحة، لم أكن أبالي. كنت أراها مثل قطعة أثاث. كرسي ذو ذراعين غدا عجوزاً بديناً. أما الآن: استرجعها تماماً مع الوهجات الأولى للغرام (يشرب بنهم).

السكرتير : عمتي شخصية رائعة.

(الرئيس كما لو انه لم يسمع ماقاله السكرتير، يقوم بجولة قصيرة. يتوقف عند أشياء الصندوق المتناثرة. يلتقط دمية الخرق ويتطلع اليها)

الرئيس : كنت أحبها عندما تزوجنا. المرة الأولى في حياة ذلك الجنرال اوتيميو ماروكين وقع في الحب (سكون قصير) المرة الأولى والأخيرة.

(أصوات موسيقى لرقصة قديمة كان يجري الرقص على أنغامها في قاعة الرقص تتسرب الى المخبأ،يلبس الرئيس الدمية ثوب العرس ويرقص معها. يتأرجح المشهد مابين الواقع وفصل من السيرك. يقوم اوتيميو ماروكين بدورة كاملة على المسرح كله مظهراً مهارة راقص من الطراز الأول. عند انتهاء الرقص، يجلس على الصندوق مع الدمية ويربت على احدى يديها).

الرئيس : لا فائدة من القلق. أعرف ان حصولنا على ولد سيجعلنا سعداء جداً، ولكن الجنرال اوتيميو ماروكين عقيم،مثل العديد جداً من الرجال العظماء في التاريخ.

(سكون طويل. وعندما يحس الرئيس انه مراقب في أشد لحظاته خصوصية، يتصرف وفقاً لذلك)

الرئيس : وفي أي شيء تحدق؟

السكرتير : لا شيء.

الرئيس : حاول ان لا تحشر أنفك فيما لا يعنيك.

السكرتير : نعم، سيدي.

الرئيس : ودع عينيك، عيني البوم هاتين، تتعاميان عما لا يجب أن تريا .

السكرتير : نعم سيدي.

(السكرتير في وضع محدد من الكرب، يقوم بالتطواف. يتوقف عند الدمية، ويلتقطها ثم يقذفها عالياً بقدمه ويكرر هذه الحركة مرات مختلفة من دون أن يدعها تمس الأرض)

الرئيس : سأقوم بتعليمك لعبة صغيرة يا بيب اربوليدا.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : لعبة رجل.

السكرتير : نعم، سيدي

الرئيس : تسمى الرجل الأعمى

السكرتير : أعرفها.

الرئيس أنت تعرف الرجل الأعمى المخنث، أنا أعرف الرجل الأعمى الحقيقي (سكون قصير) ستحبها. أحياناً، عندما تلعبها بمهارة، يموت أحد ما.

السكرتير : لا أفهم يا سيدي.

الرئيس : سترى ذلك فوراً. انها لعبة بسيطة جداً. يلعبونها في مجال مغلق. يوضع حجاب على عيني أحد اللاعبين، مع سلاح في يده، وعند الإشارة يبدأ اللاعب الأعمى يلفح الهواء بسلاحه. وفي نهاية فترة محددة، اذا لم يفلق رأس أحد ما، يحل أحد اللاعبين الآخرين مكانه.

السكرتير : لا أجيد مثل هذا النوع من الألعاب.

الرئيس : لا تبخس قدر نفسك يا بيب ابوليدا.

السكرتير : لا، يا سيدي.

الرئيس : يمكنك وضع الحجاب على عيني.

(يثبت السكرتير الحجاب على عيني الرئيس)

الرئيس : ناولني السيف.

(يضع السكرتير السيف في يده)

الرئيس : الآن در بي مثل القرص الدوار

(يمسكه السكرتير من ذراعيه ويدفعه للدوران)

الرئيس : كفى. سأبدأ الآن.

(يبدأ الرئيس بنشاط ببعض الطعنات بالسيف وبضربات كاسحة. السكرتير الذي جمده الخوف يأخذ بالتراجع على رؤوس أصابعه كي يتجنب الانكشاف. يتقدم الرئيس، يسبر الهواء ويطعن باستمرار ويغطي تقدمه المسرح بكامله. يتوقف أمام بعض المشاهدين، يرفع السيف ويهجم على الجمهور. يحدث تأثير صوتي كما لو ان شفرة السيف ضربت جداراً. يقرر السكرتير التسلل الى داخل الصندوق. وبعد انقضاء وقت والرئيس يسبر الهواء ويطعن عبر المسرح كله، يغدو مرهقاً بحيث لا يستطيع المواصلة. ينزع عنه الحجاب. يتلفت حوله ليعثر على السكرتير فلا يجده. واذ يشعر فجأة بالوحدة، يسوط عموده الفقري من أعلاه الى أسفله احساساً بالذعر).

الرئيس : (صارخاً) بيب اربوليدا.

(يرفع السكرتير غطاء الصندوق فتظهر يداه)

الرئيس : كان علي أن أعرف ذلك، أنت

بشجاعة القملة يا جبان.

السكرتير : الآن، جاء دوري للعب.

الرئيس : لعبت مافيه الكفاية.

السكرتير : لكن...

الرئيس : (مقاطعاً) قلت كفى.

السكرتير : نعم سيدي.

(سكون قصير. يرتدي الرئيس سترته العسكرية ويحكم اغلاق الأزرار بعناية. يعدل شعره الى الوراء بأصابعه، ويضع قبعته الناتئة على رأسه ويقف من دون حراك. سكون طويل)

الرئيس : (محدثاً نفسه) لماذا يؤخرون الهجوم؟ (سكون قصير) لا يستطيع المتمردون الصمود. في المرة الأخيرة استطعنا اللجوء الى السفير الاميركي كوبرلتقديم المساعدة.

السكرتير : سيفعل كل شيء ممكن لتقديم المساعدة.

الرئيس : صحيح، فقد أبدى لي دوماً احتراماً عظيماً. وقلدني نصف دزينة من الأوسمة وكاد يطلق علي لقب مواطن شرف في الولايات المتحدة.

السكرتير : يجب أن نمكث هنا وننتظر.

الرئيس : وننتظر.

السكرتير : نعم.

الرئيس : ربما كان أخي محقاً حين قال: «من ينتظر أملاً ينتظر بلا جدوى».

(سكون طويل)

السكرتير (هامساً) : خالي.

الرئيس : خالي؟ لست خالك. أنا بالنسبة لك السيد رئيس الجمهورية.

السكرتير : السيد رئيس الجمهورية.

الرئيس : ماذا؟

السكرتير : هل بامكاني أخذ رشفة؟

(يتطلع الرئيس الى القنينة)

الرئيس : لا. القنينة فارغة تقريباً.

(ويتخذ السكرتير موقفاً مابين السخط والحزن)

الرئيس : ولا تحدجني بنظرات قذرة، لا تزعجني.

السكرتير : ماحدجت أحداً بنظرة.

الرئيس : من نظر الي بعدم احترام يندم على ذلك، ان يدي لم ترتعش أبداً عند عقاب المسيئين لشخصي وللأمة.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : فسواء كان الفعل بادي التفاهة أو كان تمرداً تاماً شنقت أولئك الذين أطلقوا نكتة بذيئة واحدة ضد الحكومة، وكذلك أولئك الذين رفعوا مواسير بنادقهم نحو صدري.

السكرتير : نعم سيدي.

الرئيس : انها الطريقة الوحيدة للحكم. يد حديدية في قفاز فولاذي أما الباقي فهو مجرد زبالة.

السكرتير : سألتك رشفة واحدة فقط.

الرئيس : وأنت لن تحصل عليها.

السكرتير : حسن، دعنا لا نتنازع حول ذلك.

(سكون قصير)

الرئيس : تجرأوا على التمرد ضدي، على القيام بثورة. هل شاهدت الرعاع الذين غزوا القصر؟ مجرد قطيع مبتذل، عصابة اجرامية من الأجلاف والبنادق في أيديهم. لم أتصور أني سأعيش لأرى هذا.

السكرتير : انقلب العالم على رأسه.

الرئيس : (يتناول السيف) أنا، المنتصر في ألف حرب، مازلت أتذكر معركة بالوفيردية عندما هزمت ترافقني زمرة من حاملي البلطات أعداء النظام، والمسيح، والأمة.

(يؤرجح السيف في المخاريط الورقية التي استخدمت كقنان. تدريجياً يكتسب ضراوة كوميدية ويواصل باضطراد حش الورق والخرق التي تتطاير في الهواء مثل طيور جريحة. فجأة، من دون وعي، يطعن الدمية التي تبدو وكأنها تقفز نحوه. يتصارع الرئيس مع الدمية كما لو انها تحولت الى عدو لدود. فجأة، وبعد سقوطه على الأرض والدمية فوقه مثل مصارع طرحه أرضاً، يتدحرج الرئيس وهو ينخر. واذ يصاب باليأس يخرج مسدسه ويطلق خمس رصاصات في الدمية. يحل صمت طويل وثقيل. تعود موجات السكر، ويحدث صفيراً حين يتنفس بجهد، ويشرب آخر قطرة من البراندي).

الرئيس : لقد نفذ منا الشراب (يتطلع الى خزانة مسدسه) عندي الآن رصاصة واحدة فقط. (تتسرب حزمة زاهية من الضوء ببطء من خلال كوة السقف. الفجر يجن والديكة تتصايح).

السكرتير : (متثائباً) : لقد طلع الفجر.

الرئيس : (ينظر الى الكوة) : ومن هذا الشق، لا نستطيع الا رؤية شعاع الشمس.

(يتوجه السكرتير الى الصندوق، ويأخذ أحد الملابس النسائية ويتمدد على الأرض مغطياً نفسه بالثوب كما لو انه بطانية ويغرق في النوم حالاً).

الرئيس : بيب اربوليدا.

(السكرتير يدمدم ثم يواصل النوم. يذهب الرئيس اليه ويركله. يقفز السكرتير متشبثاً مايزال بالثوب الذي يغطي جسده من الأمام. الصورة تشبه أرملة قروية رثة الملابس. يواصل الرئيس ضربه)

السكرتير : لماذا تضربني؟

الرئيس : لن تنام الآن يا بيب اربوليدا.

السكرتير : لا أقدر أن أواصل. استسلم جسدي للنوم.

الرئيس : (يتلقاها بمعنى آخر) لن يكون هناك استسلام.

السكرتير : أنا مرهق.

الرئيس : لا يهمني ذلك.

السكرتير : لا أستطيع البقاء بلا نوم.

الرئيس : النوم شكل من الفرار. لا تستطيع الهرب وتركي وحيداً تماماً في جحر الفأر هذا. لن أسمح بذلك. إني أنا الجنرال اوتيميسيو ماروكين، أنا رئيس الجمهورية، ولا حقير يتركني وحدي هنا أبداً.

(الرئيس يوجه صفعة للسكرتير، الذي يرد عليه بصفعة بشكل ميكانيكي. يصاب بالانصعاق لادراكه رد فعله يحملق الرئيس مغضباً في عيني السكرتير للحظة ويصفعه ثانية باهتياج. ينظر السكرتير في عيني الرئيس للحظة، بعدئذ يبتسم لأول مرة في حياته ويرد بصفعة أخرى. الرجلان مثل ديكين يستعدان للعراك)

الرئيس : أنت تعرض حياتك للخطر يا بيب اريوليدا.

السكرتير : لا تهددني.

الرئيس : سآمر باطلاق الرصاص عليك.

السكرتير : لقد تحملت مايكفي، لن يأمرني أحد بما أصنعه بعد الآن.

الرئيس : سآمر باجلاسك على الخازوق حتى الموت.

السكرتير : قاتل خسيس.

(يهم الرئيس بتوجيه ركلة يتجنبها السكرتير).

السكرتير : أنت جلاد من الدرجة الرابعة.

الرئيس : اخرس.

السكرتير : قبل أربعين سنة كنت تقوم بتنظيف مبولة الجنرال المناريس.

الرئيس : يا حية الأجراس.

السكرتير : وأنت ابن سبعة آباء.

(يندفع الرئيس نحوه ويتبادلان بعض اللكمات. ورغم عمره مايزال الجنرال يحتفظ بقوته وبشيء من رشاقة الحركة. ولكن ضربة مفاجئة من السكرتير تؤدي الى اسقاطه).

الرئيس : (كما لو انه ينزف دماً من فمه وأنفه) يا ابن العاهرة. يا مأبون.

السكرتير : أنت ابن العاهرة.

(يندفع الرئيس نحو السكرتير وهو يزأر)

الرئيس : لقد كانت دونيا اتونسيانسيون اسلافا دي ماروكين قديسة. كيف تجرؤ على تلويث اسمها بشفتيك.

السكرتير : كانت امرأة مبتذلة في الجيش تبيع جسدها مقابل ربع قنينة من شراب الروم.

الرئيس : كانت سيدة. انها نوع من السيدات لم تشهدها هذه البلاد أبداً. سيدة عظيمة مثلها.

السكرتير (بسخرية) : نعم، هذا القصر

ذاته رأى تلك السيدة العظيمة تزحف في الممرات. يتعتعها السكر.

الرئيس : (صارخاً) : أنت كذاب.

السكرتير : بل صحيح. أوهل تنكر أن تلك العجوز التي تشبه الخفاش هربت أثناء الحروب من القصر لتمشي مجهدة في أعقاب الجيوش الجوالة، تستجدي الكحول مقابل لحمها المتغضن.

الرئيس : ستدفع ثمن هذا . ستلعن اليوم الذي ولدت فيه.

السكرتير : وكنت مثل المهبول الهاذي تبحث عنها في أرجاء البلاد.حتى تم العثور عليها على ضفاف أحد الأنهار بعد أن جرفتها المياه، وقد التهمتها الصقور. ولذلك أخذت بالقبض على تلك الصقور التي أبقت في أحشائها جسد أمك. ومن أجل ذلك هربتَ الصقور الى داخل القصر، وأغلقت عليها غرفة نوم أمك الراحلة.

الرئيس : ستدفع بدمك ثمن كل كلمة قلتها، وسيجري الدم ثخيناً.

السكرتير : وأعدمت الذين شاركوا في تلك العملية كي لا يعرف أحد بذلك وبدأت أنت بالقول ان الضوضاء الصادرة من غرفة النوم تلك هي من صنع أمك العجوز، وبأن هذه الضوضاء ستستمر الى الأبد، لأن أمك ستعيش الى الأبد.

الرئيس :.(بصفاء غريب) إن دوينا انونسيانسيون اسلافا دي ماروكين أزلية. إنها خالدة.

السكرتير : وأنت تعرف أن المتمردين عندما يحطمون باب تلك الغرفة المثيرة لن يجدوا إلا نوعاً من الصقور. (يوجه الرئيس لكمة إليه ولكنه يخطئ. يمسك الخصمان ببعض ويحاول أحدهما طرح الآخر على الأرض. ويرفس الرئيس كاحل السكرتير مسقطاً إياه، ولكن السكرتير يتشبث بالرئيس حتى يسقطا معاً على الأرض وهما متعانقان).

الرئيس : حان الوقت لاستخدام مخالبنا، أيها السافل السقيم.

السكرتير : لقد صرفت عمرك كله تلحق المذلة بالعالم أجمع. والآن ماأنت الا مأبون مثلي.

الرئيس : لست مأبوناً، ولم أكن مأبوناً أبداً، ولن أكون مأبوناً يوماً ما.

السكرتير : أيها العفن.

الرئيس : سآمر بجعلك تتوسل المغفرة على ركبتيك.

السكرتير : أنت حقاً جلف معي لكنك دوماً كنت تلحس عجيزة السفير كوبر.

(ينقلب الرئيس عليه ويبدأ بالسيطرة عليه. يغرز السكرتير أسنانه في يد الرئيس. يقف الرجلان. ويواجه أحدهما الآخر. ينزع الرئيس ببطء الحزام الجلدي من حول بنطاله)

الرئيس : سأجلدك، أجلدك حتى الموت.
(يندفع الحزام في الهواء محدثاً صوتاً كحية الأجراس. يتراجع السكرتير الى الوراء، ويعدو بخفة هناك وهناك مثل دجاجة في مصيدة، لتجنب الجلدات المتنوعة. وعندما تلسعه واحدة من الضربات، يمسك السكرتير بالحزام ويجره. ولكن الرئيس لم توهن قواه. ويدخلان في وضع يشبه لعبة شد الحبل. ويبدأ الرئيس من جانبه بارخاء الحبل ثم يندفع فجأة بركلة تنزل على خصيتي السكرتير فيتضاعف بذلك ألمه).
السكرتير : (لاهثاً) : سأقتلك. سأقتلك.
الرئيس : (يلبس حزامه من جديد بتأن وجلال) : كلا لن تفعل ذلك. أنت جبان.
السكرتير : ستدفع ثمن كل الإهانات التي جعلتني أتحملها.
الرئيس : أنت شخص تافه على الدوام.
السكرتير : دمرت عائلتي.
الرئيس : الناس تدمر نفسها جراء عجزهم الحقيقي.
السكرتير : انتحر أبي عندما استوليت على أراضيه.
الرئيس : كان رجلاً سافلاً، فقد بقي كل شيء في العائلة.
السكرتير : وماتت أمي كسيرة القلب.
الرئيس : لا يموت أحد جراء ذلك.
السكرتير : هاك الآن سيدة عظيمة حقاً. انحدرت من عائلة نبيلة.

الرئيس : سيكون تنفيذ اعدامك يا بيب اربوليدا مشهداً استثنائياً تماماً. سيجري في الساحة الرئيسية شنقك مثل جميع الخونة. الجميع سيحضرون هناك. وحتى أطفال المدارس الذين سيقذفون الزهور في الهواء كإشارة لبدء الإحتفال. وسآمر اوركسترا السمفونية الوطنية، بأن تعزف شيئاً ما، شيئاً ما خفيفاً ومتسارع الإيقاع كي نرقص عليه.
السكرتير : قلاع في الهواء.
الرئيس : قلاع في الهواء؟
السكرتير : عندما تخرج من هنا، سيكون المتمردون في انتظارك. وسيرغبون بتصفية بعض الحسابات معك.
الرئيس : لن أتحاسب مع أحد ماعدا الله القدير.
السكرتير : سيحاسبونك على كل الفلاحين الذين قتلتهم.
الرئيس : لا تدفعني الى الضحك.
السكرتير : وستنكشف صفقاتك مع السفير كوير.
الرئيس : أية صفقات؟
السكرتير : كدت تبيع الشعار الوطني لليانكي.
الرئيس : أنت لست المدعي العام علي.
السكرتير : الذين في الخارج سيجعلونك تدفع الثمن. (توقف قصير) ياحرامي.
الرئيس : ماذا؟ أعد ذلك ثانية اذا جرؤت.

السكرتير : ياحرامي.
(يهجم الرئيس على السكرتير الذي يقفز ويواجهه. يتبادلان عدة لكمات. ولآن السكرتير يصاب بالإخفاق بشكل سيء، يتوجه الى السيف بسرعة البرق بعد أن يقع نظره عليه.
السكرتير : (ملوحاً بالسيف) سأقوم بقتلك يا اوتيميو ماروكين.
(يوجه السكرتير عدةطعنات متنوعة الى الرئيس الذي يأخذ بالتراجع. وفجأة يصاب بجرح خفيف على كتفه. يجتاح الرئيس شيئاً فشيئاً خوف غريب. تصبح حزمة الضوء المتسربة من الكوة أكثر زهواً. يواصل السكرتير الاندفاع بالسيف. عندما كان الرئيس يتراجع يعثر بالصندوق ويسقط. ويستعد السكرتير لقتله ولكن الرئيس يخرج مسدسه ويعاجله بطلقة. السكرتير الجريح يقف في مكانه. ينهض الرئيس ويتراجع. يبقى الرجلان بلا حراك. ضوضاء صفير تصدر من السكرتير. سكون طويل. ثم فجأة يُسمع بوضوح صوت معدني. يتطلع الرئيس في كل الاتجاهات برعب. ثم تبدأ ستارة فولاذية بالانزلاق على كوة السقف بضجة داوية. الرئيس الذي ينتابه قلق كبير، يتراجع بخوف القوارض. يقفز فجأة باتجاه الباب المسحور. يحاول فتحه، لكنه يكتشف أنه أغلق بإحكام. يواصل محاولات يائسة لفتح الباب المسحور من دون نجاح. ينهار من اليأس.
السكرتير (لاهثاً) : انك ميت.
(ينظر الرئيس بخشية)
السكرتير (يبتسم لاكتشافه شيئاً ما بهيجاً) : هذا ليس مخبأ، هذا واحد من القبور التي بناها الجنرال المناريس لعاهراته (سعال. يريح رأسه على الصندوق) المتمردون دفنوك حياً أيها السيد رئيس الجمهورية.
الرئيس : اخرس!
السكرتير : الموت الآن يفوح منك. نهايتي ستكون سريعة. أما أنت مقبور بين الجدران. ستكون آلامك طويلة ستموت لوحدك تماماً.
الرئيس : اخرس. اخرس.
السكرتير : (سعال، وعلامات الألم تظهر عليه) حسن، لست وحدك تماماً. سترافقك جيفتي ستموت بالصحبة العفنة مع جثة (يبتسم، وتشع عيناه نحو الرئيس كما لو انه ينعم فجأة بصحة جيدة) نهايتك ستكون مرعبة. لم تعد هناك رصاصة في مسدسك.
(يريح السكرتير رأسه ببطء على الصندوق كما لو في حركة بطيئة. يتوجه الرئيس اليه ويتأكد من موته. فجأة ينطفئ الضوء ويحل ظلام مطبق).
الرئيس : (صارخاً) : الضوء. لا تأخذوا الضوء. لا تأخذوا الضوء (عواء) لا تأخذوا الضوء.

"سير التيه" لمخلص خليل

صادق الصائغ

عام ١٩٨١ ظهر ديوان رسائل أوانيس" في بيروت ليشير الى شاعر عراقي آخر لم يُسمح له نشر نتاجه في بلاده، فالديوان الأول المعنون بـ "هجرات أولى" والذي كتب سعدي يوسف مقدمته صادرته السلطات قبل أن يخرج من المطبعة، مع أن قصائد الديوان كانت "مبهمة" كما قال تقرير الرقيب كان هذا اشارة الى الأزمة العامة التي تعيشها البلاد وإشارة أخرى إلى انتشار جُذام العبودية في نظام الأدب وتجذر الفكرة القائلةبضرورة الحكم على الأدب والأدباء استناداً على "النيه" وليس النص المكتوب. وبالطبع فقد ظهرت أعاجيب كثيرة في هذا الحقل. وقد غصَّ الوسط الشعري بأسماك ميتة تعبر عن ذوق النظام، وعن ما يمكن أن يفعله بالشعر بشكل عام. ولم يكن مخلص خليل الذي تعرف على نفسه في الشعر وتلمس حقائقه من الداخل مقبولاً لدى هؤلاء، وكان هو من جانبه كتوماً ومتوجساً، لذا وضع كغيره داخل ارهاب صامت.

اليوم تثار أسئلة حول الأجيال وتجري محاولات للتنقيب عن الشعر والتعرف على معادنه التي لم تمحوها السجلات، وبين كثيرين يظهر اسم مخلص ثانية ويظهر ديوانه الثالث "سيرة التيه" مذكراً باستمرار الحظ النكد رغم تبدل الظروف. وفي رأي كثيرين فان للمخص الكثير الذي يميزه، وأكثر ما يؤكد حضوره هو تطابق نسقه الواحد في دواوينه الثلاثة: رسائل أوانيس و مدن أخرى" و"سيرة التيه"، ففي كل هذه الدواوين تلفتنا نكهة فنية معينة قابلة للمتابعة، وفيها يختلط صوت الشاعر باخفاق لعبة لم تتم وبفشل محاولات الاتصال الانساني وبتوبيخ الضمير، وهذه على الأغلب هي عوالم مخلص التي يبدو هو داخلها أشبه بمركب غارق.

قصيدة مخلص داخلية، وقد يبدو للوهلة الأولى أنها مغلقة الى حد ما وأنها خرجت من شريحة سعدي يوسف الذي كتب، كما قلت، مقدمة للديوان الأول: ليضعه في منطقة الاعتراف الجاد من قبل وسط ينكره. لكن قرابة الدم وحدها لا تحدد خصائص

الأفراد في العائلة الواحدة، ولقد حصل مخلص على حريته الشعرية بكدّه وتمكن من تحديد وحدة شعرية تخصه. ومن خصائص قصيدته انها مكتوبة باعطيات روح تلتصق بالجلد تجتذب القارئ وتحركه من الداخل بسبب كثرة الحواس المستعملة، خاصة الحاسة البصرية والسمعية، وانك لتتعرف فيها على مفاصل خاصة للشكل وعناصر هندسة وأحكام في التصميم، وبها بالاضافة الى ذلك ميزان داخلي ينفتح على موضوع. وقد تنغلق هذه الخصائص في وجه القارئ في بعض المواقع مختنقة بما هو شائع ومتداول وغامض، كما قد تتأطر بـ "نمذجة" ما، لكننا، في كل الأحوال، لا نخطئ في التعرف على قصيدته اذا حدث أن تُحذف منها اسمه.

تعتمد قصيدة مخلص، على الأغلب، الاشارة الصامة والبوح القابل للتأويل، مما يدفع القارئ الى البحث عن سر اخفي عنه بحذر، وغالباً ما يرافق ذلك تمويهات لوجهة السير، أو حيرة حقيقية مستسلمة لوقائع الخارج، فلا مخرج لها الا بالبقاء في الداخل مسحورة بقوة لا تستطيع مقاومتها. ولا يظهر من هذه الرؤية الداخلية المرسومة بقلم رصاص الا شحوب هادئ يختلط بالرسم وقد ينمحي باعتباره حلماً.

وزاوية نظر مخلص تنطلق دائماً من الهجرات التي هي الناتج الأول للعسف الواقعي والروحي الوجودي. ولقد وُضع مخلص، كجيله، على مفترقات طرق، وكان ثمة وجود وأعمال لم تتم، وفي كل مرة تظهر البيوت التي هي رمز، على مسافات بعيدة، بل ومستحيلة:

بيوت على الرمل تُمحى
وبيت على الهجر
بيت على الرابية..
البيوت على دأبها
لها أنبياء ونسل من النزلاء
يضلون أو يغرقون.

طبعاً البيوت هنا هي بيوت بيروت، اذ لا بحر في بغداد. ولا يبدو المشهد وكأنه حياة جامدة Still live موضوعة أمام رسام، غير أن المشهد يتحرك بضربة درامية تقع دائماً في نهاية القصيدة عندما يشار الينا بأن لهذه البيوت مصيراً مكرراً هي أن تُمحى وأن أنبياءها يضلون أو يغرقون في البحر. وهذه على الأغلب خاصية قدرية تحدث في الشرق المستبد. ونلاحظ، عند مخلص، أن البيوت التي على البحر تتلون بألوان محلية، بالوضع الذي يعيشه المنفي، كما يتلون الغموض بالحادث والزمان والمكان. وفي هذه الحالة يتسنى للقصيدة الانتشار، منتقلة من الخاص الى العام لتعبر عن نزوح وجودي أيضاً... وهذه

"الثمية" هي المحور الذي ينسج عليه مخلص عوالمه بعد أن يمهد لها بمشاهد حياتية يومية.

بيوت لا شبيه لها
لا نخيل
ولا أمٌّ كي يتناهى
الصبي الى سرها وينام ..
فأن بلغت في النزوح التعدد
قد تكتفي بسرائرها القش
أو قد تظل على أرضها
وأظل على غير أرض.. الخ.

وكما في القصائد الرومانتيكية فأن الماضي صاف وبرئ، واذ ينقله المد الى الذاكرة تنحلّ الكلمات والألوان والرؤى ويصبح الوهم نسيجاً مخموراً بالنشوة وتصعد من نوستالجيا الغناء لتصنع من الوهم اهرامات ومن القصيدة منظراً حالداً. ومع ذلك فهذا النوع من الصوفية محبوب وواقعي، لأنه بانفصاله عن الواقع لا يتقصد الغياب بقدر ما يسعى الى تقصّي بُعد داخلي فيه، وهذا بعض ما يجتذب في قصيدة مخلص التي تبدو مشوشة في العين، لكنها ساعية في نفس الوقت الى الامساك بـ "موضوع" موجود داخل هذا التشوش.

اللغة الشفافة تنتج متوازيات وتصوفها يكفي لاشباع حالة تعلو وتهبط كمد وجزر:

حين أعلو اليك
وحين أحاذيك تغدو سحاباً
هل ترى شبت بي تتصابى؟

في قصيدة "المقهى" نموذج آخر للسر الذي يهب القصيدة حيويتها دافعاً القارئ الى استجلائه. ومخلص يوزع هذا السر على أنحاء القصيدة باقساط. وكالعادة يتجسد المشهد البصري بفرشاة هادئة وموزونة الى أن تغيب الصورة الظاهرية للمقهى البيروتية وتظهر محلها مقاهي وبيوت بغداد. الـ Still life يتحرك ثانية. والغيمة البرتقالية التي هي المقهى تتكشف عن وطن محاصر مغيب بالقصف:

غيمة وحدها
وهي الملجأ الفرد
فلندخل الآن
قد ندعيها شبيهاً

بمضطرب في الرصافة
قد ينفث الرمل أسراره
قد تطال الصبي نوارسه
غيمةٌ برتقالية
وحدها في الرصيف
هي الملجأ الفرد
في شاطئ الرمل
والقصف كان يغيبنا صامتين.

لا توجد في لغة مخلص نتوءات ولا شوائب. لا توجد هزات مفاجئة وليس للعبارات اليومية والكلمات العادية أن تشوش هدوء قصيدته، كما لا توجد بلاغات محافظة أو زخارف زائدة. فالقصيدة يتحكم بها تصميم محسوب، وغالباً ما تسير على شكل متوازيات أو دوائر، يمكن بالتعود عليها والاقتراب منها قياس حجوم ذبذباتها ومساحاتها الهندسية. ويسهم بحر المتقارب الذي يعتمده مخلص في أغلب قصائده على تحسيس القارئ بوجود وحدة ايقاعية منمذجة" تعيق أحياناً حرية القصيدة وتحجز قوتها الانطباعية في الانتشار على سطح الورق. ولعل هذا ما يجعل مخلص يكسر حائط انغلاقه ليحاول شيئاً آخر في قصيدة النثر. ومن ميزات هذه القصيدة من حالاتها الناجحة انما توسع الاختيار وتكثف قوة الصمت التي هي احدى خصائص مخلص في قصائده الموزونة وتفسح مساحة أوسع للتأويلات. وفي الحالتين نجد أن مخلص لا يحتاج الى قاموس واسع، فحاسته البصرية كافية، وهي لا تحتاج إلى بلاغيات كثيرة، وعن طريق تحريك المشهد البصري وتحوير زاوية النظر يتشكل نسيج حياتي مشبع ومغذى بجماليات البحور. مع ذلك ضاق مخلص ذرعاً بـ "المنفى والقافية" كما ذكر في احدى قصائده وها هو يجرّب منحى آخر.

يدخل مخلص قصيدة النثر في "سيرة التيه" بشكل كامل مركناً عدده السابقة الى جانب، معتمداً منظوراً أبيض وجملاً في حالتها الخام، وليس في داخلها ايقاع مسبق يُوَلِّد له شحنات شعرية مسبقة. أقول يدخل مخلص هذا العالم، مدفوعاً بحس المغامرة التي تشير بعض قصائده الموزونة إلى أنها موجودة، لكن بحالتها الكامنة والمكبوحة.ومغامرته هي أنه يتخلى عن ما يملك ليواجه الاشكالية التي تواجه آخرين. فقد تفشل التجربة وقد لا تشتعل العناصر المستخدمة في هذه القصيدة بين يدي مذكيها.

وأول ما يلاحظ هنا أن "الموضوع" ينحسر لصالح تجريدية نسبية دون أن يعني غيابه تماماً، على الأقل الطبيعة بمفرداتها تنحسر هنا بشكل حاسم، فلا نجد اثراً للعشب والحصى

والشتاء والغصن والضباب والبحر التي هي جزء مهم في قاموس مخلص السابق وجزء مهم في عناصر الغناء المعتاد. وفي اختياره لجعل الكلام يولد في الفراغ الأبيض، من الصمت المُغَنّي أو التجريد العاري، حيث يفترض قراءة ما هو موجود، وبالأخص ما هو غير موجود في النص، وحيث لكل شاعر، ثمة أراض لا يُقترب منها، أو لا يعرف كيف تُوصف، أقول في اختياره هذا، يدخلنا مخلص في ما نعتقده انه غير متلائم مع الحالة الجديدة. ولا نعني هنا النوع، بل المستوى قياساً بسابقه.

كما في أغلب قصائد النثر ينشأ كلام غير مترابط، كلام بين بعضه مسافات، ونقلات مفاجئة يوقظها الحدس، وفي كل لحظة تنجرف العناصر عن مسارها لتتشكل حالة لم تكن موجودة سابقاً، غير أن ما يحمي هذه القصيدة هو وجود بؤرة توحّد الغرائب وتعطيها منطقها وكيانها الجديدين وفيهما تتجمع الشحنات الشعورية والذهنية ولا يعود الغموض لغزاً، بل حالة تركيبية موجودة في الواقع.

مثل هذا النجاح لا يتحقق كثيراً، وكون العكس هو السائد يحول قصيدة النثر عن طموحها فتصبح عقيدة ضيقة أو سجناً. ان مخلص الذي تستهويه شفافية الغموض يرمي شباكه في المساحة الواسعة لقصيدة النثر ليخرج بأسماك قليلة. هناك مقاطع جزئية يستدعيها حسّه المرهف بالمشهد البصري، وهناك تركيبة وزوايا نظر متعددة، لكننا من ناحية أخرى نحسّ بصعوبة ذوبان كل العناصر داخل وعاء واحد، صعوبة جمع التفكك في بؤرة وبالتالي فان الهزات الشعورية التي تنطلق من هذا المكان أو ذلك لا تنجح دائماً في اصابة الهدف:

مازال الجواد الأسير يتمتم باسم جدته
مازال أولئك الملثمون
بأصدافهم القريبون من القيدوم
الغاربون يوم الجائزة
مازالت تلك الوهاد السليطة
التي لا مهر لها ولا حافر
مازال السور كما سيجوه
والحجارة كما هبطت
مازال معي مبضع الصخر - هنا - عندما يهمسون.

يظهر أيضاً - وهذا شيء طبيعي بعد كل الذي حصل - تحوّل في زاوية المنظور النفسي، فمخلص المشبع بحرارة الغناء المفتون بالطبيعة المستسلم والباحث الدائم عن قطب روحي يفنى فيه ينتقل الى موقع العصيان، يقاوم الخبث الأرضي بخبث آخر، يبدي استعداداً

لتشويش اللياقات ويجيب على الأشياء بـ "لا" دائمة.

ينهر لوكار شاعره المحبب بالقول:

المرأة ليست خضراء"،

التفاحة ليست صفراء

كما ينهر أمه قائلاً:

لا حاجة للتضرع للرب

لكي ينقذني

فقد كبرت كما تريدين

وفي مرارة يردد:

الغيمة طاعنة،

الدوري أحمق

وينتهي همسه القديم بعلو نبرة غير معهودة في أدائه.

هذا الانعكاس النفسي يشير، بعد أن تلفت البيوت والأفراد والوطن، الى أن ما يتلف الآن هو الحياة نفسها. ومخلص، في محاولة منه لحماية نفسه، يتسبب بقصيدة معذبة قد تتحطم بين يديه أو تنبجس من تلقاء نفسها لتهبه السلام الذي ينشده.

معرض كاظم الخليفة «مسودات حرب»

فاطمة المحسن

أقام (كاليري الأربعة) في لندن، نهاية آب، معرضاً شخصياً للفنان العراقي كاظم الخليفة، وكان عنوانه «مسودات حرب» وهو مجموعة لوحات أنجزها الفنان أيام حرب الخليج، وأعاد مراجعتها مستخدماً وسائل غير تقليدية في أدوات شغله وفي زوايا إلتقاطه.

الحرب هنا تسجل بعين يوجهها حدث غير منظور، حدث يفتقد ملسمه الحقيقي ورائحته وفجيعة حضوره العيني، وتنوب عنه ذاكرة تنتمي الى ألم تلك اللحظة التي شاهد فيها المغترب بلده على شاشة التلفزيون وهو يقوض أحجاراً.

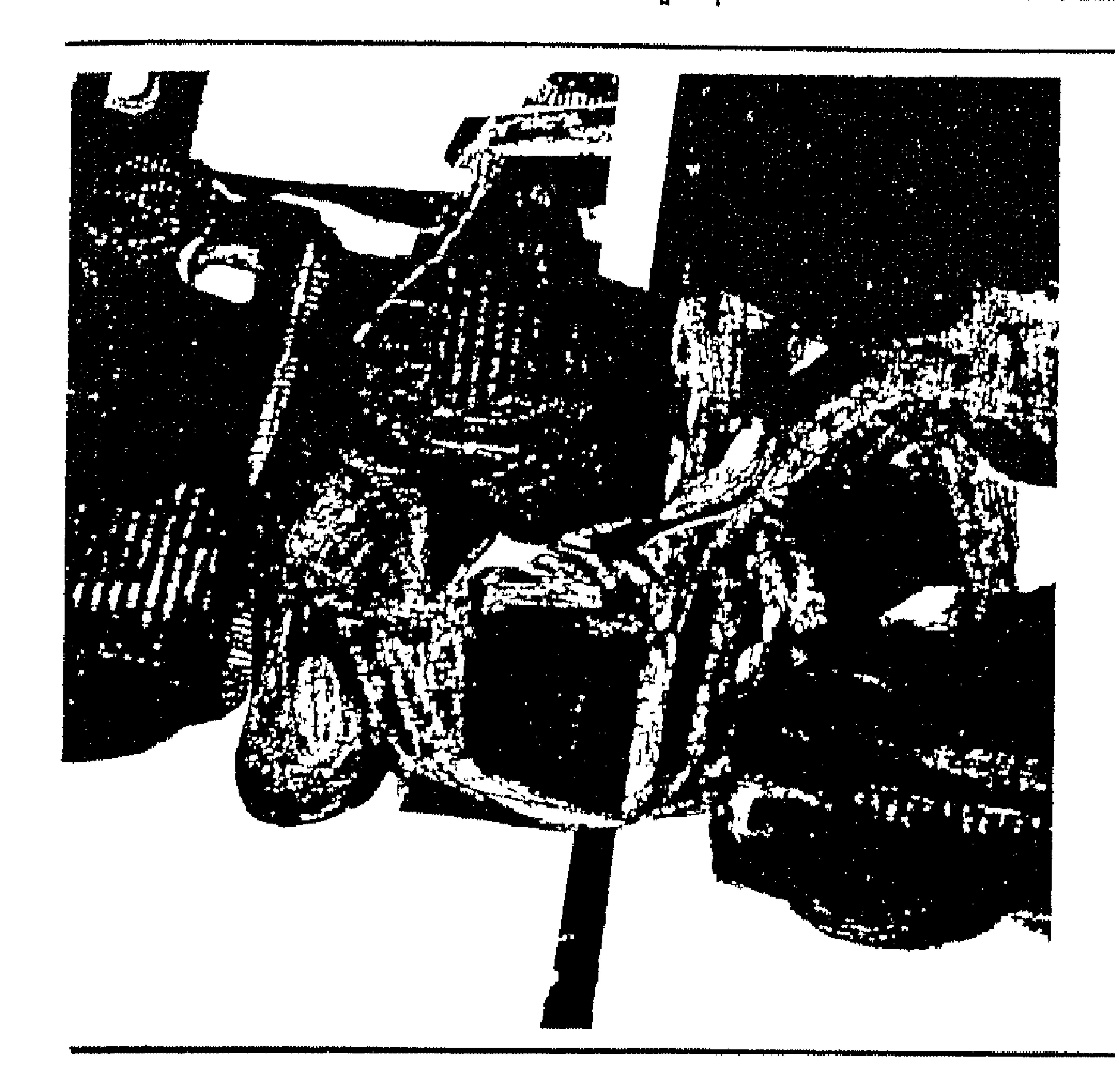
إن الفنان يعطي أهمية لتصور الزمن الساكن ، الذي ينوء بثقل الشعور بالوحدة، وبصمت الانقطاع عن الحياة الضاجة للوطن. عزلة الغريب وعيّه عن النطق بكارثة تأتية ككتلتملسا ء تثقله بالهم.

وكاظم الخليفة خريج أكاديمية الفنون الجميلة سبق ان عرض ببغداد مرات عديدة، غادر وطنه في العام ١٩٧٨ .

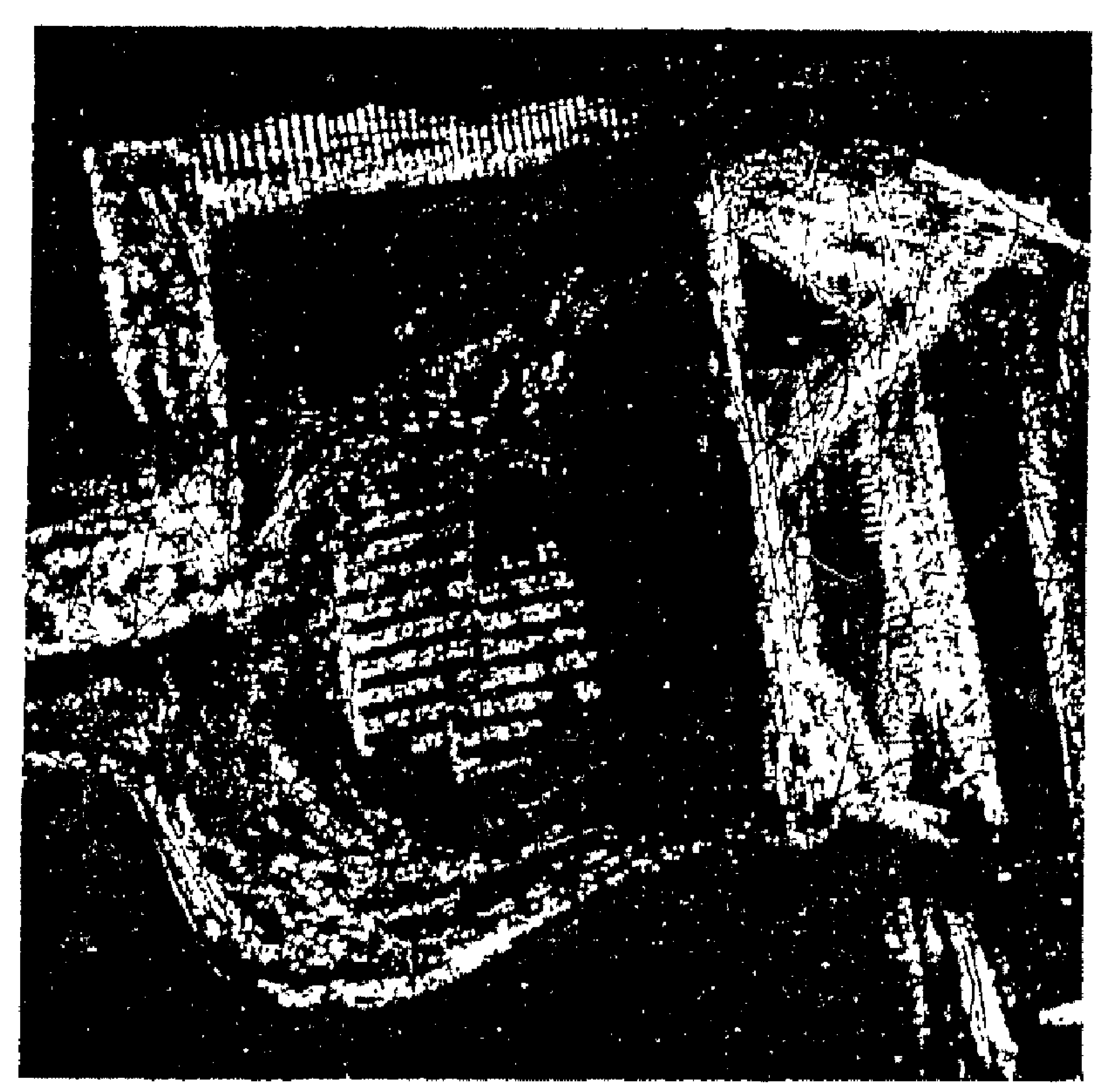
وأقام معارض مشتركة في برلين وروما ولندن. وحياته الفنية التي استوت في الغربة محاولات وتطلعات، لا تعبأ كثيراً بقيمة العلاقة بين موهبته والناس. لذا تذهب تجاربه أدراج الرياح، وتُقطع من خلال حياة بوهيمية، يرى الفن فيها محض ممارسة حياتية وهواية وحلماً مؤجلاً لا يأخذ منه الجد مأخذه الحقيقي.

على ان تجاربه التي يطلع عليها الأصدقاء تدلل على قدرة تميزه بين أقرانه، وربما للأسباب ذاتها يتطلع المشاهد الى أن يرى منه جديداً.

في معرضه الشخصي هذا يجد خليفة في هندسة الكتلة الصمّا ء المصنوعة بأدوات قاطعة، ما يمدّه بمادة للبحث في فكرة الصمت وتوقف الحياة وسكونها. مخيلته تتمثل عنفاً مكتوماً في مرأى المعدن أو الحجر الصلب بما يتجه منظورها النحتي من أبعاد حسية



تكوين
حرب



« بيت
مستهدف
العامرية »

ملموسة. انه يفكر بحساسية الكتلة والفراغ. تلك الكتلة التي تعوضه عن اضطراب العالم الانساني وهشاشة الليونة في الحركة البشرية. لذا لم يستخدم الفرشاة ولا الألوان الغنائية المعبرة . ان رغبته، في توافق طريقة استخدامه للمادة الخام مع دافع تصوره للشكل الخارجي للوحة،أوجدت ثباتاً في عيناته التي تتكرر كوحدات رمزية تخلق بعضها الصدفة، ويكمل احساس الفنان بقيمة اقتراح هذه الصدفة وكيفية تمثله لها.

وأسلوبه فيه لعب كثير، لا يبدو مستساغاً لدى المشاهد الذي تعود الصنعة التي تعلن عن نفسها دون تعمية وغموض وحذلقات. وهو يذكّر بما سار عليه فنانون عرب وعراقيون من محاولات لخلق اللاتوقع أو الصدمة لدى المشاهد، بما فيها استخدام هيئات المواد الأولية والسكراب في عمليات الرسم والنحت، وهو تشبه بموجات في الفن العالمي لعل أبعدها الدادائية. وبعض شغله ، الذي يصور المنحوتة بتفصيلها، جرب فيه عدد من العراقيين، وهو لم يستكمل بعد مجاله الرحب في التجريب.

إن تجارب الفنان خليفة في الشكل على المواد المهملة، ليست جديدة عليه، فسبق له أن قدم مواضيع أخرى على هذا الاعتبار، كفنان يجد في البراميل أو المواد المهملة قدرة على ابتكار حالات جديدة.

وقدر مايتحدث الفنان عن محاولته الابتعاد عن فصاحة التعبير الأدبي في الرسم، الا اننا نجد في لغته الفنية هندسة شعرية يمكن أن نلمسها في إنحناءة أجساد الكتل، وفي تعبيرية حسه الدرامي بالحرب كحالة تحاكي الموات وتحيله الى ماضٍ مؤبد في الذاكرة. بيد أن لدى المشاهد مايعزز قناعته بسعي الفنان الى أن يجعل تقنية الشغل الفني أداة لكبح اغراء اندفاعة المشاعر. فهو يعيد انتاج اللوحة من أشياء تبتكرها المواد القريبة منه، أمشاط ومفاتيح وقطع معدنية ناتئة يقيم بواسطتها حزوزه ويفتح كواه داخل الألوان المعتمة المكتومة.

إن تقنية لوحته التي يعاود التعامل معها مرات عديدة، مستخدماً القص والتركيب، تعطيه الوقت لامتصاص انفعاله.

اذن هناك مستويان ينظر فيهما الفنان الى عمله، الأول تتدافع فيه الحاجة الى التعبير عن حالة اتخذ لها الفنان موضوعاً موحداً هو الحرب، والمستوى الآخر هو الشغل الفني أو التقنية التي تدفع الى انتقاء زاوية النظر والأسلوب. وهذان الدافعان، الموضوع ووسائل التعبير عنه، يتم توحدهما عبر عملية تقف بين حدي الوعي واللاوعي لدى الفنان نفسه. دعونا ننظر الى الملمس الحسي للوحته المتمثل بكتل الأحجار التي يستنطقها حالةً ما. فهو ينتقي أولاً مقاطعاً أو ثيمة توحي بقوة تشبهها بالصورةالفوتغرافية. هنا تُختَر

الحرفة بتفصيبها الواقعي، وهو متمكن منها في كل الأحوال. الكتلة، أو قطعة الحجر المنتزعة من مقطع عرضي لجسر متعرض للقصف، نتعرف على هويتها بواسطة أسلاك الحديد النافرة. انها محاولة لأنسنة هذه الكتلة. فهي تفغر فاها مستسلمةً، بقدر ماتوحي بالقوة والقسوة. ان العنف لا يقع عليها فقط، بل هي جزء من مكوناته. من أين أتى اليها الرسام تبدي تجهماً وعناداً. انها مجردة من الرقة والليونة، رغم انسياب خطوطها المنحنية. تلك الكتلة تشكل في لوحته الأولى «تكوين حرب» حالة خاصة، فهي تتصادم مع كتل أخرى تضاء مقاطع منها بالشغل على التنافر بينها وبين الفراغ الحاد الذي يحوطها. البنيان المتراص للكتل القاسية يُبقي لكل واحدة منها ثبات التضاد في اللاتوازن، وميكانيكية وكثافة وبرودة المعدن وصممه. ان صوت الحرب يأتي من دوي ارتطام تلك الكتل ببعضها.

وفي شواهد الحرب التي يفرد لها ثلاث لوحات متكررة يمكننا أن نتعرف على مادة فيها ترتيب واستقرار المنحوتة الأثرية المكتملة. لون تقادم المعدن وفراغ الصمت الذي يوحيه الموت أو توقف الزمن. الشاهدة كمفردة تتكرر في أربعة مقاطع للوحة واحدةالتي يعيد الفنان أشكال سطوحها بنسب مايسمه الضوء منها بايقاعات رتيبة فيها الثبات والاستقرار عكس فوضى لوحته الأولى.

أما مجموعته الثالثة التي أسماها «وجه العصر» فهي محاولة لاستنساخ صورة تلتقطها عين الكاميرا من الجو وتمتزج بشكل الحرب كما ظهرت على شاشة الكمبيوتر. خرائط شاقولية في بحر من الظلمات، وخطوط هندسية تتغير مساقط الضوء عليها لتجردها من أي ملمح واقعي. إن مفردة العملية الحربية، كواقعة، غدت أمام المشاهد الاوربي محض ترتيب علمي لا علاقة له بعاطفة أو حياة. وتلك لغة أراد الرسام هنا أن يعيد انتاجها بشكل واقعة تحوي مفارقة تكثف فكرة الموت وتبرزه للعيان. ولكن تجريده هذا أمعن في خلق مسافة غير مناسبة لاحداث التأثير المفترض. فما بين مادة يسهل تأويلها وبين صورتها في ذهن الفنان على هيئة جديدةكان مايشبه التبسيط العاطفي الذي لا يُظهر قيمة فنية حقيقية.

إن احساس كاظم خليفة بقيمة المغامرة في عمله تدعوه الى مزيد من التجريب، وهو قدر مايتيح له من فرص مفتوحة ونسبية للنجاح، يحتاج منه ثباتاً ومثابرة لإستكمال تجاربه، وهو أقرب اليها منالاً لو شاء ان يبعد هاجس التدخل المسبق في مقاصده الفنية، أو التمعن الذهني في عمله. ونعني هنا حاجته الى مزيدمن العفوية والطلاقة في التعامل مع فن هو يفسر نفسه ويقدمها بكل حدوس الحياة وعفويتها وبساطتها.

معرض جعفر طاعون

لوّن غاضب
يوري الشحوب الصحراوي

عواد فزاع

بمناسبة أقامة المعرض التشكيلي الثاني، للفنان جعفر طاعون في مدينة مالمو (بالسويد)...وددت الحديث السريع عنه من خلال لوحاته.

حملت اللوحات المائية سعة أهتمامه وإنغماره في تجربتها كتعبير واستجابة لتجربة فنيّة وسايكولوجية فنية استفاقت لتخفي مساحات الاحساس بشحوب الصحراء، هناك وجد الفنان نفسه في أسوار واقع بَصَري شاحب من الخيمة وحدود المدى حيث تبدو السماء مرفوعة بالرمال والارض بلا جذر، فجاءت المغالبة الداخلية، فوجد نافذة في لون المنفى، الصحراوي "كانت أيام رفحاء الصحراوية تبدو بلا نهايات" بأنفعال عاطفي ممزوج بأدراكه الحي لضرورة خلق كائنات جميلة.

فلم يكن فيها اللون وسيلة أو إحساساً لهذه الكائنات التشكيلية، بل كان اللون القاتم تعبيراً عن غضب ومعادلاً لمأساة الذات وعنصراً هاماً في وحدة الموضوع.

فاللوحات المائية التي ينجزها بصيغة "سكيج" تكريس حي لواقع زماني، حيث يكون الرفض "فرحاً والاستلاب والتجهم "حزناً.

اسلوبه التعبيري التجريبي ربما فرضه بعناد الفرح والحزن" فالتعبير عن تجربة حسّية بأسلوب فني يكون اللون عنصراً فاعلاً فيه. إذن والحالة هذه فهو بحاجةٍ الى التجريد لكي يضفي على اعماله قوة المجاز وجماليته، ويلجأ إليه بأحساسه الفني لامتجرد عن تقليد المرئيات. وتكون فيها معرفة الواقع الزماني والمكاني كواقع بَصريّ أقل بكثير لديه من اكتشافات الأحساس، التي تخلق توازناً ذاتياً. اذ ان ولادة كائناتِه التشكيلية تبعث أحساساً بترويض طغيان الغضب الحسي، بعيداً عن حلول شكلية للواقع.

فالواقع عنده هو حالة حسية وليست سطوح ومساحات للكاميرا.

لذلك يصبح التجريد إيجازاً لعناصر واقع الحس، زماناً ومكاناً، "الصحراء وزمن النفي".
بالأضافة إلى اللّوحات المائية كان البوستر امتداداً لتجربته الفنية السابقة لتأكيد استمرار الذات على هاجس الرفض، ولكن علنية الرفض في البوستر والبوستر (الكولاج) لم تعمق استعاراته الرمزية التجريدية، وخاصة باللون ودلالة الرمز التشكيلي. يوحي البوستر بالعلنية من خلال الوحدة العضوية في إتجاه الدلالات، حيث الوطن صندوقاً مُعدّ للتصدير، والتصدير يستحيل إلى موت أو نفي، وبراعة الأعداد تكون بشاعة الموت وطلقه الرحمه رحمة حقيقه. أو قد تختبئ الأرواح في ظل كتل أقفال السجن، أو قد تختبئ رؤوسنا داخل الأجساد، بانتظار بريق السيّاف في ظلام الزمن، أو تكون غريزة القتل بديلاً لغريزة الطفولة في البقاء أو تكون الأجساد المهمشة باللونِ فضيحة للجلاد والغريم العدو! وفي البوستر يندر "البورتريت" سوى واحد أضفى عليه أيمائية الاستفهام الذي لاحدود له حين يُستكمل مع الاعمال الأخرى، وبعد أذ يفعّل اللون في البوستر لتكميل عمله التشكيلي يبشر بتجربته يخشى فيها من الاضواء التي قد تخترق صدقه الفني.
الشمول في نوعية العمل كان حالة نمو طبيعية، فقد كانت له تجربة الموتيفات الصحفية، فلا غرابة أن يوظفه لغير الاعمال الصحفية في عدة لوحات كبيرة في معرضه

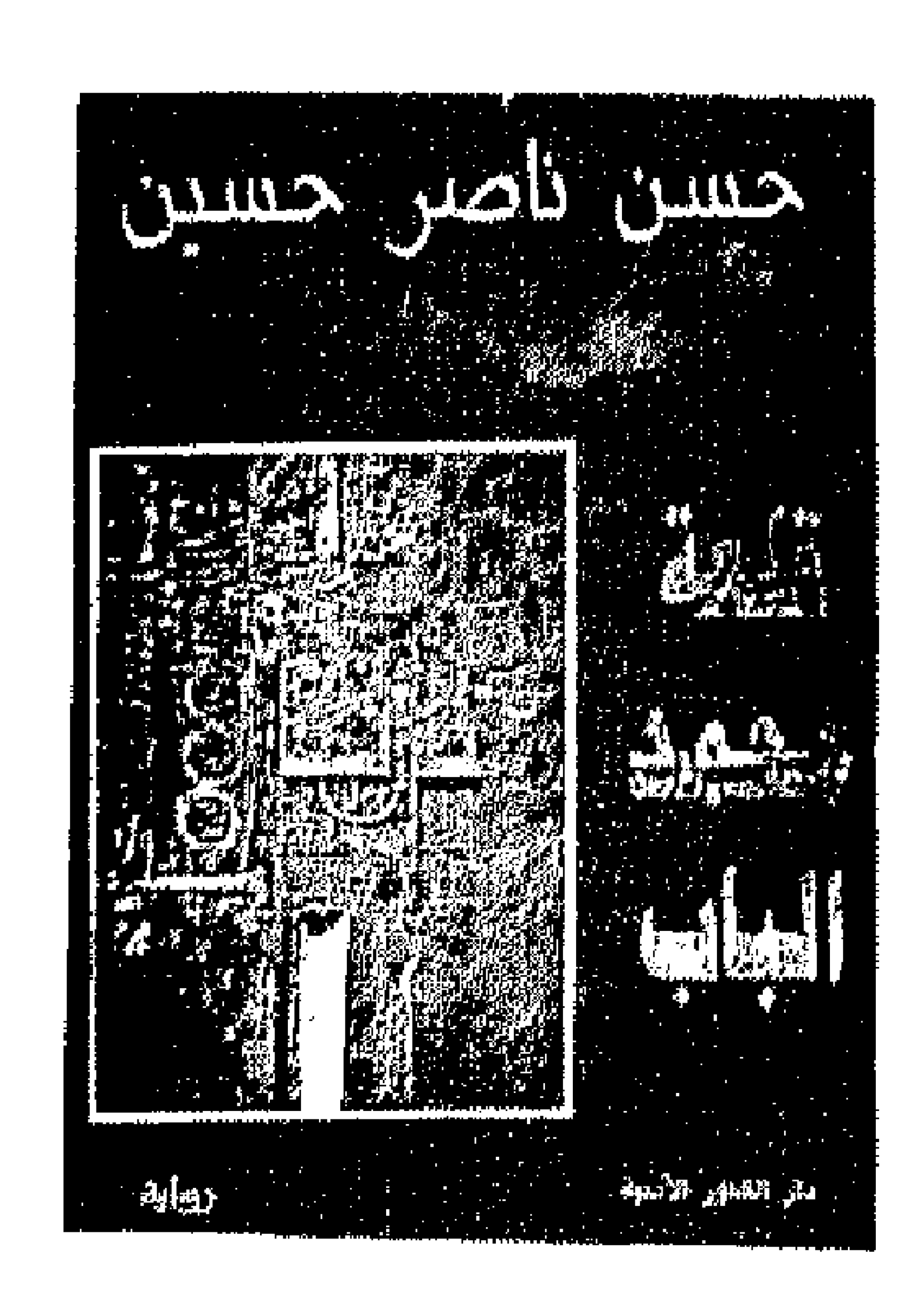
صدر حديثاً

«رؤيا اليقين» لسلام ابراهيم

في بيروت وعن «دار الكنوز الأدبية» صدرت حديثاً مجموعة قصصية للكاتب سلام ابراهيم بعنوان «رؤيا اليقين» وهي تحتوي سبع قصص تتناول موضوعاً بكراً في القصة العراقية وهو تجارب ومعاناة حرب الأنصار في كردستان بما تنطوي عليه من مفارقات ومآسٍ.



وقد جاء ذلك بلغة حسية مفعمة تنحو شعرياً وايقاعياً لاستبطان مواقف الشخصيات وردود أفعالها، وقد جاء في الكلمة على الغلاف الأخير التي كتبها جلال التونسي: «الحرب هي العقدة المشتركة لقصص المجموعة وتأتي الأحداث على خلفية هذا المشهد المأساوي المرعب الذي وُفق القاص في تبيان معالمه حيث السوداوية القائمة الى الرعب والقتل - جنون - موت - صمت - خراب كلي، إذ يقترن مصير شخصياته بهذا الكم الهائل من الدمار الذي تخلفه الحرب.



«قلعة محمد الباب»

لحسن ناصر حسين

رواية أولى لحسن ناصر حسين بعنوان «قلعة محمد الباب» صدرت مؤخراً عن دار الكنوز الأدبية : وهي تتناول شريحة الجلادين وضحاياهم وما ينطوي عليه ذلك من هزات في طبيعة الشخصية الانسانية وطموحاتها سلباً وايجاباً .

"أطول عام"

صدرت عن "دار كيبنهوير - لايبزك" رواية طويلة باللغة الالمانية تقع في 324 صفحة للكاتب العراقي المقيم في المانيا زهدي الداوودي. جاء في تقديم الدار التي عرضت الرواية ضمن منشوراتها الرئيسية في "معرض فرانكفورت الدولي للكتاب" المنعقد في الفترة من 10/6 الى 1993/10/11: "رواية مؤثرة تنقلنا الى أجواء كردستان المتوحشة في مطلع هذا القرن، أنها تحكي قصة عشيرة كردية في عام حاسم من تأريخ هذا الشعب، حيث تبدأ الادارة العثمانية بمد قبضتها الى تلك العشيرة التي كانت الى ذلك الحين لم يمسها العصر الحديث بعد. وبذلك تتطلع أنظار الاكراد الى ما وراء جبالهم ووديانهم...".

وسيصدر قريباً النص العربي لرواية "أطول عام" من "المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت".

هذا وسبق أن صدر للكاتب بالالمانية، كتابان: "الاكراد، تأريخ حضارة وكفاح مصيري 1987" و "سعار" مجموعة قصص 1991



"مؤتمر الديمقراطية والتجديد"

بلاغ

التأم المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي أيام 12 - 25 تشرين الأول 1993 في مدينة شقلاوة بمحافظة اربيل تحت شعار" في سبيل استنهاض شعبنا ورفع الحصار عنه، واسقاط الدكتاتورية، واقامة العراق الديمقراطي الفيدرالي الموحد، والدفاع عن مصالح الكادحين".

وبحث المؤتمر خلال أيام انعقاده، مشروعي الوثيقتين الأساسيتين للحزب: الوثيقة البرنامجية والنظام الداخلي، اضافة الى التقريرين السياسي - التنظيمي والمالي. وبعد مناقشات مستفيضة، ساهم فيها عشرات المندوبين الذين يمثلون منظمات الحزب. وبعد ادخال الكثيرمن الاغناءات والتعديلات. صادق المؤتمر على الوثيقتين والتقرير المالي، كما أقر التقريرالسياسي - التنظيمي الذي يتناول الأوضاع في الوطن، والمحنة التي يعيشها الشعب في ظل الحصار الاقتصادي والدكتاتورية. ومواقف الحزب منذ المؤتمر الوطني الرابع عام 1985 ، وأزمة النظام المستفحلة واتجاهات الوضع في كردستان، والحالة التنظيمية للحزب فضلاًعن المستجدات على الصعيدين العربي والدولي.

وسادت مداولات المؤتمر، الذي حمل اسم "مؤتمر الديمقراطية والتجديد"، أجواء من الحرية التامة والصراحة والاحساس الرفيع بالمسؤولية ازاء مصائر الشعب والوطن والحزب. واتسعت المناقشات ذاتها بالعمق والبحث الجاد والهادف عن اجابات صائبة على الأسئلة التي تطرحها التطورات المتسارعة والمعقدة في سائر المجالات. الأمر الذي جعل المؤتمر بحق مؤتمراً نوعياً وخطوة هامة في طريق التجديد وترسيخ الديمقراطية في حياة الحزب الداخلية.

وتلقى المؤتمر عشرات التحايا من الاحزاب الشقيقة والصديقة العراقية والعربية والكردستانية والأجنبية من شخصيات ثقافية واجتماعية وسياسية ومنظماتنا الحزبية

وعوائل الشهداء. وعبرت التحايا عن التقدير للحزب ودوره في النضال الوطني الديمقراطي والدفاع عن مصالح الشعب والتمنيات للمؤتمر بالنجاح.

وصادق المندوبون، الذين عبّروا عن ثقتهم بالحزب ودوره السياسي وتمسكهم بوحدته مسقطين بذلك مراهنات البعض على اضعافه وتمزيقه، صادقوا على العديد من القرارات والتوصيات المتعلقة بسياسة الحزب وعمل قيادته اللاحق.

واختتم المؤتمر أعماله بانتخاب لجنة مركزية جديدة للحزب.

****

بيان

بعد ثماني سنوات من انعقاد المؤتمر الوطني الرابع لحزبنا، وفي وقت بلغت فيه المصاعب والتعقيدات التي تواجه شعبنا ووطننا وحزبنا، مستوى لا سابق له، باشر المؤتمر الخامس (12 ـ 25 تشرين الأول /1993) بحثاً جاداً ومكثفاً لقضايا الساعة في البلاد، وسبل الخروج بالشعب من المأزق الذي أوصلته الدكتاتورية اليه. وللمهمات التي يتوجب انجازها في سياق عملية تجديد لحزب واشاعة الديمقراطية داخله.

وفي مجرى المناقشات والمساجلات التي شهدها المؤتمر، ركز المندوبون على اشتداد معاناة الشعب نتيجة سياسات النظام الدكتاتوري وحملاته الارهابية الوحشية وحروبه العدوانية واستهتاره بحياة المواطنين وحقوقهم الأساسية وتبديده الثروة الوطنية، ونتيجة الحصار الاقتصادي الدولي المتواصل منذ ثلاث سنوات، والذي تحول الى عقوبة لشعبنا، أكثر مما للدكتاتورية، وأدى ذلك الى تصاعد النقمة عل الحكام والتطلع الى الخلاص من سلطتهم الاستبدادية واسقاطها.

ومن ناحية ثانية تفاقمت أزمة النظام نفسه وتعمقت عزلة رؤوسه على نحو لم يسبق له مثيل، فازدادوا هزالاً واستعداداً للتفريط بالسيادة والحقوق الوطنية من جهة، وأوغلوا في اشهار سيف العسف في وجه عموم الشعب وضد خصومهم السياسيين بوجه خاص.

وعلى صعيد آخر وفي سياق تطورات الأعوام الأخيرة العاصفة التي أعقبت توقف الحرب العراقية ـ الايرانية، وما شهدته من اصرار الطغمة الدكتاتورية على نهجها الارهابي الدموي في الداخل وسياستها العدوانية في الخارج، والتي تمثلت هذه المرة في كارثة غزو الكويت وما تلاها من تدمير مريع وغير مبرر لوطننا في مجرى ""حرب الخليج الثانية". ثم السماح للزمرة الحاكمة باستخدام قواتها الضارية لاغراق انتفاضة آذار /1991 الشعبية بالدم، في سياق ذلك واصل حزبنا وشدد نضاله ضد الحكم الدكتاتوري، وللوصول الى

هذه الغاية سعى جاهداً، بصورة خاصة، الى توسيع وتعزيز نشاطه المفعم تضحية داخل الوطن، رغم القمع الدموي نادر المثال... وفي الوقت نفسه عمل بمثابرة على تحقيق التقارب بين أحزاب المعارضة وقواها المختلفة، وجمع شملها وقدراتها على الكفاح لانقاذ الشعب من الدكتاتورية.

ولقد توقف مؤتمرنا بمسؤولية - بين أمور أخرى- عند مسألة العمل المشترك للمعارضة بالذات، ووجه في هذا الشأن نداء الى أحزابها وقواها كافة يدعوها فيه الى تغليب المصلحة العليا للشعب والوطن وتجاوز تبايناتها وخلافاتها، ورص صفوفها في المعركة ضد الدكتاتورية. وفي الوقت ذاته، وفي خطوة ملموسة على هذا الطريق، قرر المباشرة عاجلاً في بذل الجهود لتحقيق العمل المشترك للقوى الديمقراطية ودعوة ممثلي هذه القوى والشخصيات الديمقراطية المستقلة الى التداول والحوار في هذا الخصوص.

وفي الاطار نفسه، وانطلاقاً من الحرص العميق على تطوير الجهد المعارض وتفعيله توصل مؤتمرنا الى ضرورة مفاتحة الهيئات القيادية في المؤتمر الوطني العراقي الموحد في شأن نشاطه وآلية عمله وعلاقاته، كما في شأن موقع حزبنا داخله وعلاقته معه. وذلك بهدف تطوير عمل المؤتمر، ونقل نشاطه الى داخل الوطن والاقتراب من الواقع الذي تعيشه الجماهير، وتجميع طاقات أكبر من قوى المعارضة فيه، والاعتماد على القوى ذات الامتداد الحقيقي بين جماهير شعبنا والتعويل بالأساس على نضالها لاسقاط الدكتاتورية. وتقرير موقف حزبنا اللاحق في ضوء ذلك.

وأعار مؤتمرنا، اهتماماً استثنائياً لمسألة الحصار الاقتصادي المفروض على البلاد منذ 1990 ، والذي أوصل معاناة شعبنا اليوم الى حدود لاتطاق وتوقف عند المعطيات التي تؤكد أن الطغمة الحاكمة التي هي أس كل البلايا التي حلت وتحل بشعبنا ووطننا، تستخدم استمرار الحصار ستاراً للتغطية على مسؤولياتها المباشرة والأساسية عن المحنة التي تسحق الملايين، وذريعة لحرف نقمتهم بعيداً عنها، وانطلاقاً من هذه الوقائع ومن حقيقة ان الحصار لم يلحق كثير ضرر بالنظام من الناحية العملية. ولم يمنعه مع التدابير العقابية الدولية الأخرى التي اتخذت ضده بعد غزو الكويت من الحفاظ على مواقعه، وتدعيم أجهزته الأمنية وترسانته القمعية، وجد المؤتمر ان الحاجة غدت ماسة الى المطالبة برفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا وتأمين احتياجاته من الغذاء والدواء وايصالها الى المحتاجين مباشرة عن طريق وكالات الأمم المتحدة ذات العلاقة والمنظمات الانسانية.

ورأى مؤتمرنا أن من الضروري في الوقت نفسه تكثيف الجهود وتصعيدها لدفع المجتمع الدولي الى تشديد الخناق على الدكتاتورية، والزامها بتنفيذ القرار رقم 688 الذي يمنع زمرة صدام حسين من انتهاك حقوق الانسان في العراق، والدعوة الى اجازة قرار

مماثل في شأن تشكيل المحكمة الدولية لمحاكمة صدام حسين وكبار المسؤولين في نظامه عن الجرائم التي اقترفوها ويقترفونها بحق شعبنا والانسانية والسلام، وقرار آخر بفرض اجراء انتخابات ديمقراطية في العراق تحت اشراف الأمم المتحدة وبادارتها.

واهتم المؤتمر كذلك بمسألة ترسيم الحدود مع الكويت وأكد موقف الحزب المعروف منها، ورأى ان قرار مجلس الأمن رقم 773 المتعلق بها، قرار وحيد الجانب ومجحف، وان أي اتفاق في خصوص الحدود لابد أن يحظى بمصادقة شعبنا في ظل أوضاع ديمقراطية وحكومة تجسد ارادته. فترسيم الحدود مسألة سياسية وقومية بالدرجة الأولى تمس مصالح الشعبين ومستقبل علاقاتهما، وينبغي حلها بما يضمن المصالح المذكورة وسيادة البلدين الوطنية، ويحول نهائياً دون عودتها مصدراً للنزاع والصدام

وبحث مؤتمرنا في موضوع الحملة الارهابية الدموية التي يشنها الحكم الدكتاتوري على أبناء شعبنا في الأهوار، وسعيه الحثيث في إطارها الى اجبار عشرات الأولوف من السكان على ترك قراهم ومواطنهم حتى عن طريق تجفيف الأهوار وتسميم مياهها، وبالتالي تغيير البيئة الطبيعية للمنطقة وقطع موارد الرزق فيها، وناشد الرأي العام استنكار هذه الأعمال الاجرامية والمطالبة بوضع حد لها وبأن تطبق الأمم المتحدة قرارها رقم 688 .

وعالج مؤتمرنا كذلك الوضع في كردستان، التي تواجه مصاعب جمة بفعل الحصار الدولي والحصار الذي يفرضه النظام الدكتاتوري، والمساعي التي يبذلها الحكام في بغداد لافشال التجربة الديمقراطية الكردستانية عن طريق عملائهم، وضغوطهم المستهترة التي تضاعف صعوبات العيش اليومي للجماهير الواسعة ويعتقد مؤتمرنا ان التجربة التي تعيشها كردستان اليوم جديرة بالدعم والاسناد، وان حمايته وتطويره يستلزمان تكاتف المخلصين جميعاًفي كردستان لتخليصها من النواقص والثغرات التي تشوبها.

وأقر المؤتمر موقف حزبنا من مسألة الفيدرالية لكردستان، مؤكداً دعمه هذا المطلب المنسجم مع المطامح المشروعة لشعب كردستان في اطار الجمهورية العراقية.

وكرس مؤتمرنا جزءاً أساسياً من مداولاته التي استمرت أسبوعين لدراسة موضوعة "الديمقراطية والتجديد" التي رفعها عنواناً لأعماله، وتحديد الاجراءات الملموسة الواجب اتخاذها لتحويل هذا الشعار الى واقع حي في حياة الحزب الداخلية وفي سائر مفاصل وميادين نشاطه.

وقيم المؤتمر بصورة ايجابية ما تحقق من خطوات في مجال اشاعة الديمقراطية داخل الحزب، واعتماد مبدأ علنية الفكر والسياسة، ومبدأ الإنتخاب في جميع الهيئات على أساس الترشيح الفردي وعقد المجالس الحزبية في جميع المنظمات، مؤكداً ضرورة تطوير هذه العملية واغنائها في الممارسة، وانماء الوعي الديمقراطي، ونوّه في هذا الاطار بأهمية

ضمان حق الأقلية في الاحتفاظ بآرائها والدفاع عنها ونشرها في الصحافة الحزبية.

وشدد مؤتمرنا على وجوب الالتزام بعقد مؤتمرات الحزب في مواعيدها المحددة، وقرر تقليص الفترة الزمنية الفاصلة بين مؤتمر وطني وآخر الى ثلاث سنوات وعقد مجلس حزبي في منتصف الفترة بين مؤتمرين، كما قرر أن تكون لقرارات المجلس قوة قرارات المؤتمر الوطني. وأكد ضرورة تشاور القيادة مع منظمات الحزب في القضايا الجوهرية والمنعطفات السياسية، والدعوة لهذا الغرض حتى الى عقد مؤتمرات استثنائية.

وفيما يتعلق بالعمل القيادي توصل المؤتمر الى ضرورة اعتماد آلية جديدة تستهدف اشباع اللجنة المركزية والهيئات القيادية الأخرى بصلاحياتها والحيلولة دون تداخل الصلاحيات بين هيئة وهيئة. ومن أجل تحسين النشاط النوعي للقيادات وتطوير عمل الحزب في الميادين كافة أوصى بتشكيل لجان متخصصة لتحقيق ذلك.

وانطلاقاً من خصوصات الوضع في كردستان أولى المؤتمر اهتماماً كبيراً للدور الذي يتوجب أن يضطلع به الشيوعيون الكردستانيون في تطوير عمل الحزب في كردستان، وصادق على وثائق وقرارات المؤتمر الثاني لمنظمة اقليم كردستان، وأقر قيام الحزب الشيوعي الكردستاني ـ العراق (حشكع). وحدد آلية العلاقة بينه وبين الحزب الشيوعي العراقي (حشع). وهي تقوم على استقلالية (حشكع) في معالجة الشؤون الكردستانية كافة، بالاستناد الى منطلقات (حشع) البرنامجية العامة.

وفي اطار دعم نضال القوميات والأقليات وتعزيز نشاط الحزب بين أبنائها. أكد المؤتمر أهمية إقامة هيئات حزبية خاصة لتوجيه نشاط الحزب في صفوفها.

وشدد على الدور الهام الذي ينهض به حزبنا الشيوعي العراقي، باعتباره حزب الطبقة العاملة والفلاحين وسائر الكادحين من شغيلة اليد والفكر، في الدفاع عن مصالح الجماهير الشعبية وحقوقها والنضال من أجل اقامة عراق ديمقراطي فيدرالي موحد.

كما أكد تمسك الحزب بالماركسية منطلقاً فكرياً ومرشداً في الكفاح لبلوغ أهدافه وخياره الاشتراكي.

وتناول المؤتمرون تطورات الأوضاع العربية في السنوات الأخيرة وخصوصاً الى الوضع الشائك والمعقد الذي تعيشه حركة التحرر الوطني العربية وفصائلها. الناجم عن اشتداد الهجوم الامريكي. لاسيما غداة انهيار الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية السابقة والنتائج الكارثية للحرب العراقية ـ الايرانية وغزو الكويت.

وتوقف المؤتمر عند ظاهرة تنامي الحركات "الأصولية" الظلامية الناجمة عن فشل الحكومات العربية في حل مشاكل الجماهير، وحرمانها من حرياتها الديمقراطية،

وملاحقتها القوى الديمقراطية اليسارية.

ومن الواضح ان التغيرات التي طرأت على الوضع في المنطقة وفي ميزان القوى، وبضمنها الاصطفافات الجديدة التي أحدثها الاتفاق الفلسطيني الاسرائيلي، تلقي بمسؤوليات جسيمة على قوى وأحزاب حركة التحرر الوطني العربية وفي المنطقة للتصدي لكل ما يمس سيادة واستقلال شعوبنا ويهدد مكاسبها وتطورها المستقل وحقوقها المشروعة.

وتدارس المؤتمر كذلك، الوضع الجديد على الصعيد الدولي، وانفراد الولايات المتحدة الامريكية في تقرير المصائر الدولية. واشار الى أن ما يسمى بالنظام الدولي الجديد لم يسفر عن تحقيق أي من الآمال التي قيل انه يستهدف الوصول اليها في اشاعة الديمقراطية في العلاقات الدولية والتكافؤ بين الدول ووضع حد للصراعات والنزاعات. ذلك ان العالم لم يصبح أكثرأمناً، ولا الشعوب أكثر حرية واستقلالاً في تقرير مصائرها واختيار طرق تطورها المستقل. فيما تحولت الأمم المتحدة الى أداة بيد واشنطن لتغطية مخططاتها وتنفيذ سياستها. غير أن هذا الوضع لن يستمر، والولايات المتحدة الامريكية لا يمكن ان تبقى القطب الأوحد في السياسة الدولية.

وتطرق المؤتمر أيضاً الى عوامل انهيار التجربة الاشتراكية ودحض المزاعم القائلة ان هذا الانهيار هزيمة للفكر الاشتراكي، مؤكداً ان طموح البشرية منذ الأزل الى العدالة والعيش الكريم والغاء الاستغلال الطبقي والتمييز القومي والديني يبقى حياً، ولابد أن يتجسد واقعاً ملموساً.

****

وأظهرت مناقشات المؤتمر ومداولاته التي جرت في جو من الديمقراطية والمكاشفة الرفاقية الجريئة وجود تباينات في الرؤية والاجتهاد ازاء مختلف مفاصل نشاط الحزب وسياسته، الى جانب الحرص الشديد على وحدة الحزب وتعزيز مكانته وتطوير نضاله.

وقبل أن ينهي المؤتمر جلساته، قيم المندوبون تقييماً عالياً نضال الرفيق عزيز محمد السكرتير العام السابق للجنة المركزية، كما أشادوا بجهود ونضال الرفاق الآخرين من قدامى الشيوعيين. ورد الرفيق عزيز محمد، معاهداً المؤتمرين على بذل كل ما يملك من طاقة لخدمة الحزب والشعب والوطن. وتمنى لهم ولقيادة الحزب الجديدة كل النجاح.

وتجسيداً للعزم على تجديد الحزب، انتخب مؤتمرنا في ختام أعماله لجنة مركزية

جديدة، يزيد عدد أعضائها الجدد على نصف مجموع الأعضاء. وفي أول اجتم عقدته اللجنة المركزية بعد انفضاض المؤتمر، انتخبت مكتبها السياسي، وأجمعت على تخاب حميد مجيد موسى سكرتيراً لها.

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي 1993/10/26



قرارات حول:

الحصار الاقتصادي

إن المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا، إذ يطالب برفع الحصار الاقتصادي عن الشعب، يرى أن من الضروري تنظيم نشاط ضاغط في أوساط الرأي العام العالمي يستهدف دفع مجلس الأمن والهيئات الدولية الأخرى إلى تشديد الخناق على الدكتاتورية. وتشمل الاجراءات التي ينبغي السعي لفرضها:

1 - الزام النظام الدكتاتوري بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 688 الذي يمنع انتهاك حقوق الانسان في العراق، والضغط عليه خصوصاً لوقف الحملة العسكرية على الأهوار وفك الحصار عنها، ولانهاء الحصار الشامل الذي يفرضه على كردستان.

2 - اصدار قرار من مجلس الأمن بتشكيل المحكمة الدولية لمحاكمة صدام حسين وكبار المسؤولين في نظامه عن الجرائم التي اقترفوها بحق شعبنا والانسانية والسلام.

3 - اصدار قرار من مجلس الأمن يقضي باجراء انتخابات ديمقراطية في العراق تحت اشراف الأمم المتحدة وبادارتها

4 - قيام الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة والمنظمات المعنية بحقوق الانسان بايصال المواد الأساسية التي تمس حاجة أبناء شعبنا إليها، لا سيما الغذاء والدواء، إلى المحتاجين مباشرة وليس عن طريق سلطات النظام، واقامة المراكز التابعة للأمم المتحدة ولمنظمات حقوق الانسان في أنحاء العراق المختلفة لاجراء التفتيش الدوري للسجون والمعتقلات في البلاد.

الوضع في كردستان العراق

تدارس المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي الوضع الذي تعيشه كردستان العراق اليوم، في أعقاب انتفاضة آذار المجيدة 1991 . والقمع الدموي الذي تعرضت له وما اسفرت عنه التطورات اللاحقة، من فرض منطقة الملاذ الآمن، وانتفاضات صيف وخريف 1991 . وانسحاب القوات الحكومية والادارات، وفرض الحصار على كردستان من قبل النظام الدكتاتوري، وقيام الجبهة الكردستانية العراقية بادارة المنطقة، واجراء

الانتخابات في آيار 1992 ، وانبثاق المجلس الوطني الكردستاني، والحكومة الاقليمية، وتمتع الشعب الكردستاني بحقوقه الديمقراطية، وممارسة حقه في التنظيم الحزبي والنقابي والاجتماعي وحرية الصحافة، واعلان الفيدرالية.

ان كردستان تعيش في ذات الوقت مصاعب جمة بفعل الحصار الدولي وحصار النظام الدكتاتوري، ومساعيه التخريبية لافشال هذه التجربة عن طريق عملائه، وضغطه المستمر واجراءاته التعسفية. وأبرز أمثلتها: حرمان المنطقة من الوقود، ومعاملتها كدولة اجنبية عند الغاء فئة الـ 25 ديناراً ومصادرة مدخرات أبنائها من هذه العملة، وقطع التيار الكهربائي مؤخراً عن محافظة دهوك.

إن التجربة التي تعيشها كردستان اليوم تجربة جديدة جديرة بالدعم والمساندة من قبل جماهير شعبنا العراقي كله، ومن قبل القوى الوطنية والديمقراطية العربية والعالمية.

إن المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي في الوقت الذي يعلن فيه دعم الشيوعيين العراقيين لهذه التجربة،يرى ان حمايتها وتوطيدها وتطورها يحتاج الى بذل الجهود الحثيثة. من قبل جميع الأطراف المشاركة في الجبهة الكردستانية العراقية وخارجها. وكل أبناء كردستان المخلصين، لتخليصها مما يشوبها من نواقص وثغرات، تتمثل في نزعة الاستئثار، وعدم الاستفادة من كل الطاقات والكفاءات، بسبب من التحزب الضيق، واضطراب الأمن، والاغتيالات السياسية، وغيرها من الأمور التي تثير قلق المواطنين، اضافة الى الضائقة المعاشية الخانقة الناجمة عن الحصار المزدوج بالأساس، والتي تتطلب هي وغيرها من الأمور معالجة جدية يسهم فيها الجميع بروح المسؤولية ونكران الذات ورعاية مصالح الشعب ووضعها فوق كل اعتبار، وتأمين مستلزمات حماية التجربة بتعزيز مكتسبات الجماهير للدفاع عنها، وعدم المبالغة في التعويل على العامل الخارجي.

الأهوار

إن المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي إذ يدين نهج النظام الدكتاتوري في:

- تسليط الارهاب الدموي ضد ابناء شعبنا في الأهوار، وشن الحملات الارهابية، وقصف القرى بالمدفعية وملاحقة أبنائها واعتقالهم بصورة كيفية، وتعريضهم لشتى صنوف التعذيب الجسدي والنفسي والاعدامات الجماعية. وتشديد الحصار الاقتصادي على المنطقة.

- خططه في تبديل بيئة المنطقة الطبيعية عن طريق تجفيف الأهوار وتسميم مياهها،

وحرمان عشرات الألوف من سكانها من موارد رزقهم.
- واجبارهم على ترك قراهم، وتشريدهم داخل الوطن وخارجه.
يناشد الرأي العام العراقي والعربي والعالمي:
- استنكار ما يقوم به النظام من أعمال منافية لحقوق الانسان.
- ومساندة نضال أبناء شعبنا في الأهوار وعموم الجنوب ضد هذه الأعمال.
- ارسال وفود من المنظمات الدولية والانسانية لتقصي الحقائق واطلاع الرأي العام العالمي على الوضع في المنطقة.
- ومطالبة الأمم المتحدة للتدخل وتطبيق القرار 688 الذي يقضي بحماية أبناء الشعب العراقي من اضطهاد نظام صدام حسين، والتمتع بحقوقهم وحرياتهم وحرمة مساكنهم، وحقهم في الحياة.

ضحايا جريمة الأنفال

بعد خمس سنوات من جريمة الأنفال سيئة الصيت التي اقترفتها طغمة صدام حسين الفاشية بحق شعب كردستان، يستذكر مؤتمرنا الوطني الخامس بألم عميق ضحاياها من المدنيين الأبرياء الذين زاد عددهم على 180 ألفاً وضحايا جريمة اختطاف 8 آلاف من البارزانيين الذين لايزال مصيرهم مجهولاً حتى الآن.

إن مؤتمرنا اذ يقف اجلالاً لذكرى المفقودين، يعبر عن تعاطفه وتضامنه مع عوائلهم،ويطالب في الوقت نفسه المجتمع الدولي والمنظمات الدولية بالضغط على النظام الدكتاتوري للكشف عن مصيرهم فوراً.

السجناء السياسيين

يحيي المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي صمود رفاقنا المعتقلين وكل السجناء السياسيين الرازحين في غياهب سجون الدكتاتورية الفاشية، وتحديهم لأساليب البطش والتنكيل على يد زمر الاجرام وأجهزتها القمعية، واصرارهم على مواصلة النضال ضد الطغمة الباغية، مسجلين بصمودهم أروع الصفحات في مسيرة شعبنا الرافض للنظام الفاشي وتأكيدهم على قرب نهايته.

إن مؤتمرنا اذ يحيي وقفة السجناء السياسيين وشجاعتهم، يدعو المنظمات والهيئات الدولية المعنية بحقوق الانسان الى تبني قضيتهم، ويعاهد على مواصلة النضال من أجل اطلاق سراحهم فوراً، وايقاف عمليات الاعدام العشوائية الانتقامية، ومحاسبة المسؤولين عن الجرائم البشعة التي ترتكب داخل سجون ومعتقلات هذا النظام الدكتاتوري.

المعتقلين من الاكراد الفيليين

قامت سلطات النظام الدكتاتوري القمعية في بداية السبعينات وعشية الحرب العراقية ـ الايرانية عام 1980 بحملات واسعة ضد الاكراد الفيليين بحجة التبعية الايرانية، وأسقطت الجنسية العراقية عن عشرات الألوف منهم واعتقلتهم ونهبت ممتلكاتهم، وأبعدتهم الى ايران.

وفي الوقت ذاته، اعتقلت الألوف من شبيبتهم، ورمت بهم في سجون ومعتقلات مجهولة، فلم يعرف مصيرهم حتى الآن.

إن المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا يدعو الرأي العام العراقي والعربي والعالمي لإدانة هذا الانتهاك الفظ لحقوق الانسان والمطالبة بالكشف عن مصير هؤلاء المواطنين الأبرياء من أبناء شعبنا واطلاق سراحهم.

مصير المفقودين

تعرض الألوف من أبناء شعبنا، طيلة سنوات الحكم الدكتاتوري، الى الاعتقال الكيفي والاختطاف من الشوارع والبيوت ومحلات العمل وجرى تغييب المعتقلين والمختطفين، ولم تُتح الفرصة لأهاليهم للتعرف على مصيرهم، ومنعت الهيئات الدولية المعنية بحقوق الانسان من الاتصال بهم بأي شكل من الأشكال.

وكان بين هؤلاء المعتقلين والمختطفين وجوه لامعة في الثقافة والنضال، أمثال: الدكتور صفاء الحافظ الأستاذ في كلية الحقوق بجامعة بغداد، صاحب امتياز مجلة الثقافة الجديدة، المؤلف القانوني المرموق والموظف في ديوان التدوين القانوني، والدكتور صباح الدرة، الاقتصادي المعروف والأستاذ في كلية الادارة والاقتصاد بالجامعة المستنصرية والمناضلة النسائية المعروفة عايدة ياسين عضو اللجنة المركزية لحزبنا، وغيرهم الكثير.

إن المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا يطالب بالكشف عن مصير أبناء الشعب البررة هؤلاء واطلاق سراحهم.

ويناشد الرأي العام العراقي والعربي والعالمي والهيئات والمنظمات الدولية المعنية بحقوق الانسان للضغط على النظام لتحقيق ذلك.

تعبئة القوى الديمقراطية

ادراكاً للحاجة الملحة إلى حشد قوى شعبنا الديمقراطية وجمع جهودها في المعركة لانقاذ شعبنا من الدكتاتورية وبناء العراق الديمقراطي الفيدرالي الموحد، يدعو المؤتمر الوطني

الخامس للحزب إلى:

1 ـ المباشرة عاجلاً في تقصي الوضع على ساحة القوى الديمقراطية العراقية والكردستانية واعداد دراسة بشأن امكانات التقارب والتواصل مع هذه القوى (أو مع بعضها على الأقل) وصولاً إلى التنسيق والتعاون لاحقاً.

2 ـ الدعوة إلى مائدة مستديرة لممثلي القوى المذكورة وللشخصيات الديمقراطية المستقلة، السياسية والثقافية والاجتماعية، للتداول في الوضع في ساحة القوى الديمقراطية. وسبل ووسائل تحقيق عملها المشترك من أجل الأهداف المشتركة.

نداءات وتحايا الى:

الرفاق الذين يقفون بعيداً عن الحزب

من مؤتمرنا المنعقد تحت شعار "الديمقراطية والتجديد"، والساعي بتصميم إلى النهوض بحزبنا، وتطوير نشاطه وأدائه، وإشاعة الديمقراطية في حياته الداخلية والحيوية والمبادرة في نشاطه السياسي، نمدّ لكم اليد يا أحبتنا ورفاق دربنا.

لقد باعدت ظروف السنين الماضية وتطوراتها المعقدة بينكم وبين الحزب ـ المشعل الذي أذكينا جذوته بنضالنا المثابر المفعم إيثاراً وتضحيةً. واستضأنا بنوره حين عزّ النور، واهتدينا به في مسيرتنا الكفاحية من أجل حق شعبنا في الحرية والخبز والأمان والديمقراطية والكرامة.

واليوم ونحن نستهلّ مرحلة جديدة في حياة الحزب، تمسّ فيها الحاجة إلى حشد قدراتنا جميعاً، وتعبئتها في سياق استنهاض حزبنا وجماهير شعبنا إلى النضال لاسقاط الدكتاتورية وبناء العراق الديمقراطي الفيديرالي الموحد، اليوم تتجه أنظارنا إليكم أيضاً، يـ من نعتز بنضالهم وصمودهم في السجون والمعتقلات، وتحملهم ظروف العمل السري القاسية، واجتراحهم المآثر في حركة الانصار على ذرى كردستان، وانغمارهم في شتى ميادين المقاومة والعمل المتفاني، اليوم يؤكد حزبنا ان أبوابه مفتوحة أمامكم، ويدعوكم الى تعزيز صفوفه، واعانته على انجاز مشروعه الديمقراطي التجديدي، ومشاركته الجهد النضالي والمشّرف لانقاذ شعبنا المسحوق بين مطرقة الحصار الاقتصادي وسندان الدكتاتورية الدموية.

يا رفاقنا الذين تقفون اليوم بعيداً عنا:
اننا نقترب اليكم، فاقتربوا منا!
اننا نمد اليكم أيدينا، فاشبكوا أيديكم بها!
ان حزبكم يناديكم، ويقيناً أنكم ستلقون النداء!

الاحتفال بالذكرى الستين لميلاد الحزب

أيها الرفاق

أيها الاصدقاء

تحل في الحادي والثلاثين من آذار 1994 ، الذكرى الستون لميلاد حزبنا الشيوعي العراقي، حزب النضال الوطني والطبقي، حزب التفاني في خدمة الشعب والوطن والتضحيات الغالية في سبيلهما، حزب فهد وسلام عادل وجمال الحيدري والمئات من خيرة أبناء شعبنا المناضل الذين رووا بدمائهم شجرة الوطنية الحقة والقومية الواعية والأممية الصادقة في أرض عراقنا المعطاء.

إن هذه الذكرى العزيزة تخص كل أجيال الشيوعيين العراقيين، عرباً وكرداً وآشوريين وكلداناً وأرمن، الذين شادوا الحزب وعززوا صلاته بجماهير العمال والفلاحين، والطلبة والشباب والنساء، ونظموها وقادوا نضالاتها الوطنية والقومية والطبقية طيلة العقود الماضية.

وعلى مشارف الذكرى الستين لتأسيس الحزب، يهيب المؤتمر الوطني الخامس بكل مناضلي الحزب وأصدقائه، الاستعداد والعمل على إحياء هذه الذكرى عبر تنظيم النشاطات والفعاليات وحملات التبرع، وابراز الوجه المشرق لهذه المسيرة المجيدة، والتذكير بالتقاليد النضالية السليمة التي رسخها النضال المتفاني والتضحيات الغالية للشيوعيين العراقيين، في سبيل حرية وطنهم وسعادة شعبهم.

لتجعل هذه الذكرى مناسبة لرص صفوف الحزب وتعزيز قوته ونفوذه، وتحقيق ارادة الشيوعيين في تجديد حزبهم تنظيماً وسياسة وفكراً، التي جسدها المؤتمر الوطني الخامس، مؤتمر الديمقراطية والتجديد في قراراته وأعماله.

عاشت الذكرى الستون لتأسيس حزبنا الشيوعي العراقي والمجد لشهدائه الأبرار.

منتسبي الجيش والحزب الحاكم

يا كل الشرفاء الذين تعارضون سياسة النظام الدكتاتوري، الذي ورطكم وزج بكم في مجزرتي الحرب العدوانية ضد ايران وغزو الكويت.

يا كل من رفضتم وترفضون تحويل الجيش من قبل الطغمة الباغية الى وسيلة لتحقيق مطامعها، وأداة قمع واضطهاد وتنكيل بالشعب الكردي طوال السنوات الماضية، واغراق انتفاضة شعبنا العراقي الجسورة في آذار 1991 بالدم، وفي الحملات الدموية ضد أبناء شعبنا في الأهوار.

إن المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي يناشدكم اعادة النظر فوراً في مواقفكم ازاء الحكام المجرمين، ويدعوكم الى التخلي عن اسنادهم والكف عن دعم نظامهم المعادي للشعب والوطن، والانضمام الى صفوف أبناء الشعب، والمساهمة الجدية في الاطاحة به وإقامة دولة القانون والحرية.

رفاقنا في الداخل

يحيي المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي رفاقنا المناضلين داخل الوطن، الذين يقفون بشجاعة ضد الطغمة الديكتاتورية المستهترة بكل القيم والأعراف، وفي ظل ظروف الارهاب الفاشي القاسية، مسجلين بصمودهم البطولي هذا أروع الأمثلة في التصدي والتحدي للنظام وأجهزته ومؤسساته القمعية، والسعي الجاد لتشديد الخناق عليه: وتصعيد النضال من أجل الإطاحة به وتخليص شعبنا من شروره وآثامه.

ويدعو مؤتمرنا هيئات الحزب ومنظماته كافة، الى دعم النضال البطولي والمآثر الشجاعة التي يجترحها رفاقنا الأشاوس، ومدهم بكل ما يمكنهم من تقريب ساعة خلاص شعبنا، وإقامة عراقنا الديمقراطي الفدرالي الموحد.

تحية الى انصار حزبنا

يتوجه المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي بالتحيات الحارة الى رفاقنا الانصار، ويخص بالذكر الأنصار البواسل حماة وشغيلة المؤتمر، الذين سهروا على حماية المؤتمرين، وبذلوا الجهود و ضحوا براحتهم ووقتهم من أجل انجاح عقد المؤتمر.

نشد على أياديكم يا رفاقنا، ونثمن جهودكم، ونعاهدكم على تصعيد النضال لوضع قرارات المؤتمر التي تطلعتم اليها موضع التطبيق المبدع.

سلمت أياديكم أيها الرفاق الشجعان.

والى الأمام لتحقيق ارادة حزبنا في وطن حر وشعب سعيد.

عوائل شهداء الحزب والحركة الوطنية

يتوجه المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي بالتحية والتقدير لعوائل شهداء حزبنا الأبطال وكل شهداء الحركة الوطنية ويُكبر فيها تضحياتها ومعاناتها القاسية ويعاهدها، باسم كل الشيوعيين، على مواصلة النضال حتى تحقيق الأهداف النبيلة التي استشهد في سبيلها خيرة أبناء شعبنا.

لاجئي رفحاء

يتوجه المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي بالتحية الى اخوتنا اللاجئين في مخيم رفحا الصحراوي في المملكة العربية السعودية، ويعرب عن تضامنه الكامل معهم، في مواجهة الظروف القاسية التي يعانون منها، ويخص مؤتمرنا بالتحية أبطال انتفاضة آذار 1991 المجيدة من منتسبي حزبنا والأحزاب الوطنية الأخرى، الذين يلعبون دورهم المشرف في شد اللاجئين الى قضية شعبهم ووطنهم.

ويطالب المؤتمر سلطات المملكة العربية السعودية بتحسين التعامل معهم وانهاء الظروف التي تجبر البعض منهم على تسليم أنفسهم الى سلطات النظام الدكتاتوري كما يتوجه المؤتمربالنداء الى هيئة الامم المتحدة وجميع المنظمات الانسانية في العالم، للالتفات الى محنة مواطنينا لاجئي رفحا، وتحسين ظروفهم وتأمين ملاجئ أكثر أمناً لهم.

العاملين في اجهزة اعلام الحزب

يتوجه المؤتمر الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي بالتحيات الحارة للرفاق والأصدقاء العاملين في أجهزة اعلام الحزب، طريق الشعب والثقافة الجديدة وريكاي كردستان، ومحطات الاذاعة المركزية والمحلية وتلفزيون آزادي في السليمانية، على الجهود المضنية التي بذلوها للتحضير للمؤتمر، ولتغطية أعماله وتسجيل وقائعه، وايصال سياسة الحزب الى أوسع الجماهير الشعبية.

سلطات الاقليم

يتوجه المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي بالتحية الى حكومة إقليم كردستان ويعرب عن الشكر الجزيل على مساعدتها في تسهيل مهمة عقد المؤتمر. ويخص بشكره سلطات مدينة شقلاوه ومواطنيها الكرام. ويرى في عقد المؤتمر على أرض كردستان المحرره من نير الدكتاتورية مظهراً آخر من مظاهر الديمقراطية، وتعزيزاً للأخوة

العربية الكردية، ولوحدة وطننا وشعبنا، بجميع قومياته وأديانه وطوائفه وأقلياته، التي يشكل حزبنا الشيوعي العراقي تجسيداً حياً لها.

سورية الشقيقة

.يعرب المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي عن تقديره للدور الذي تلعبه سورية الشقيقة على الصعيد العربي وسعيها من أجل تحرير الأراضي العربية المحتلة واقامة سلام عادل ودائم في المنطقة.

ويشيد المؤتمر بتضامن سورية الشقيقة حكومة وشعباً مع شعبنا في نضاله من أجل اسقاط الدكتاتورية وخياره في اقامة الحكم الذي يجسد ارادته. ويثمن عالياً احتضانها لقوى المعارضة العراقية ومساعداتها لها، لانجاز مهماتها النضالية.

قرارات تضامنية مع:

الشعب العربي الفلسطيني

يعرب المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي عن تضامنه الحار مع نضال الشعب العربي الفلسطيني البطل، من أجل حقوقه المشروعة في العودة وتقرير المصير، واقامة دولته الوطنية المستقلة.

إن التعقيدات التي شهدتها الساحة الفلسطينية مؤخراً، واقرار اتفاق غزة - اريحا أولاً، الذي لايستجيب الى مطامع الشعب الفلسطيني كاملة، خلقت وضعاً يتطلب تحشيد طاقات كل المناضلين الفلسطينيين، وتجنب العنف في معالجة ما نشأ أو يمكن أن ينشأ من خلافات فيما بينهم.

إن المؤتمر الوطني الخامس في الوقت الذي يؤكد موقف حزبنا الثابت بدعم نضال الشعب العربي الفلسطيني من أجل حقوقه القومية الكاملة، يعرب عن الأمل في اجتياز هذه المرحلة الصعبة من نضاله العادل بوحدة صفوف أبنائه المناضلين، وجعل الاتفاق المذكور خطوة على طريق استكمال جميع حقوقه المشروعة واقامة دولته الوطنية المستقلة.

الشعب الليبي

يعرب المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي عن شجبه للتهديدات الامريكية لليبيا، ومحاولات تشديد الحصار الدولي عليها.

وفي الوقت الذي يؤكد المؤتمر تضامنه الكامل مع الشعب الليبي، يطالب بحل الأزمة الناشئة بين ليبيا والدول الغربية الثلاث الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، بالطرق السلمية واستبعاد لغة التهديد، بالقوة وتسخير الأمم المتحدة لغرض اصدار عقوبات جديدة ضد الجماهير الليبية.

الشعب اللبناني

يعبر المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي عن تضامنه مع الشعب اللبناني الشقيق، وقواه الوطنية والديمقراطية، من أجل صيانة سيادة البلاد، ووحدتها أرضاً، وشعباً، ومن أجل إعادة اعمار لبنان وازدهاره.

ويبدي المؤتمر تعاطفه مع المقاومة الوطنية اللبنانية وكل الجهود المبذولة لانهاء الاحتلال الاسرائيلي للجنوب اللبناني، ويعبر عن ثقته ببقاء لبنان بلداً ديمقراطياً مستقلاً، بجهود سائر قواه الحية.

الشعب الصومالي

إن المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي يعرب عن تضامنه مع الشعب الصومالي الشقيق، للخلاص من ظروف المجاعة الطاحنة، والتمزق السياسي، وفي سبيل العيش الآمن، وضمان وحدة البلاد، وتطورها المستقل.

إن استغلال الولايات المتحدة الامريكية لعمليات الاغاثة التي تشرف عليها الأمم المتحدة، لفرض هيمنتها على البلاد وتحقيق أهدافها الخاصة بطريقة متغطرسة، يهدد استقلال الصومال بالضياع، ويؤدي الى استمرار الصراعات المسلحة التي أوصلت البلاد الى المجاعة والتمزق.

ويطالب المؤتمر بتقديم العون للشعب الصومالي وتخليصه من المجاعة، ومساعدته في الحفاظ على وحدة وطنه.

الاكراد في تركيا وايران

إن المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي اذ يتابع نضال الشعب الكردي في تركيا وايران من أجل حقوقه القومية، وما تتعرض له الحركة التحررية الكردستانية من

أعمال القمع والاضطهاد، وخصوصاً في تركيا، حيث الحملات العسكرية المستمرة، اعلان حالة الطوارئ، ومهاجمة القرى الآمنة، على طرفي الحدود مع العراق: يعلن:

- شجبه لهذه الأعمال التعسفية.

- ويؤكد من جديد موقفه المبدئي بالاعتراف للشعب الكردي في جميع أجزاء وطنه: بحقه الكامل في تقرير مصيره.

- ويساند نضاله البطولي من أجل حقوقه القومية العادلة، ومن أجل الديمقراطية بالتعاون مع القوى الديمقراطية والتقدمية.

شعوب جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة وقواها التقدمية والوطنية

يعرب المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي عن ادانته للعدوان على ارادة شعب روسيا الحرة ومؤسسته البرلمانية، ذلك العدوان الذي قاده بوريس يلتسن استقواء بواشنطن وحلفائها، وكشف زيف شعارات الدفاع عن حقوق الانسان والديمقراطية التي يتبجحون بها.

ويؤكد المؤتمر ان ديمقراطية يلتسن التي أقيمت بالدبابات، ولجم قوى المعارضة، يضران بالمصالح الوطنية لروسيا وكل شعوب الاتحاد السوفييتي السابق، ويثيران مزيداً من التوتر الاقليمي والدولي.

ويعرب المؤتمر عن التضامن مع الشيوعيين وكل التقدميين في روسيا، وبقية الجمهوريات السابقة، في نضالهم من أجل الديمقراطية الحقيقية، وتدعيم مكتسبات شعوبهم وحقوقهم.

شعب جنوب أفريقيا

يحيي المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي الانتصارات التي حققها شعب جنوب افريقيا، بقيادة المؤتمر الوطني الافريقي، على طريق انهاء نظام التمييز العنصري البغيض، والانتقال الى الديمقراطية عبر انتخابات حرة متعددة الأعراق.

إن تحرير جنوب افريقيا من قبضة النظام الكولونيالي الاستيطاني، الذي كرس حكم الاقلية البيضاء، على امتداد قرون عدة، لم يأت بمعزل عن النضال البطولي لأشقائنا شيوعيي جنوب افريقيا ودورهم البارز في تنظيم وقيادة النضالات الجماهيرية والعمالية تحت أقسى ظروف القمع والتنكيل، حيث ضربوا أروع الأمثلة في الجمع بين أساليب

النضال، وتمكنوا من تعبئة أوساط الرأي العام العالمي لتنظيم أكبر حملة تضامن جعلت نظام بريتوريا العنصري نظاماً منبوذاً على صعيد المجتمع الدولي.

إن المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي يدين بقوة جريمة اغتيال السكرتير العام للحزب والقائد الوطني البارز كريس هاني، على أيدي عناصر يمينية متطرفة، هذه الجريمة البشعة التي خُطط لها بالتواطؤ مع الأجهزة الأمنية الخاصة التابعة للنظام.

ويؤكد مؤتمرنا تضامنه مع النضال المعادي للتمييز العنصري، وعزمه على تطوير العلاقات الكفاحية بين حزبنا والحزب الشيوعي في جنوب افريقيا.

ويوجه المؤتمر تحية تضامن أممية الى المؤتمر الوطني الافريقي وزعيمه البارز نلسون مانديلا، الذي أصبح رمزاً للنضال، ومن أجل اجتثاث كافة أشكال الاضطهاد والتمييز العنصري، وازالة هذه اللطخة السوداء من جبين الانسانية الى الأبد.

قرار تضامن مع كوبا ضد الحصار الامريكي

يعرب المؤتمر الوطني الخامس لحزبنا الشيوعي العراقي عن تضامنه الحار مع الشعب الكوبي ضد الحصار الأمريكي المفروض على كوبا منذ أكثر من ثلاثين عاماً، والاعتداء على سيادتها الوطنية بالابقاء على قاعدة غوانتانامو العسكرية، خلافاً لارادة الشعب الكوبي، والتدخل في شؤونها الداخلية، ومنعها من ممارسة خيارها المستقل. إن مبادىء القانون الدولي، وميثاق الأمم المتحدة، تقضي برفع الحصار، واجلاء القاعدة العسكرية، وترك الشعب الكوبي يمارس حريته في اختيار طريق تطوره. إن مؤتمرنا يناشد الأمم المتحدة والرأي العام العالمي دعم موقف كوبا العادل.

جمهورية كوريا الديمقراطية وشعب كوريا الجنوبية

يعبر المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي عن تضامنه مع جمهورية كوريا الديمقراطية من أجل صيانة سيادة البلاد والدفاع عنها ضد التهديدات بالعدوان التي تقترفها الولايات المتحدة الأمريكية وسلطات جنوبي كوريا.

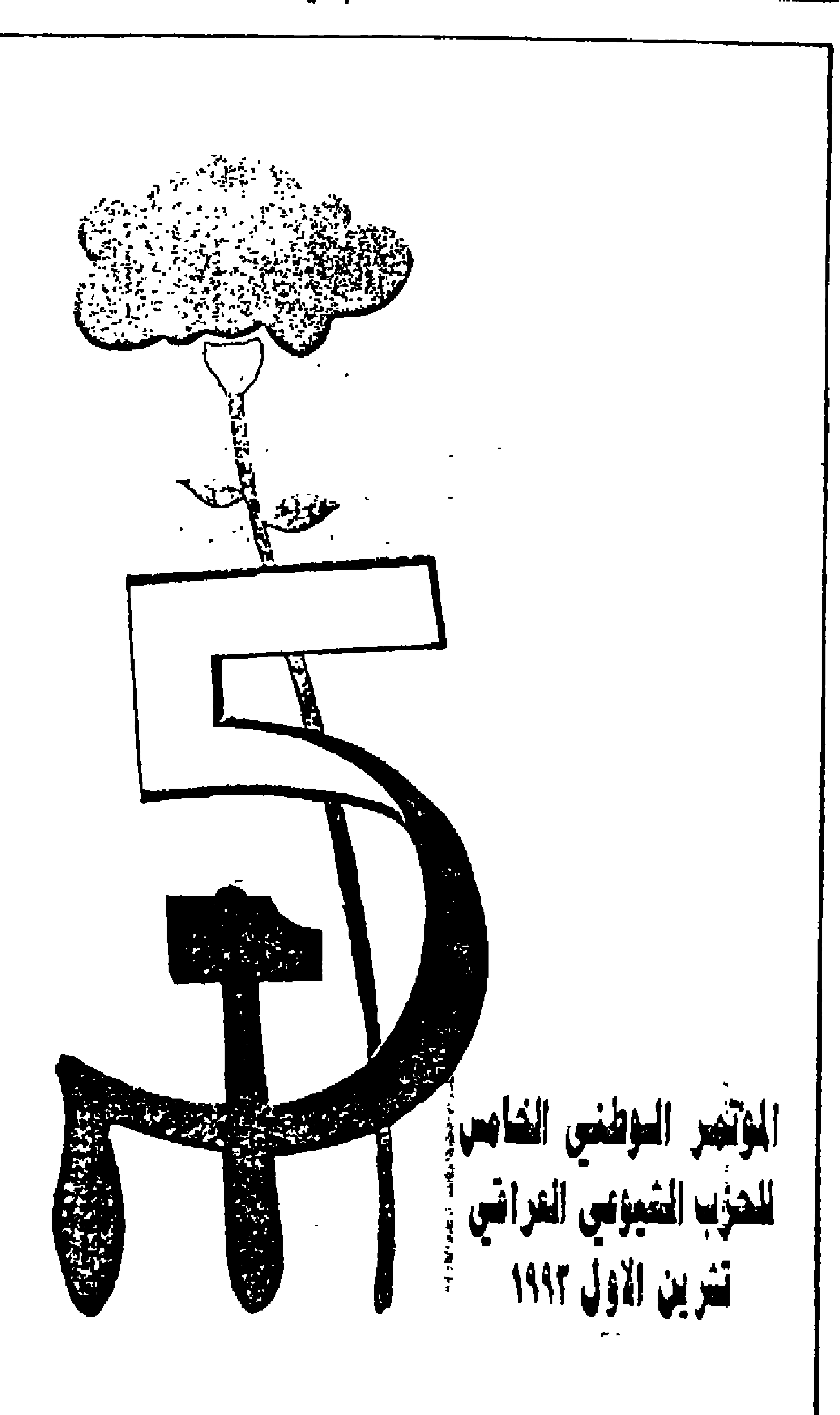
ويعرب المؤتمر عن تضامنه مع شعب كوريا الجنوبية في كفاحه العادل من أجل الديمقراطية والتقدم وتوحيد شطري كوريا.

في أعدادنا القادمة

[وثائق المؤتمر والتحايا والرسائل الموجهة اليه]

في العدد القادم

- ملامح البارزاني السياسية .... عزيز محمد
- المرحلة اللينينية من الماركسية .... زكي خيري
- ايران بعد 15 سنة من الجمهورية الاسلامية .... عادل حبة
- سياسة التحالفات .... لطفي حاتم
- مشاكل تواجه النموذج السويدي .... ك.هرمل
- الوعي الأيكولوجي و"النهر الثالث" .... د. حسن الجنابي
- حول مقالة محمود صبري .... عواد ناصر


5
المؤتمر الوطني الخامس
للحزب الشيوعي العراقي
تشرين الاول ١٩٩٣

ايها القراء........ أيها المثقفون

نأمل ان تبادروا لتجديد دعمكم لمجلتكم الثقافة الجديدة كي تواصل نضالها من اجل الديمقراطية، ونشر الثقافة التقدمية، وكي تصل الى قرائها داخل وخارج الوطن رغم العسف والضائقة المعاشية للمواطن.

المراسلات

الثقافة الجديدة
سوريا ـ دمشق
ص.ب 7122
تلفون: 449724
فاكس: 449724



السعر خمسة دنانير